مكتبة التاريخ الوسيط

دراسات فى

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٨

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٨٣٩٤٧٢ اسكندرية



مكتبة التاريخ الوسيط

دراسات فى

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٨

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٨٣٩٤٧٢ اسكندرية

فهرس المحتويات

تصــــدير

هذا الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القارىء العربى الكريم ، يحمل عنوان «دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى» ، والذى تتولى نشره مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية فى سلسلة «مكتبة التاريخ الوسيط» . وهو يضم بين دفتيه ستة بحوث فى تاريخ تلك العلاقات ، وبصفة خاصة فى عصر الحروب الصليبية ، أربعة منها سبق نشرها فى الدوريات ، والمجلات العلمية المتخصصة داخل جمهورية مصر العربية وخارجها فيما بين عامى ١٩٦٣ و ١٩٧٩ ، والبحث الخامس تحت الطبع فى مجلة «عالم الفكر» فى الكويت . أما البحث السادس والأخير فهو ينشر للمرة الأولى فى هــذه المجمــوعة .

البحث الأول يتحدث عن الدوافع الشخصية التى أدت إلى قيام الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى وهى قضية ثار حولها الكثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين الحديثين المعنيين بتاريخ العصور الوسطى بعامة وتاريخ الحركة الصليبية بخاصة . وقد قمنا باستعراض مختلف وجهات النظر ، وأهم النظريات فى هذا الصدد ، مع إثبات النتائج التى أمكن استخلاصها . والبحث الثانى عرض للحركة الصليبية والرأى العام الغربى المعاصر لها ، من واقع مصادر تلك الحركة الأدبيـــة والتاريخية والنتائج المستفادة منها . والثالث يتناول تاريخ العلاقات بين مصر والجمهوريات البحرية الإيطالية ، وبالتحديد البندقية وجنوه وبيزا ، فى العصور الوسطى ، فى ضوء موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» للقلقشنـدى . ولقد سدت المادة التى أوردها القلقشندى فى موسوعته العديد من الفجوات فى تاريخ العلاقات بين هذه الأطراف ، التى قامت — أساسا — على تبـادل

المنفعة والمصالح المشتركة ، خاصة وأن الجاليات التجارية الإيطالية ، مثل البنادقة والجنوية والبيازنة ، لم يكن يعنيها سوى الكسب والإثراء ، ولو كان ذلك على حساب بنى جلدتها من اللاتين ، كما يتضح من مواقفها أثناء الصراع الصليبي الإسلامى ، وبخاصة فى منطقة الشرق الأدنى .

أما البحثان الرابع والخامس فأولها بقلم عالمين تشيكوسلوفاكيين كبيرين هما ياروسلاف سيزار وجوزيف فوزار ، عن نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر للميلاد (فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة) . وقد ألقى البحث باللغة الإنجليزية فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للعلوم التاريخية الذى عقد بمدينة سان فرنسسكو بالولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة الواقعة من ٢٢ إلى ٢٩ أغسطس١٩٧٥ . وقمنا بنقله إلى اللغة العربية مع التقديم له والتعليق عليه. وفيه يتحدث العالمان عن مدى معرفة كل من أوروبا والشرق الأدنى بالطرف الآخر خلال الفترة الزمنية موضوع الدراسة ، وطرق المواصلات الرئيسية بين الطرفين ،وحدود الالتقاء والصراع بينهما ، وما يرتبط بذلك من مفاهيم تتعلق بموازين القوى بين الطرفين والأفعال وردود الأفعال والأسباب والنتائج .

أما البحث الآخر فهو بقلم الأستاذ عزيز سوريال عطية أستاذ شرف بمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة يوتا الامريكية ، ومؤسس المركز ومديره سابقا . والبحث مدون باللغة الانجليزية عن المؤرخ المصرى المعروف النويرى السكندرى وكتابه «الإلمام بما قضت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية» . وقد قمنا ، أيضا ، بنقله إلى اللغة العربية مع التقديم له وتزويده بعدد من التعليقات . وقد نشر هذا البحث ضمن سلسلة بحوث مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة يوتا عام ١٩٧٧ . وتناول عدة نقاط هامة عن المؤلف

وكتابه ، والنويرى كمؤرخ ، ثم حملة بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ ، والذى يعتبر كتاب النويرى المصدر المعاصر والأساس والرصيد لها من وجهة النظر المصرية ، بل وفيما يتعلق بالعديد من الوقائع والأحداث التى لم ترد فى الأصول الأجنبية . كذلك تناول البحث تقييما للتراث المتنوع المتشعب الذى خلفه النويرى . وغنى عن القول إن هذا البحث القيم عبارة عن خلاصة عمل جاد شاق دءوب قام به الأستاذ سوريال فى هذا الميدان استغرق عشرات من السنوات .

والبحث السادس والأخير بعنوان «أنشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من جدل ونقاش» . وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن هذه الأنشودة ، بمختلف اللغات ، إلا أنها لاتزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات المتأنية المتعمقة ، بسبب قضاياها العديدة التى لم تدرس بعد ، أو تلك التى لم تنل حقها الكافى من الدراسة ، أو التى لاتزال حتى اليوم مثار جدل وخلاف بين المؤرخين . وقد استعرضنا فى هذا البحث عدة نقاط ، من بينها المقصود بكلمة «أغانى المآثر» ، وملخص «أغنية رولان» ، وتاريخ أكتشافها ، واللغة التى كتبت بها ، والعصر الذى دونت فيه ، والتاريخ الذى كتبت فيه ، ومؤلفها ، ومكانها بين الأسطورة والتاريخ ، والحقيقة التاريخية فيها ، والشخصيات والأماكن الجغرافية الواردة فيها . وأنهينا هذه الدراسة بالإشارة إلى الأضواء الجديدة التى سلطت عليها ، والقضايا التى لم تحسم بعد ، ثم أهم طبعاتها وترجماتها .

والله ، سبحانه وتعالى ، ولى التوفيق ، ، ،

الاسكندرية يناير ١٩٨٣ — جوزيف نسيم يوسف

البحث الأول

الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية

نشر هذا البحث بمجلة كلية الآداب الاسكندرية — العدد السادس عشر — الاسكندرية (مصر) ١٩٦٣ — ص ١٨٣ — ٢٠٧ .

لقد قامت الحركة الصليبية نتيجة لعدة عوامل متشابكة معقدة متداخلة فى بعضها ، منها الرئيسى والثانوى ، ومنها المباشر وغير المباشر ، ومنها الخفى والظاهرى . ومن أهم هذه العوامل نظرة الغرب إلى الشرق منذ أقدم العصور باعتباره مهبط الوحى والأديان ومهد العلم والمعرفة ومركز الحضارة والاشعاع الثقافى . وكذلك تطور حركة الحج إلى الأراضى المقدسة عبر القرون الطويلة ، ونمو فكرة الحروب المسيحية المقدسة ضد العرب فى الغرب الأوروبى منذ القرن التاسع الميلادى حتى قيام الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر . هذا بالاضافة إلى الأحوال السياسية السائدة فى الغرب اللاتينى ودولة الروم والعالم العربى وقتذاك . (١) كل هذه العوامل متكاتفة اسهمت فى التمهيد للحروب الصليبية وتهيئة الجو والأذهان لقبولها ، تحقيقا لأغراض وأطماع بعيدة الغور فى سير مجرى التاريخ .

وإذا كان لنا أن نتناول الأسباب التى هيأت الجو لقيام هذه الحروب ، وأدت فى نهاية الأمر إلى احتكاك أهل الغرب بكل من العرب والروم فى الشرق ، فأننا سنكشف فى هذا المقال عن الرجل الذى مثل دورا رئيسيا فيها والدافع الشخصى فى قيامها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه بحث شاق وعر ، دار حوله الكثير من الخلاف بين المؤرخين ، إذ تباينت فيه النظريات ، ولم يبت فيه برأى قاطع

---

(١) لا يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية أو أحد فصولها من الحديث عن عوامل قيام هذه الحروب . فمن المراجع الأفرنجية يجب أن نذكر مؤلفات ميشو ، وبرييه ، وشالندون ، وجروسيه ، ورانسيمان . ومن المراجع العربية والمعربة نذكر : ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى ، ص ١٧٨ — ٢٠٨ ، والدكتور عمر كمال : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٩ — ٢٢ ، وباركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ص ١١ — ٢٦ .

حتى الآن . ولم يدرس هذا الموضوع للآن دراسة وافية ، ولم يظهر فيه كتاب أو بحث مستقل قائم بذاته يلم بكل أطرافه ونواحيه . وكل ما هنالك نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك لا تشفى غلة الباحث . ولذلك أصبح لزاما على المتصدى له تتبعه فى شتى المصادر والأصول من شرقية وغربية، معاصرة وغير معاصرة .

لقد حاول كثير من المؤرخين اسناد هذه الحركة إلى شخص دون آخر أو إلى عامل بالذات دون عوامل أخرى . كما لعبت الأساطير والخرافات دورا كبيراً فى هذا الصدد . فهناك مثلا من ينسب أمر قيامها إلى الامبراطور شارلمان وأغنية رولان المعروفة . وجعل البعض الآخر من بطرس الناسك داعية لهذه الحروب ومنفذا لها . وهناك طائفة من المؤرخين تعزى قيامها إلى امبراطور الدولة البيزنطية الكسيس كومنين . بينما يرى كثير من المؤرخين المحدثين أن الدور الأول ينسب إلى الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية ، وبابوية روما ، وبخاصة البابا أربان الثانى الذى سعى جاهدا على أن يقوم فى الشرق العربى بنفس العمل الذى سبق أن قامت به جماعة كلونى الديرية ضد العرب فى أسبانيا قبل قيام الحروب الصليبية بحوالى نصف قرن . وسنتناول فيما يلى أهم هذه النظريات والأفكار بالدراسة والتحليل .

(أولا) : أنشودة رولان وقصيدة حج شارلمان :

فى سنة ٤٧٦ سقطت الامبراطورية الرومانية القديمة إثر هجمات البرابرة عليها . وأسست هذه العناصر المتبربره دويلات جرمانيــة على انقاض الامبراطورية المنهارة . فاستقر الانجلوسكسون فى الجزيرة البريطانية ، والقوط الشرقيون فى ايطاليا ، والغربيون فى أسبانيـا ، أسس الفرنجة مملكة لهم شملت مساحات عظيمة فى غرب أوروبا من بينهـا فرنسا وأجزاء واسعة من ألمانيا التى تعتبر موطن الفرنجة الأصلى. وقد آلت هذه المملكة فى أخريات القرن الثامن

إلى الكارولنجيين وعلى رأسهم شارلمان أو شارل العظيم . ويعتبر حكمه الذى أمتد من سنة ٧٦٨ إلى ٨١٤ من الفترات الهامة الحاسمة فى تاريخ الغرب الأوروبى الوسيط ، لما يرتبط به من أحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة وتقدم الحضارة وازدهار العلوم والآداب والفنون وقتذاك .

فى ظل هذه الظروف المواتية واصل شارلمان جهود سلفه شارل مارتل فى محاولته اليائسة القضاء على حكم العرب فى غرب أوروبا . وأخذ يتحين الفرص لتحقيق حلمه هذا . وقد واتته الفرصة عندما دعاه الأمراء العرب المرابطين شمال نهر الابرو لمساعدتهم فى حروبهم الداخلية ضد خليفة قرطبة . وكان من أثر ذلك أن قام بحملتين متتاليتين تجاه الأندلس فى عامى ٧٧٨,٧٧٧ والحملة الثانية هى التى خلدها الشعراء فى الانشودة المعروفة باسم أنشودة رولان التى تعتبر من أهم الأناشيد فى الأدب الشعبى فى العصور الوسطى الأوروبية ، وإن لم يكن لها من الأهمية التاريخية والنتائج الحاسمة ما يبدو من شهرتها الفائقة فى التاريخ (١) .

كل هذا كان له أثره فى ذيوع صيت شارلمان فى الغرب والشرق حتى وصل الخلافة العباسية فى بغداد .. وتبودلت السفارات والهدايا بين العاهلين العربى والمسيحى . ويقال إن شارلمان نجح فى الحصول على تفويض من هارون

---

(١) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ٥٦ — ويعتقد نفس المؤرخ فى كتابه : شارلمان ص ٢٨٥ — ٢٨٧ ، أن الذى ألف أنشودة رولان شاعر نورماندى مجهول الاسم عاش فى انجلترا عقب الفتح النورمانى لها ، وهى تشتمل على أربعة آلاف بيت مدونة بأسلوب يصلح للالقاء لا للغناء . وفيها يتحدث الشاعر عن أعمال شارل الحربية فى أسبانيا وحصاره المدن ودكه القلاع والحصون فى أسلوب لا يخلو من المبالغة والتهويل . ويقول أن رولان الذى تدور حوله هذه القصيدة هو شخصية واقعية ، وقد اشترك بنفسه فى الحروب المذكورة وخر صريعا أثناء انسحاب الفرنجة من أسبانيا . ونظرا لما كانت القصيدة تحويه من آراء وأفكار تدعو إلى الجهاد والقتال ، فقد استغلت زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها وأهدافها .

الرشيد بحماية مسيحي فلسطين ، وتقديم التسهيلات اللازمة للحجاج اللاتين إلى الاراضى المقدسة ، وإن الخليفة منحه فوق ذلك ملكية القبر المقدس الذى شيده الامبراطور قسطنطين فى القدس فى أوائل القرن الرابع الميلادى. ويزعم بعض المؤرخين أن بطريق بيت المقدس أرسل إلى شارلمان مفاتيح قبر السيد المسيح اعترافا ضمنيا بزعامته الروحية على العالم المسيحى (١) .

هذه هى الظروف التى استغلها الغرب فى الدعاية للحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر ، أى بعد وفاة الامبراطور شارلمان بحوالى ثلاثمائة عام . وعلى هذا الأساس ظهرت أغنية رولان وأسطورة حج شارلمان فى الأدب الشعبي فى ذلك الوقت بالذات بقصد ايقاظ النعرة الدينية فى نفوس مسيحي الغرب ودفعهم فى حماس جنونى لنجدة اخوانهم فى الشرق، فى وقت جندت فيه الاقلام والعقول والافكار لخدمة هذا الغرض فحسب .

وقد تناول هذه الفكرة بالدراسة أكثر من مؤرخ نذكر منهم كارلس ديفز وجاستون باريس ، وهما من كبار العلماء المتخصصين فى التاريخ الوسيط ويقول أولهما ان هذه الأسطورة كانت معروفة من قبل ، ولكنها دخلت فى فترة الحروب الصليبية فى مرحلة جديدة . إذ ساد الاعتقاد وقتذاك أن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية متجهة إلى الشرق . وقد استغل الشعراء اللاتين هذه الناحية ، وهم يعرفون جيدا أثرها فى النفوس ، ولعلهم وجدوا تشجيعا وترحيبا من البابوية والهيئات الدينية الأخرى فى الغرب ، فخرجوا لنا بأسطورة جديدة لعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، إذ صوروا شارلمان فى هيئة محارب صليبي فى حروب مستمرة ظافرة ضد العرب . ولم يكتفوا بذلك ، بل نسجوا من خيالهم قصة مؤداها أن الامبراطور المذكور

(١) ديفز : شارلمان ص ٢٠٢ — ٢٠٣ و ٣٠٣ — ٣٠٤ .

حج إلى أورشليم وزار القسطنطينية عاصمة بيزنطة والتقى بكبار المسئولين فيها وذلك بقصد تعبئة الشعور بين أهل الغرب ضد العرب فى الشرق . وكان من أثر ذلك أن شوهوا الأنشودة الأصلية القديمة بما أدخلوه عليها فى أخريات القرن الحادى عشر من آراء وأفكار تحقيقا لغايات معينة (١) .

ويتفق المؤرخ جاستون باريس مع زميله ديفز فى أن أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان هما من وحى الخيال ، وأنهما لا يستندان إلى الحقائق التاريخية . ويزيد الأمر وضوحا فيقول ان الأغانى التى وضعت فى فترة متأخرة أقتبست نماذج لشخصيات مثل رولان من الأناشيد والملاحم الأصلية القديمة التى وردت فيها تلك النماذج للمرة الأولى ، وان الأغانى والقصائد التى استلهمها مؤلفوها من أحداث الحروب الصليبية لا شأن لها بتلك الملاحم الغنائية القديمة مثل أغنية رولان ، وان كانت قد اخذت عنها اطارها العام فحسب . وبناء على ذلك فالقصائد التى وضعت أيام الحركة الصليبية أما تقليد للقصائد الأصلية أو ابتداع من مخيلة الشعراء . ويخلص الكاتب من هذا أن أنشودة رولان تم احياؤها فى القرن الحادى عشر لتحريك الشعور فى غرب أوروبا ضد العرب فى الشرق . أما قصيدة حج شارلمان فهى قصيدة باريسية الأصل ترجع إلى سنة ١٠٦٠ تقريباً . وتكاد تكون الانتاج الأدبى الوحيد الذى وصل الينا من هذا التاريخ المبكر فى شكله الأصلى دون أن تمتد اليه يد التحوير أو التغيير . ومع ذلك فهى مختلقة من خيال الشاعر الذى نسب إلى شارلمان ورجاله أعمالا لم يقوموا أصلا بها : فهى لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، شأنها شأن أغنية رولان(٢)

والخلاصة أن حج شارلمان للاراضى المقدسة أسطورة غير موثوق بصحتها

---

(١) ديفز : شارلمان ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢) Paris, Mediaeval French Literature, 32, 38 – 42.

ابتدعتها أقلام الكتاب اللاتين عند بداية الحركة . وليس فى المصادر المعاصرة لشارلمان ما يؤكد قيامه بهذا الحج . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن أغنية رولان التى كانت عبارة عن صورة ممسوخة مشوهة للقصيدة الأصلية. وليس من العسير ادراك أنه لم يكن لحج شارلمان أو الانشودة أى أثر مباشر فى قيام الحروب الصليبية أو حتى فى التمهيد لها ، اللهم الا دورهما فى اثارة الرغبة الكامنة لدى اللاتين للعمل على توسيع دائرة نشاطهم بحيث تشمل الشرق العربى إلى جانب شبه الجزيرة الايبيرية . وقد تفنن الغرب فى ابتداع مثل هذه الأساطير التى لاقت نجاحاً كبيراً فى ذلك الحين .

(ثانياً) دور بيزنطة والكسيس كومنين فى الدعوة إلى الحروب الصليبية :

وهناك فئة من المؤرخين المحدثين ترجع إلى الامبراطور الكسيس كومنين أمر قيام هذه الحروب. ويستدلون على ذلك من خطاب (١) يقال إن الامبراطور البيزنطى أرسله حوالى سنة ١٠٨٨ إلى الكونت روبرت الأول أمير الأراضى الواطئة (٢) ، يطلب منه فيه المبادرة بارسال نجدات إلى الشرق للدفاع عن القسطنطينية ضد السلاجقة ووقف تيارهم الجارف ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على الأراضى المقدسة .

(١) أورد جيبرت ده نوجان مقتطفات من الخطاب المذكور باللاتينية فى الجزء الرابع من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ١٣١ — ١٣٢ . ولا نعلم إن كان هذا هو الخطاب الأصلى أم ترجمته ، إذ لم يصلنا النص الأغريقى له . كذلك نشره فى سنة ١٩٠١ العالم الألمانى هاجينماير ضمن مجموعة وثائق باللاتينية تحت اسم «خطابات ومراسيم متعلقة بالحرب الصليبية الأولى — ص ١٢٩ — ١٣٦». وقد نقل الخطاب المذكور إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية .

(٢) هو الكونت روبرت الأول ده فلاندرز ، وهى الأراضى الواطئة أو بلاد الفلمنك إحدى مقاطعات فرنسا . وقد حكم من سنة ١٠٧١ إلى ١٠٩٣ ، وكان من كبار رجال الاقطاع فى الغرب وتمتعت بلاده بمكانة مرموقة فى الناحيتين السياسية والاقتصادية وقتذاك . ينظر :
Grousset, Crois., I, p. In. 1.

إن طلب الكسيس المساعدة من أهل الغرب والدعوة إلى الحروب الصليبية أمر لا يزال مثار كثير من الخلاف بين المؤرخين . ولكن مما لاشك فيه أنه قد طلب العون من البابا اربان الثانى فى مؤتمرى بياتشنزا Piacenza وكليرمون Clermont ، ومن بعض كبار رجال الاقطاع فى الغرب مثل روبرت أمير الأراضي الواطئة . ومع ذلك لايمكن أن نبت برأى حاسم فيما يتعلق بنوع هذه المساعدة وماهيتها ، وعما اذا كان هدفها مساعدة الجيش البيزنطى ضد الخطر السلجوقى فحسب ، أم الدعوة الصريحة إلى حرب صليبية بقصد غزو الأراضي المقدسة .

لقد أثار الخطاب المنوه عنه الكثير من الجدل ، وكان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب أن الحملة الصليبية انما تحركت صوب القسطنطينية بناء على طلب الامبراطور البيزنطى . واعتقد كثير من العلماء القدامى فى صحة هذه الوثيقة التاريخية المنسوبة إلى الكسيس كومنين (١) . وفيها يصف فى أسلوب لا يخلو من المبالغة ما فعله الاتراك السلاجقة فى الدولة البيزنطية من مذابح وتقتيل ومن أعمال السلب والنهب ، وكيف أنهم باتوا يهددون العاصمة نفسها بشر مستطير . ونجده يضرب على أحد الأوتار الحساسة بإثارته الحماسة الدينية بين أهل الغرب ، عندما ذكرهم بما يوجد فى القسطنطينية من مخلفات وذخائر مقدسة . ولم ينس ان يقدم لهم — فضلا عما تقدم — المغريات المادية ، عندما لوح لهم بما يوجد فى العاصمة من كنوز ونفائس وأموال وذهب وأحجار كريمة ، وهو يعلم سلفا بجشع اللاتين وحبهم الشديد للمال . وأكد لهم أنهم اذا هبوا لنجدته ستكون هذه الكنوز والتحف من نصيبهم ، أما اذا تباطئوا فستقع غنيمة باردة فى قبضة التركمان . ويطلب منهم فى ختام خطابه المبادرة بارسال

---

(١) Molinier, II, 275.

الامدادات لانقاذ عاصمته المهددة ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على البيت المقدس وتخليص قبر المسيح .

هذا هو الخطاب الذى احتدم الخلاف حوله ما بين مؤيد ومعارض. وهناك رأيان على طرفى نقيض فى هذا الموضوع . أولهما رأى المدرسة الألمانية التى تنادى بصحة هذا الخطاب . وأنه إذا لم يكن الخطاب الذى وصلنا هو النص الأصلى فهو على الأقل صورة أخرى منه تحوى نفس المعنى وإن كان باسلوب مغاير . ويدافع عن هذا الرأى المؤرخان المعروفان هاجنماير Hagenmeyer ورهرشت Rohricht (١) . أما الرأى الثانى فهو رأى المدرسة الفرنسية المعارضة ، وهى تنفى نفياً قاطعا أن الكسيس أرسل أى خطاب إلى أمير الأراضى الواطئة ، وعلى رأس هذه المدرسة العالمان شالندون Chalandon وشارل ديل Ch. Diehl . ويرى هذا الرأى أيضاً كثير من المؤرخين المحدثين أمثال الكونت بول ريان Paul Riant وفازيلييف Vasiliev واستروجرسكى Ostrogorsky وستيفن رانسيمان .

ويعزز الفريق المعارض رأيه بقوله ان الأسلوب والكيفية التى دون بها الخطاب لا تتفق بحال مع العادات والتقاليد التى كانت متبعة فى ديوان الانشاء فى الدولة البيزنطية فى ذاك الحين . ويضيف الى ذلك أن هذا الخطاب لم يكتب عام ١٠٨٨ ، وانما وضع فى غرب أوروبا فيما بين عامى ١٠٩٨ و ١٠٩٩ أى بعد تاريخ الخطاب بحوالى عشر سنوات — وذلك بقصد اثارة شعور أهل الغرب وحث هممهم للاشتراك فى الحرب الصليبية والاسراع بارسال النجدات الى الافرنج بالشرق . وترجع المدرسة المذكورة أن الخطاب وضع أثناء حصار مدينة انطاكية فى الحملة الأولى . وأنصار هذا

(١) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع : Grousset, Crois., 1, p. 2 & n 2 :

الرأى يدللون على ذلك بقولهم ان البيزنطيين فوجئوا بوصول هذه الجيوش اللاتينية التى كانت تفوق فى عددها «نجوم السماء ورمال البحار» (١) وفقـا لرواية الأميرة آن كومنين ابنة الامبراطور الكسيس .

ويقول المؤرخ الفرنسى شالندون ان الكسيس لم يكن صاحب الفكرة فى قيام هذه الحروب ، وان البيزنطيين لم يستدعوا الغربيين للقيام بحرب مقدسة فى الشرق العربى ، وان الامبراطور البيزنطى حينما طلب من الكونت روبرت ارسال امدادات ، فذلك لأن الخطر التركى كان يهدد الدولـــة البيزنطية وقتئذ . يضاف الى ما تقدم أن بيزنطة كانت تستخدم الغربيين فى جيوشها كمرتزقة قبل عهد الكسيس كومنين . وكانت ترسل من وقت لآخر الى كبار رجال الغرب والى البابوية نفسها فى طلب العون والمساعدات وارسال الفرسان لدفع التركمان عن حدودها . ولذلك فان طلب الامبراطور المساعدة من الغرب لايعنى اطلاقا الدعوة الى القيام بحرب صليبية أو الذهاب للاستيلاء على البيت المقدس . ويذهب شالندون الى أبعد من ذلك . فيقول ان ما ذكره المؤرخ برنولد Bernold من أن الكسيس أرسل وفد الى مجمع بياتشنزا (٧ مارس ١٠٩٥) لحث الغرب على اغاثة الامبراطورية البيزنطية ليس له أى أساس من الصحة ، ذلك لأن الامبراطورية البيزنطية ، ليس له أى أساس من الصحة ، ذلك لأن الامبراطورية كانت وقتئذ فى حالة تمكنها من صد أى اعتداء خارجى عليها (٢) . ثم أن المؤرخين اللاتين المعاصرين لتلك الفترة امثال المؤرخ المجهول ، وريمون داجيل Raimond d' Agiles وفوشيه ده شارتر Foucher de Chartres ، لم يشيروا فى كتبهم

(١) Anna Comnena, Alexiad, 249 & 263. Cf. Diehl, L'Europe Orientale, 16.

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 156—157.

وتأليفهم إلى طلب الكنيسة المساعدة من أهل الغرب للقيام بحرب مقدسة في رقعة الشرق العربي كتلك التي شنها اللاتين ضد العرب في الغرب الأوروبي . واننا لا نجد هذه الأسطورة الا في كتب المؤرخين اللاتين المتأخرين نسبيا أمثال روبرت الراهب(١) وجيبرت ده نوجان (٢) .

ويعلل شالندون قيام هذه الأسطورة بقوله إن أهل الغرب علموا بالصعاب العديدة التي تحملها رجال الحملة الأولى ، وعندما رأوا قلة من عاد منها اذا قورن بالاعداد الضخمة التي غادرت أوطانها ، لم يكن باستطاعتهم أن يتصوروا أن السبب في ذلك أنما يعزى الى عدم كفاءة رؤساء الجيوش الفرنجية والى خلافاتهم ومنازعاتهم المستمرة ، وعدم قيادة موحدة وخطة مرسومة ثابتة . فألقوا المسؤلية جزافا على كاهل الامبراطور البيزنطي . وكانت متاعبه ومشاكله مع زعمائهم ، وما أظهره حيالهم من الحزم والعزم كي يحافظ على دولته ، سببا في اختراع هذه الأسطورة المعادية له . والتي أنتشرت بصفة خاصة بين الطبقات الشعبية في المجتمع الغربي الوسيط في أواخر القرن الحادى عشر (٣) .

ويتفق الكونت بول ريان مع شالندون وديل أن في الخطاب مختلق من اساسه ولا يوجد أى أصل يونانى له ، وأنه وضع في الغرب تحقيقا للاغراض المنوه عنها . ويذكر ريان أن مقتطفات من الخطاب المذكور وردت في كتابي جيبرت ده نوجان وروبرت الراهب ، ويعتقد أن واضع الخطاب هو روبرت الراهب (٤) .

---

(١) Robert le Moine, R.H.C. — H. Occ., III, 727.
(٢) Guibert de Nogent, R.H.C. — H. Occ., IV, 131—132.
(٣) Chalandon, Alexis Comnène, 157.
(٤) Riant, A.O. L., I, 74 sqq. Cf. Molinier, II, 275.

اما الأستاذ فازيلييف فيضع النقط فوق الحروف ، قائلا ان الحركة الصليبية كانت مشروعا غربيا بحتا ، وان وضع بيزنطة من هذه الحركة كان معقداً غاية التعقيد . فلم يكن لدينا أى فكرة عن الحرب الصليبية بمعناها المعروف فى الغرب فى القرن الحادى عشر . ثم أن امتلاك فلسطين لم يعد أمراً حيويا بالنسبة لها وقتذاك . هذا فضلا عن أنه لم يكن يوجد عداء دينى بين البيزنطيين والعرب ، ولم يوجد مبشرون فى بيزنطة للدعوة للحملة الصليبية ، على عكس الحال فى الغرب الأوروبى . ويزيد فازيلييف الأمر وضوحا فيذكر أن بيزنطة قد تورطت دون رغبة منها فى الحملة الصليبية الأولى . وكانت رغبتها الوحيدة هى الحصول على بعض المساعدات ضد تهديد السلاجقة لها ، ولم يكن لهذه الرغبة أى صلة بالحملة الغربية على فلسطين (١) .

ويقف العالم استروجرسكى الى جانب زملائه شالندون وريان وفازيلييف فيؤكد أن الحركة الصليبية كما فهمها الغرب كانت أمرا غريبا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية . فلم يجد جديد فى العلاقات بين البيزنطيين وجيرانهم العرب يستدعى القيام بمثل هذه الحركة . ثم أن مسألة الاستيلاء على الاراضى المقدسة — من وجهة النظر البيزنطية — هى مسألة سياسية من اختصاص الدولة وليست فرضا واجبا على المسيحية عامة . وأخيرا فان الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية الذى بلغ ذروته فى أواسط القرن الحادى عشر يكاد يجعل من المستحيل وجود اساس طيب للتعاون المشترك بين الطرفين . ويختم استروجرسكى تعليقه بقوله ان بيزنطه لم تطلب من الغرب محاربين صليبيين وانما جندا مرتزقة (٢) .

---

(١) أنظر مقالة فازيلييف فى : Baynes and Moss, Byzantium, 322.

(٢) Ostrogorsky, Byzantine State, 320 & 321 n.3

ومما يعزز هذا الرأى أن الكسيس اعترته الدهشة عندما علم بنزول هذه القوات الجرارة فى غير نظام على أراضى امبراطوريته . وتؤكد آن كومنين فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها أنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحركة ، وأنه علم بقدوم الفرنج عن طريق الاشاعات والأقاويل . ولذلك فوجئ بوصول هذه القوات التى لم تكف منذ أن حلت بالامبراطورية عن أعمال السلب والتدمير . وتذكر الكاتبة الأغريقية أن الصليبيين الغربيين اتخذوا من مسألة الاستيلاء على أورشليم ستارا يخفون وراءه مطامعهم التى اجمعوا عليها ، الا وهى خلع الامبراطور والاستيلاء على عاصمة ملكه بعد أن أغراهم ثراؤها الفاحش وهم قوم جشعون محبون للمال ، حتى أن الامبراطور نفسه كان يعتقد أن وجهة أولئك القوم ليست الأراضى المقدسة وانما القسطنطينية (١) .

وهذا يفسر لنا السر فى موقف الكسيس والدولة البيزنطية حيال الصليبيين اللاتين ، الذى يتلخص فى العمل بكافة الطرق والوسائل على المحافظة على الامبراطورية من عدوانهم مهما كلفهم هذا من ثمن . ثم يجب ألا ننسى أن العلاقات بين اللاتين والاغريق قبل قيام الحركة الصليبية لم تكن طيبة أو مرضية . فلم يكن هذا مما يشجعها على استدعاء الغربين للقيام بحرب صليبية ضد الشرق العربى .

---

(١) Anna Comnena, Alexiad, 250. —وتؤكد الكاتبة الأغريقية هذه الفكرة فى أكثر من موضع من كتابها .فتذكر أن بعض اللاتين من زعماء الحملة الأولى أمثال بوهيمند النورمانى كانوا يطمعون فى الدولة البيزنطية ويريدون الاستيلاء عليها وتأسيس إمارة لاتينية بها .وقد وجدوا فى تبشير بعض الدعاة بالحملة أمثال بطرس الناسك ذريعة لتحقيق أهدافهم ؛ فخدعوا السذج وبسطاء العقول وتسببوا فى قيام هذا الطوفان البشرى ،وباعوا ممتلكاتهم بحجة توجههم لتخليص القبر المقدس — تنظر ص ٢٥٢ من نفس المصدر .

وهكذا نجد أن طلب الكسيس امداده بالجند لم يكن شيئاً جديداً أو أمراً غير مألوف . ولم يكن هو أول من استن هذه السياسة من الأباطرة ، كما أنه لم يكن آخرهم . اذ سبقه البابا أسلافه مثل ميخائيل السابع ، وحذا حذوه من جاء بعده . (١) فاذا نظرنا الى الخطاب من هذه الزاوية نجد أنه صحيح لانه لا غبار عليه ، واذا طلب الكسيس النجدات من الغرب الكاثوليكى للدفاع عن القسطنطينية وحماية حدود امبراطوريته ، فهذا صحيح أيضا . أما طلب الذهاب الى الأراضى المقدسة واخراج السلاجقة منها ، فهو أمر مستبعد ويحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة ، وان كان هذا لا يمنع من القول ان الكسيس بتصرفه هذا — لو صح أن الخطاب المذكور قد صدر عنه قد نبه الغرب الأوروبى الى خطر العنصر التركمانى . ولهذا أهمية خاصة عند اللاتين الذين كانوا يعتبرون القسطنطينية حتى وقت غير بعيد من قيام الحرب الصليبية حامية الغرب الأوروبى ضد الخطر السلجوقى . ولكن هجمات السلاجقة فى آسيا الصغرى واقتطاعهم من ولايات بيزنطة الشرقية أفقدها هذا اللقب الذى كانت تتمتع به .

واذا أخذنا بوجهة النظر القائلة بصحة الخطاب ، أو أى خطاب آخر بنفس المعنى أرسله الكسيس الى روبرت ، فذلك يرجع الى أن الكونت المذكور كان قد ذهب للحج الى الأراضى المقدسة حوالى عام ١٠٨٧ ، وعند عودته التقى بالامبراطور البيزنطى ووعده بارسال خمسمائة فارس لمساعدته ضد الأتراك . ويحتمل أن الكسيس عندما لم تصله النجدة ، بعث اليه فى العام التالى يستحثه على ارسال القوات التى وعده بها(٢) .

---

(١) Cf. Ostrogorsky, 305.

(٢) Grousset, Crois., I, p. 1; Molinier, II, 275.

والأمر الذى يتفق عليه الجميع هو أن التفاصيل والحقائق التاريخية الواردة بالخطاب صحيحة فى مجموعها . وينحصر الخلاف بين المؤرخين فى أمرين حسبما أسفلنا : أولهما الخطاب نفسه وعما اذا كان قد صدر فعلا عن الكسيس أم لا ، وثانيهما مسألة صحة دعوة الكسيس لأهل الغرب للقيام بهذه الحروب الصليبية .

نخلص مما سبق ذكره أن هناك احتمالان لا ثالث لهما . إما أن الخطاب صحيح أوغير صحيح . فاذا كان قد صدر فعلا عن الكسيس فهذا لايعنى أكثر من طلب العون من الغرب لدفع خطر السلاجقة عن الدولة البيزنطية وعاصمتها كما فعل اسلافه من قبله وخلفاؤه من بعده ، ولايمكن تفسيره اطلاقا بالدعوة الصريحة لاثاره حرب صليبية . فهذه الفكرة غربية بحته ، نبتت وترعرعت فى الغرب وتولتها البابوية برعايتها وعنايتها طيلة مراحلها . واذا لم يكن قد صدر عن الامبراطور البيزنطى ونسب اليه عمدا أو بدون قصد ، فيحتمل فى هذه الحالة أن يكون قد وضع فى الغرب اللاتينى وقتذاك انتقاما من الكسيس لموقفه من زعماء الحملة الصليبية الأولى من ناحية ، ولحث اللاتين للمبادرة بنجدة إخوانهم فى الشرق من ناحية أخرى . وفى كلتا الحالتين يجب الا ننسى أن جميع المعلومات والحقائق التاريخية صحيحة فى جملتها ومضمونها .

(ثالثاً) بطرس الناسك وقيام الحرب الصليبية :

ويرى بعض المؤرخين أن بطرس الناسك هو المسئول الأول عن هذه الحروب. وحجتهم فى ذلك أنه ذهب للحج الى بيت المقدس قبيل قيام الحركة ببضع سنوات ، حيث التقى ببطريق هذه المدينة الذى حدثه عما يقاسيه الحجاج الى الأراضى المقدسة على أيدى السلاجقة . وسلمه البطريق رسالة

للبابا يطلب فيها النجدة والمساعدة . ويضيف البعض أن بطرس هذا رأى فيما يرى النائم السيد المسيح الذى طلب منه مقابلة البابا والدعوة للحرب الصليبية ، وأن بطرس قام بتنفيذ هذه الرؤيا (١) .

وهكذا صنعت الأسطورة من بطرس الناسك ناصحا لاربان وداعية للحرب الصليبية . والثابت أن الراوية تفتقر هى الأخرى الى ما يعززها ويسندها خاصة وأن المؤرخين الذين عاصروا الحرب الصليبية الأولى وأسهموا فيها بنصيب ، لم يذكروا شيئا عن بطرس والدور الذى قام به فى الدعوة الى هذه الحركة ، اللهم الا دوره فى الحرب نفسها ، اذ يتحدثون عنه كأحد رؤساء الجيش الشعبي فقط . وإن تميزت أسطورة بطرس الناسك بشئ فانما تتميز بطابعها الدينى الواضح .

ثم أن شخصية بطرس الناسك يحوطها كثير من اللبس والغموض . وتؤكد هذه الفكرة أن البحوث التاريخية الأخيرة فى هذا الموضوع اثبتت أن الوعاظ الذين قاموا بدور بطرس الناسك فى التبشير بالحروب الصليبيةوالدعاية لها انما كانوا يعدون بالمئات والآلاف . واذن فلم يكن هناك بطرس ناسك واحد معين ، بل لقد اتصفت هذه الشخصيات المتعددة كلها باسم «بطرس الناسك» . ولذا فان هذا الذى نتحدث عنه هو أحد أولئك الذين ساهموا بنصيب فى هذه الحركة .

وحقيقة الأمر أن الدور المنسوب إلى هذا الناسك ظهر فى أواسط القرن الثانى عشر ، أى بعد قيام الحملة الصليبية الأولى بحوالى نصف قرن،وخاصة

(١) Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, le p., 34—35; Historia Belli Sacri, R.H.C. — H. Occ , III, 169. Cf. also Runciman, Crusades, I, 113; Grousset, Crois., I, 5.

عند المؤرخ اللاتيني البرت دكس (١) ، وعنه أخذ وليم الصوري (٢) رئيس اساقفة صور . ولا يوجد تحت أيدينا ما يؤيد هذا الرأى سواء فى الوثائق الرسمية أو فى حوليات المؤرخين المعاصرين الذين شاهدوا مولد الحركة . وكانت آن كومنين هى الكاتبة الوحيدة المعاصرة للحرب الصليبية الأولى التى نسبت صراحة أمر قيامها إلى بطرس الناسك . (٣) ويجب أن نتقبل رأيها بشيء من التحفظ ، إذ أنها هى الأخرى قد وضعت كتابها عن تاريخ حياة أبيها قبيل منتصف القرن الثانى عشر بقليل ، وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها عندما نزلت الجيوش الصليبية فى عاصمة الدولة البيزنطية .

وقد تناول المؤرخ هاجينماير (٤) شخصية بطرس الناسك والدور الذى قام به بالدراسة والتحليل . ووضع الأمور فى نصابها بعد أن كشف عن الناحية الخيالية والناحية الواقعية فى حياة هذا الراهب . كما حطم الأسطورة القائلة

---

(١) Albert d'Aix, R.H.C. — H. Occ., IV, 272—274.

(٢) Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, i, 32 sqq.

(٣) تنسب آن كومنين أمر قيام هذه الحركة إلى بطرس الناسك . وتقول أنه كان قد ذهب للتعبد عند القبر المقدس حيث قاسى الكثير من الأحوال على ايدى الأتراك . ثم قفل عائدا إلى بلده وقد ضايقه كثيرا اخفاقه فى تحقيق بغيته ، ورغب فى القيام بنفس الرحلة مرة ثانية. وأدرك أنه يجب الا يذهب بمفرده خشية أن يصيبه مكروه . ولذلك دبر خطة ماكرة خلاصتها أن يبشر فى جميع المدن اللاتينية بأن صوت الله يأمره بدعوة جميع النبلاء وأهل الغرب لترك ديارهم والتوجه إلى الأراضى المقدسة لإنتزاعها من قبضة الأتراك . وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيراً ، إذ تمكن من اثارة النفوس والمشاعر بندائه هذا . ينظر : Anna Comnena, Alexiad, 248—249.

(٤) Cf. Hagenmeyer, Le vrai et le faux sur Pierre l'Ermite, trans. by Furcy Rayanaud. Paris, 1883.

وهو الترجمة الفرنسية للأصل الألمانى :

Hagenmeyer, Peter der Heremite, ein Kritischer Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges. Leipzig, 1879.

بأن بطرس هو الذى حث البابا أربان على القيام بالمشروع الصليبى مبينا أنه لم يقم بأى دور فى هذا السبيل (١) .

(رابعاً) ريمون كونت سان جيل وجود فرى دوق اللورين السفـلى :

وهناك أساطير أخرى لا يعتد بها قامت حول بعض الشخصيات الـتى اشتركت فى الحملة الأولى . فذكر فريق من المؤرخين أن ريمون سـان جيل كونت تولوز أحد زعماء الحملة الأولى هو الذى حث أربان لتنظيم هذهالحملة وأنه الح عليه لعقد مجلس دينى للدعوة لها بغية الحصول على الغفران عن آثامه وخطاياه . وأن هذا الرجل سبق له الحج إلى الأراضى المقدسة ، ثم عاد إلى الغرب لينشر دعايته ضد العرب والأتراك (٢) . وقد ثبت أن هذه الرواية غير صحيحة ويعوزها السند التاريخى السليم.وهناك رواية أخرى تنسب إلىجودفرى دوق اللورين السفلى أمر قيام هذه الحركة . اذ يروى أنه توجه للحج إلى بيت المقدس ، واجتمع فى طريق عودته إلى وطنه مع أسقف مدينة Puy . حيث التمس منه ارسال وفادة إلى البابا اربان الثانى للدعوة للحملة المزعومة(٣) حتى لقد جعل منه بعض المؤرخين الغربيين الحديثين محرك الحروب الصليبية وبطلهـا (٤) .

ويجب أن نتقبل مثل هذه الروايات ذات الطابع الأسطورى بكثير من الحيطة. اذ كان من الطبيعى بعد النجاح الكبير الذى احرزته الحملة الصليبية الأولى ان تظهر بعض الروايات المبالغ فيها التى تنسب أمر نجاحها إلى هـذا

(١) Cf. Molinier, Soures de l'histoire de france, II, 274.

(٢) Cf. Michel le Syrien, R.H.C. — Doc. Arm., I, 327.

(٣) Cf. Guillaume de Tyr, R.H.C. — Occ., I, le. p. 71 sqq.

(٤) Cf. Diehl, L'Europe Orientale, 19.

النبيل أو ذاك ممن اشتركوا فيها اشتراكا فعليا ، وممن ذاع صيتهم وبرزت شهرتهم .

(خامساً) البابا أربان الثانى والحركة الصليبية :

يتضح اذن أن النظريات السابقة فيها مجافاة للحقيقة وبعد عن الواقع ، وانها لا تعدو وأن تكون من نسج الخيال . فلا يمكن ارجاع الدور الأول فى قيام الحركة الصليبية إلى قصيدة حج شرلمان أو أغنية رولان ، أو إلى خطاب الكسيس كومنين ، أو تنبؤات ورؤيات بطرس الناسك ، أو غير هذه وتلك من الأساطير التى يجب حذفها نهائيا من سجل التاريخ .

والأمر الثابت الذى لا خلاف فيه أن البابا اربان الثانى — يؤيده فى ذلك الجهاز الكنسى فى الغرب — هو الذى قام بالدعوة الصريحة المباشرة إلى الحروب الصليبية وامتلاك الأراضى المقدسة (١) مستغلا فى ذلك سلطاته الدينية والزمنية التى كان يتمتع بها . وينسب اليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيسى فى تحقيق هذه الفكرة ، ومن هؤلاء فوشيه ده شارتر (٢)، وتيدبوده Tudebode (٣) ، وراوول ده كان Raoul de Caen (٤) .

لقد اعتلى اربان الكرسى البابوى سنة ١٠٨٨ ، ولكن المشاكل الداخلية التى واجهته فى السنوات الأولى من حكمه حالت بينه وبين تحقيق أمنية كانت تجيش فى صدره وطالما تاق اليها . ولكن بعد أن فرغ من مشاكله مع خصمه اللدود الامبراطور الالمانى هنرى الرابع وتخلص من مناوئته له ، وبعد دخوله روما منتصراً فى أوائل عام ١٠٩٥ ، والتى كان قد تركها مضطراً سلفه جريجورى

(١) Grousset, Crois., 1, 2; Molinier, op. cit., II, 274—5.

(٢) Cf. Foucher de Chartres, R.H.C. — H. Occ., III, 321.

(٣) Cf. Tudebode, R.H.C. — H. Occ., III, 121.

(٤) Cf. Raoul de Caen, R.H.C. — H. Occ., III, 606.

السابع ، عقد فى مدينة بياتشنزا فى مارس من نفس العام مجلسا دينيا لمناقشة الشئون الداخلية . والشىء الجديد فى هذا المجلس الذى كانت له آثاره فى قيام الحركة الصليبية ، هو أن الكسيس كومنين امبراطور بيزنطة أوفد رسلا من قبله إلى اربان فى طلب المساعدة العسكرية من دول الغرب للاستعانة بها فى دفع خطر السلاجقة الذين استولوا على جانب كبير من امبراطوريته وباتوا يهددون القسطنطينية نفسها . وقد حضر أولئك الرسل المجمع المذكور ، واذن لهم البابا بعرض طلباتهم على المجتمعين ، فأخذوا يصورون الخطر الذى تعرضت له الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تعتبر حتى وقت قريب حامية الغرب اللاتينى وحصنه المنيع . وافلحوا فى تحريك شعور أهل الغرب واثارة حماسهم لنجدة إخوانهم فى الشرق . و كان من الطبيعى أن تصادف طلبات الكسيس ترحيباً من البابوية التى وجدت فيها فرصة ذهبية لتحقيق سياستها الخاصة فى هذا السبيل (١) .

لقد حركت طلبات الكسيس كوامن النفس لدى اربان حتى أنه ارسل إلى بعض كبار رجال الاقطاع فى الغرب يطلب اليهم ارسال المساعدات إلى الامبراطور البيزنطى ، مقتفيا فى ذلك خطى سلفه البابا جريجورى السابع . ويستنتج البعض من ذلك أن مجمع بياتشنزا قد مهد بطريقة ما لمؤتمر كليرمون الذى أعلن فيه اربان مولد الحركة الصليبية ، وأن فكرة ايفاد نجدات إلى الكسيس كانت المحاولة الأولى التى مهدت بها البابوية لتلك الحركة ، ويجب أن نتقبل هذا الرأى بشىء من الحذر ، اذ ليست لدينا نصوص تاريخية لدعم هذا الزعم ، مما دفع بعض المؤرخين ومنهم الكونت ريان وفازيلييف واستروجرسكى وغيرهم إلى القول إن امتلاك الأراضى المقدسة شىء ومساعدة الدولة البيزنطية شىء آخر ، وأنه يجب عدم الخلط بين هذين الأمرين .

(1) Baldwin, Med. Church, 100; Runciman, Crusades, I, 104—5.

وهناك من المؤرخين الفرنسيين المحدثين أمثال شالندون من يؤكد أن حالة بيزنطة أثناء مؤتمر بياتشنزا لم تكن تدعو إلى المساعدة العاجلة . وأن مسألة استنجاد الامبراطور البيزنطي بالغرب كان أمراً عادياً مألوفاً ، إذ سبق أن طلبت بيزنطة من الغرب ارسال الجند المرتزقة وبخاصة الفرسان الذين كانت فى حاجة دائمة اليهم (١) .

وعلى هذا لا نستطيع القول إن فكرة الحروب الصليبية قد اثيرت أو نبتت فى مؤتمر بياتشنزا الدينى . ولا يوجد تحت ايدينا أى نص أو مستند يؤكد أن البابا اربان الثانى قد بحث هذه المسألة فى المؤتمر المذكور ، وان كان هذا لا يمنع من القول بأن أربان نفسه كان يتلمس الفرص والأسباب لتحقيق هذا المشروع ، ولم يتردد لحظة واحدة فى اخراجه إلى حيز الأشياء الملموسة عندما وجد الظروف المواتية لذلك .

لقد قام البابا أربان بالدعوة الصريحة إلى حمل الصليب وامتلاك الأراضى المقدسة وصد خطر السلاجقة ، وبذل جهودا جبارة فى سبيل جعل هذه الفكرة التى كانت حلما يداعب خياله حقيقة واقعة . ولم يتوان فى العمل على انجاحها بعد أن وجد التربة ممهدة والأفكار معدة مهيأة لتقبلها والمساهمة فيها بدور ايجابى .

ومما ساعد اربان على ذلك أن الظروف كانت مواتية وقتذاك للقيام بهذه الحروب . إذ شب وترعرع فى وسط كانت فيه الحروب المسيحية المقدسة ضد العرب فى غربى أوربا تشغل مكانا كبيراً . وتلقى علومه فى أديرة كلونى التى كانت تقوم بدعاية واسعة النطاق لحث الغربيين على الذهاب إلى أسبانيا لمساعدة الدويلات المسيحية فى الشمال ضد العرب فى سبيل الاستيلاء على شبه

(1) Cf. Chalandon, Alexis Comnéne, 156.

الجزيرة الايبيرية . ولذلك نراه يأخذ بهذه المبادىء الكلونية ، ويتشبع بها . ويبدو هذا واضحاً فى تصرفاته ومسلكه وفى موقفه من الحركة الصليبية بعد جلوسه على الكرسى البابوى . كذلك كان اربان نفسه من رعايا مدينة شامبانيا شرقى فرنسا التى أسهم فرسانها بنصيب كبير فى تلك الحملات الأسبانية . وفضلا عن ذلك فقد كان من المقربين إلى البابا الراحل جريجورى السابع ومن كبار مستشاريه . وكان هذا الأخير قد فكر جديا فى فترة بابويته (١٠٧٣ — ١٠٨٥) فى أن يوسع نطاق الحروب المسيحية المقدسة التى كانت قائمة فى أسبانيا وقتذاك ، بحيث تمتد إلى آسيا الصغرى ، وذلك بارسال حملة من مسيحيي الغرب بحجة الدفاع عن القسطنطينية ضد السلاجقة . وكادت هذه الفكرة تخرج إلى حيز التنفيذ لولا ذلك النزاع الذى قام بين جريجورى وهنرى الرابع امبراطور المانيا ، مما حال بينه وبين تحقيق المشروع (١) . ومن هنا يمكن القول أن اربان لم يرث عن جريجورى كرسى البابوية فحسب ، وانما ورث معه أفكار البابا الراحل فيما يتعلق بمسألة الحرب المقدسة فى الشرق العربى أيضاً . وبكلمة أخرى أدق واوضح فى التعبير ، كان جريجورى هو الذى أعد المشروع وهيأ له ، بينما أخرجه اربان إلى حيز الواقع . ومع ذلك فليس من السهل البت برأى قاطع فى دور كل منهما من الحركة ، وعما إذا كان قيامها يرجع إلى جريجورى أم إلى اربان أم إلى كليهما (٢) . وكل ما يعنينا هو أن اربان كان على دراية تامة بأحوال العالم العربى ودولة الروم وقتذاك،وأنه

(١) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٩١ — ١٩٢ وكذلك:

Runciman, Crusades 198—99; Daniel-Rops, La Cathédrale et la Crois., 541—2.

(٢) للمزيد من المعلومات عن موقف جريجورى من الفكرة الصليبية ، أنظر : باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٨ و ٢٣ — ٢٤ ؛ فشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

وجد الظروف الطيبة للتدخل فى شئون بيزنطة والعرب تحقيقا للسياسة البابوية التوسعية .

وعلى أية حال ، عقب انتهاء مجمع بياتشنزا فى أخريات مارس ١٠٩٥ بدأ البابا اربان جولته الدينية التفتيشية فى غرب أوروبا التى انتهت بالتبشير بالحملة الصليبية الأولى .

لقد أمضى البابا بضعة أشهر فى ايطاليا عقب انفضاض المجلس ، ومنها توجه الى فرنسا ، مخترقا جبال الألب . ثم قصد بعد ذلك إلى مدينة بوى وكان اسقفها وقتذاك هو ادهيار ده مونتى Adhemar de Monteil الذى سيصبح مندوبا للبابا فى الحملة الصليبية الأولى ورئيساً روحياً لها . وتذكر بعض المراجع أن هذا الأسقف سبق أن ذهب إلى الأراضى المقدسة حوالى عام ١٠٨٧ ، وأنه حدث البابا بعد عودته عن الخطر السلجوقى . ويحتمل كذلك أن يكون اربان قد فاتحه أثناء زيارته الأخيره له فى أمر تعيينه مندوبا عنه فى الحملة المزمع قيامها ، وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يكون . وان كانت هذه وغيرها مجرد فروض واحتمالات تعززها الأحداث المتلاحقة التى وقعت بعد ذلك .

ومن مدينة بوى وجه اربان فى ١٥ أغسطس عام ١٠٩٥ الدعوة إلى حضور مؤتمر كليرمون فى ١٨ نوفمبر من نفس العام . وجدير بالذكر أن هذه الدعوة لم تتضمن أية اشارة إلى مسألة الحرب الصليبية من قريب أو بعيد . ولعل البابا كان يهدف من وراء ذلك جعل مشروعه طى الكتمان ضمانا لنجاحه .

واصل البابا بعد ذلك رحلته الدينية فتوجه إلى مدينة سان جيل وكان صاحبها يدعى ريمون ، وهو من كبار رجال الاقطاع فى الغرب المؤيدين للبابوية . وقد لعب دوراً كبيراً فى تاريخ الحروب المسيحية ضد العرب فى

أسبانيا وفى الحملة الصليبية الأولى نفسها . ويبدو أن البابا قد تحدث اليه فى أمر مشروعه الصليبي وعزمه على تنفيذه كما تحدث إلى ادهيمار من قبل . ونستدل على ذلك من أن ريمون تطوع للذهاب إلى الشرق بعد انتهاء مؤتمر كليرمون بأيام قلائل ، مما لا يدع مجالا للشك فى أنه كان على علم سابق بهذه الخطوة ، أى قبل انعقاد المؤتمر بمدة كافية . اذ لا يعقل أن يعلم الكونت بالقرار الذى اتخذ فى مؤتمر كليرمون الذى لم يتسن له الاشتراك فيه ، وأن يحضر بعد ذلك ببضعة أيام ليسجل أسمه فى سجل الحرب المقدسة ، فى وقت كانت فيهوسائل النقل والمواصلات صعبة بطيئة غير ميسرة .

ثم واصل البابا رحلته التفتيشية فمر بعدة بلاد جنوبى فرنسا . واخيرا توجه إلى كلونى ، ذلك الدير الذى شب فيه واشرأبت نفسه بمبادئه وتعاليمه . وأقام هناك بعض الوقت مما ساعده على التأمل والتفكير الجدى فيما استقر عليه عزمه . ومن المحتمل أن يكون قد استعان بخبرة رجال كلونى فى التعرف على أحوال الشرق العربى ، اذ كانوا على علم بمجريات الأمور فى هذه المنطقة من العالم (١) .

مما سبق يتضح أن فكرة الدعوة للحرب الصليبية لم تظهر فجأة فى كليرمون ، ولم يعلن عنها رسميا فى بياتشنزا ، وانما نضجت واختمرت فى ذهن اربان خلال هذه الجولة التى طاف فيها الغرب الأوروبى فى الفترةالواقعة بين شهرى ابريل ونوفمبر من عام ١٠٩٥ . ومن هنا جاء اهتمام المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة وتتبع احداثها،ودراسة تحركات البابا وتنقلاته خلالها،

(١) فيما يتعلق بتحركات البابا وتنقلاته ينظر :

Chalandon, Histoire de la première Croisade, 19—22; Runciman, Crusades, I, 106—107; Baldwin, Med. Church, 100-101.

وتسجيل ذلك كله فى كتبهم وتآليفهم . وخلصوا من ذلك أنه كان يعد العدة فعلا للنداء بهذه الحروب .

وأخيراً فى ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ عقد مؤتمر كليرمون الذى اشترك فيه عدد كبير من رجال الدين معظمهم من فرنسا . وبالرغم من اعتقاد المؤرخين أن الدعوة للحرب الصليبية كانت الموضوع الأساسى فى جدول أعمال المؤتمر فقد عالج المجتمعون فى الفترة الواقعة من ١٨ إلى ٢٦ نوفمبر بعض الأمور الدينية التى لا تمت بصلة لتلك الحركة . واخيراً فى ٢٧ من نفس الشهر خرج البابا من الكنيسة التى عقد فيها المؤتمر جلساته ، وخطب فى الجمهور الذى احتشد خارجها لسماعه تلك الخطبة التى كانت ايذانا بقيام الحركة الصليبية(١).

لقد تركت الخطبة الملتهبة أثراً بالغا فى نفوس المستمعين الذين قابلوها بجملة صغيرة فى عدد كلماتها خطيرة فى مدلولها ، فكانت ابلغ تعبير عن سر هذه الحركة وحقيقة دوافعها ومراميها التوسعية الاستعمارية ، وهى «هذه هى ارادة الله» Deus io vult التى ستصبح صيحة الحرب والقتال للصليبيين الغربيين خلال ثلاثة قرون من الزمان . ولم يكتف اربان بذلك بل قام ووزع بنفسه الصلبان على الحاضرين الذين قاموا بتعليقها على صدورهم أو وضعها فوق اكتافهم (٢) .

(١) اثبت أربعة من المؤرخين الغربيين المعاصرين لتلك الفترة نص هذه الخطبة أو مضمونها مع اختلافات طفيفة فى بعض الألفاظ أو الكلمات التى لا تخل بالمعنى العام ، وهم : فوشيه ده شارتر فى الجزء الثالث من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ٣٢٣–٣٢٤، وربرت الراهب (نفس المجموعة والجزء ص ٧٢٧ – ٧٣٠) ، وبودرى ده بورجى (الجزء الرابع من المجموعة ص ١٣٧ – ١٤٠) . ويزعم بودرى أنه حضر المؤتمر المذكور ، بينما كتب الثلاثة الآخرون عن المؤتمر كما لو كانوا شهود عيان له . أنظر الترجمة الأنجليزية لنص فوشيه وترجمة مقتطفات من نص روبرت الراهب فى :

Downs, Basic Documents in Med. Hist., 73—6.

(٢) يقول مارشال بلدوين إن كلمة «محارب صليبى» Cusade: جاءت من كلمة الصليب =

ومهما يكن من شيء . فقد تطورت أفكار البابا اربان فى هذا المؤتمر تطوراً خطيراً . فبدلا من السعى لاعداد حملة لمساعدة الكسيس كومنين الذى التمس رسله فى بياتشنزا العون من أهل الغرب ، وبدلا من أن يقتفى خطى سلفه جريجورى فى هذا المضمار ، نراه يطالب فى جرأة وصراحة القيام بحملة كبيرة لغزو الأراضى المقدسة واستئصال شأفة العرب منها وتأسيس امارة لاتينية بها . وهكذا بدلا من أن تكون القسطنطينية هى وجهة الحملة ، أصبح بيت المقدس والشرق العربى هدفها ومرساها .

لقد تمكنت الفكرة من نفس اربان ، ووجد أنه من الضرورى اتخاذ الخطوات الايجابية لتنفيذها . فعين فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ — أى غداة القاء خطبته المشهورة — ادهيمار اسقف بوى رئيساً روحياً للحملة وقاصداً رسوليا لها . وبذلك أكد البابا الاتجاه الحقيقى لهذا المشروع الغربى التوسعى . فهو مشروع نفذته الكنيسة والبابوية بما لها من سلطات مطلقة لا يستهان بها وقتذاك ثم باركاه واشرفا عليه اشرافا فعليا طيلة مراحله . واتخذ اربان على اثر ذلك عدة قرارات لتشجيع المتطوعين للاشتراك فى الحملة . وأوفد مندوباً من قبله إلى جنوة للاتفاق على أن يقوم أسطولها بمساعدة الحملة فيما يتعلق بنقل الجند والعتاد والامدادات عبر البحر . وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر مبشراً بالحرب داعيا إلى حمل الصليب (١) .

لقد لاقت الدعوة فى الغرب نجاحا منقطع النظير ، وأثارت حماس الأوروبيين بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ تلك القارة . اذ قامت فى عصر

= الذى لبسه كل من انخرط فى تلك الحركة . ينظر Baldwin, op. cit., 101
ومن هنا عرف المحاربون الذين اشتركوا فيها باسم المحاربين الصليبيين ، وسميت الحركة نفسها باسم الحركة الصليبية .

(١) باركر : الحروب الصليبية ص ٢٣ — ٢٤ ، وكذلك :
Runciman, Crusades, I, 109—113.

سادت فيه المسيحية على انقاض الوثنية القديمة ، وسيطرت الكنيسة اللاتينية على مصائر الخلق ومقدراتهم ، يتقبلون أوامرها ونواهيها بالسمع والطاعة . فاذا قالت أن المسيح يأمر أتباعه بالتوجه إلى الشرق فى زحف مقدس لتخليص قبره ، فهذا معناه أن يهب الغرب من اقصاه إلى اقصاه للاشتراك فى هـذا الزحف . والويل لمن يخالف تعليمات الكنيسة ، حينئذ يتعرض لسيفها المسلط على الرقاب . وما أكثر أسلحتها التى كانت تستخدمها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع . ولعل هذا يفسر سر الحماس الجنونى الذى قوبلت به تلك الدعوة فى بدايتها . فلم يقتصر على جيش معين أو مدينة بذاتها ، بل عم جميع انحاء أوروبا . ولم يقتصر كذلك على طائفة دون أخرى ، بل شمل الفرسان وكبار رجال الاقطاع إلى جانب الاقنان وعبيد الأرض ، مما يؤكد وجود ظروف واحدة فى دول الغرب تجمع بينها وتؤلف بين قلوبها ، وان الافكار هناك كانت معدة فعلا لقبول هذه الحروب والاشتراك فيها .

المراجع

أولا – المصادر الأصلية

1. Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 265—713 (Paris, 1879).
2. Anna Comnena, The Alexiad. An English trans, by E.A.S. Dawes. London, 1928.
3. Anonymous, Historia Belli Sacri, R.H.C. — H. Occ., III. Paris, 1866 (pp. 165—169).
4. Baudri de Bourgueil, Historia Jerosolmitana. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 1—111. (Paris, 1879).
5. Downs, N. (Ed.), Basic Documents in Medieval History. New York, 1959.
6. Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (1095—1127). Ed. R.H.C. — H. Occ., III, 311—485, (Paris, 1866).
7. Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei Francos. Ed. R. H.C - H. Occ., IV, 113—263.
8. Guillaume de Tyr, Historia rerum in parubus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C. —H. Occ., t. le. p. (1—702). Paris, 1844.
9. Hagenmeyer, H. (Ed.), Die kreuzzugsbriefe : Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes. Innsbruck, 1901.
10. Michel le Syrien, Extrait de la Chronique de Michel le Syrien. Ed. R. H.C.—Doc. Arm., I, 309—409 (Plaris, 1869).
11. Raoul de Caen, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana. Ed. R.H.C.—H. Occ., III, 587—716.
12. Robert le Moine, Historia Iherosolimitana, Ed. R.H.C.—H. Occ., III, 717—882.
13. Tudebodus abbreviatus, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum. Ed. R.H.C.—H. Occ., III, 119—163.

ثانياً – المراجع الثانوية

(١) مراجع عربية ومعربة

١ – باركر (ارنست) : الحروب الصليبية – نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني – القاهرة ١٩٦٠ .

٢ – ديفز (هـ.و. كارلس) : أوربا فى العصور الوسطى – نقله إلى العربية الدكتور عبد الحميد حمدى محمود – الاسكندرية ١٩٥٨ .
٣ – ديفز (هـ. و. كارلس) : شارلمان – نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى – القاهرة ١٩٥٩ .
٤ – عمر كمال توفيق (دكتور) : مملكة بيت المقدس الصليبية – اسكندرية ١٩٥٧ .
٥ – فشر (هـ. ا. ل.) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى– جزءان – ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العرينى والدكتور العدوى – القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

ب – مراجع أوروبية

1. **Baldwin, M.W.**, The Mediaeval Church. New York, 1960.
2. **Baynes, N.H. & Moss, H. St. (Eds.)**, Byzantium. Oxford, 1953.
3. **Chalandon, F.**, Essai sur le Règne d'Alexis Ier. Comnène. Paris, 1900.
4. ——————, Histoire de la Premiére Croisade. Paris, 1925.
5. **Daniel-Rops**, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952
6. **Diehl, Ch.**, L'Europe Orientale de 1081—1453 (Moyen âge t. IX). Paris 1945.
7. **Grousset, R.**, Histore des Croisades. 3 vols, Paris, 1948.
8. **Hagenmeyer**. Le vrai et le faux sur Pierre L'Ermite, trad, F. Raynaud. Paris, 1883.
9. **Molinier, A.**, Les Sources de l'Histoire de France des Origines aux Guerres d'Italie. Cf. t. II : Epoque féodale, les Capétiens jusqu'en 1180. Paris., 1902.
10. **Ostrogorsky, G.**, History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey Oxford, 1956.
11. **Paris, G.**, Mediaeval French Literature, trans. from the French by H. Lynch. London, 1903.
12. **Riant, P.**, Inventaire critique des lettres historiques des croisades. Cf. A.O.L.I, 1—224 Paris, 1881.
13. **Runciman, S.**, A History of the Crusades. 3. vols. Cambridge, 1954-55.

البحث الثانى
العدوان الصليبى والرأى العام الغربى

محاضرة نشرت فى سلسلة المحاضرات العامة لجامعة الاسكندرية للعـــام الجامعى ١٩٦٧/١٩٦٨ ــ الاسكندرية (مصر) ١٩٦٨ ــ ص ٣١ــ٥٢ .

لقد أثبت الواقع والتاريخ ، كما أثبتت الأحداث التى كان مسرحها العالم العربى منذ القدم حتى يومنا هذا ، أن الحروب الصليبية تمثل حلقة من حلقات الاستعمار ومرحلة من مراحله ، وإن كان لها وضعها الخاص فى تاريخ الاستعمار مما يتفق والظروف التى صاحبت قيامها . وقد اعترف عدد غير قليل من المؤرخين الغربيين الحديثين المعنيين بالعدوان الصليبى بحقيقة أبعاده ومراميه . وفى ذلك يقول المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه R. Grousset ، فى مؤلفه «حصيلة التاريخ» : «إن الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعمارى للغرب المسيحى فى الشرق العربى» . بينما يقول زميل له ، وهو جورج تريفيليان الانجليزى G. Trevelyan «إن الحركة الصليبية هى حركة اتساع خارجى ، قامت بها أوروبا المسيحية الاقطاعية ضد العرب» . ويأخذ بهذا الرأى المؤرخ الفرنسى المعروف لويس هالفن L. Halphen ، إذ أوضح فى كتابه «انطلاقة أوروبا فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر»، أن الحركة الصليبية هى امتداد طبيعى لحروب التوسع الاقطاعى التى شهدهاالغرب فى القرون السابقة لتلك الحركة . ويزيد برنارد لويس B. Lewis الأمر وضوحاً فيقول فى كتابه «العرب فى التاريخ» : «إن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب الاوروبى ، تحركها اعتبارات مادية ودنيوية ، ويغلفها الدين كعامل نفسانى» .

هذه شهادة عدد من كبار الكتاب والمؤرخين المحدثين ، وهى تكشف عن أهداف العدوان وأبعاده الخطيرة واتجاهاته الاستعمارية فى المنطقة العربية . ولقد أثبتت أحدث البحوث التاريخية المحايدة ، المنزهة عن الميول والأهواء ، أن الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع الاستعمارى تحت قناع زائف من الدعاية الدينية ، فى عصر تميز فيه الغرب الاوروبى بالتزمت الشديد

فى هذه الناحية ، وأن غرضها الحقيقى هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين العربية ، وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربى وكسر شوكته حتى يظل فى حالة جمود وتخلف وعدم قدرة على الحركة ، ضماناً لبقاء نفوذهم فى المنطقة .

وكان الجهاز الكنسى فى الغرب هو الذى دعا إلى الحركة الصليبية وهو الذى أمدها بتأييده وتشجيعه المادى والمعنوى ، عندما افتتح بابا روما اربان الثانى ، فى أواخر نوفمبر من عام ١٠٩٥ م ، عصر التوسع الصليبى ضد العروبة والعرب ، وعندما صاح الجميع صيحتهم المشهورة «هذه هى إرادة الله» ، وعندما حمل الجميع شارة الصليب وتوجهوا فى حماس جنونى إلى الشرق العربى ، يريدون غزوه واحتلاله . وكان من الطبيعى أن يصطبغ العدوان بهذه الصبغة الدينية الظاهرية ، وكان من غير المعقول ألا يصطبغ بها فى وقت اتسمت فيه العصور الوسطى فى الغرب بميسم الدين ، وفى وقت كانت المسيحية الكاثوليكية لها شأن كبير . وكان طبيعياً أيضاً أن يكون الجهاز الكنسى البابوى هو الموجه للعدوان المحرك له ، وكان من غير المعقول أن يقوم غيره بهذا الدور ، فى وقت لم تكن فيه القوميات قد ظهرت بأوروبا ، وفى وقت كان فيه العالم الغربى عبارة عن وحدة كبرى فى مجموعه ، له كنيسة واحدة هى كنيسة روما اللاتينية ، وله بابا واحد هو بابا روما على رأس هذه الكنيسة يأتمر الجميع بأمره ، وله عاصمة روحية واحدة هى روما وقد سادت لغتها اللاتينية وحضارتها بين جميع أهل الغرب . كما مرت دوله جميعاً بنفس العوامل والتطورات التاريخية التى ميزت نهاية التاريخ القديم

وبداية العصر الوسيط . كذلك تركت فيه غزوات البرابرة الجرمان نفس التأثير ، وكان النظام الاقطاعى بمعناه المعروف منتشراً فى الغرب كله . وفى ظل هذه الظروف ، وتبعاً لكل هذه العوامل المتعددة ، وأهمها عامل الحقد والكراهية والرغبة فى التوسع والاستعمار على حساب العرب ، خرجت الفكرة الصليبية إلى حيز الواقع والأشياء الملموسة .

ولقد شغل العدوان قرابه ثلاثة قرون ، تبدأ من أواخر القا ن الحادى عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر ، أمتد فيها الصراع بين الغازى الدخيل وبين العرب أصحاب الديار .

ومما يدعو إلى التأمل العميق أن العدوان لم يكد يبدأ حتى أخذ الكتاب والمؤرخون اللاتين المعاصرون له ، يتناولونه فى كتبهم وتآليفهم بالنقد اللاذع والسخرية المريرة . وكشفوا فى مراجعهم عن وجود رأى عام غربى ضد الفكرة الصليبية . كما أثبتوا بالدليل القاطع تطور الحالة النفسية للجماهير فى الغرب ، وما كان لهذه الحركة العقلية من آثار فى دفع العدوان والمعتدين . وإذا كان لكل فعل رد فعل ، فقد كان للعدوان الصليبى رد فعل مزدوج : يتمثل جانبه الأول فى المقاومة الصلبة العنيفة العنيدة التى واجه بها العالم العربى العدوان والمعتدين . بينما يتمثل جانبه الثانى فى معارضة الرأى العام الغربى لهذا العدوان . وهذا الشق الثانى هو موضوع محاضرة اليوم .

وموضوعنا هذا من المواضيع الهامة ، التى مازالت فى حاجة إلى المزيد من البحث الجاد الهادف ، والدراسة الدائبة الواعية . فلم يظهر فيه للآن مؤلف مستقل قائم بذاته ، يلم بمختلف جوانبه ونواحيه ، باستثناء كتاب بالمر ثروب P. Throop وعنوانه «نقد الحركة الصليبية : دراسة فى الرأى العام الغربى والدعاية الصليبية» . وقد تعرض مؤلف الكتاب للموضوع من زوايا

معينة ، بينما ترك جوانب أخرى تنتظر من يتناولها بالبحث . وجدير بالذكر أن الكتاب والمؤرخين الغربيين الحديثين يتجنبون البحث بافاضة فى هذا الموضوع ، حتى لا ينزلقوا — رغماً عنهم — إلى الحديث الصريح عن الأبعاد الخطيرة للفكرة الصليبية والتيارات المعارضة لها فى قلب الغرب الاوروبى . وكل ما هناك نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك ، فى كتب التاريخ المعنية بالعدوان الصليبي لا تشفى غلة الباحث فى هذه الناحية . لذلك يجب على المتصدى لهذا الموضوع ، أن يلم بأشتاته من مختلف المصادر والأصول المعاصرة ، من عربية وأجنبية ، ومن الآداب الشعبية التى وضعت فى الغرب زمن العدوان ، والتى تعبر تعبيراً أميناً صادقاً عن أدق المشاعر والانفعالات والأحاسيس البشرية ، كشفت لنا دون زيف أو افتعال عن موقف أهل الغرب ، من عامة الشعب وصفوة رجال الفكر تجاه العدوان وعواقبه ، ورأيهم الحقيقى فيه دون تحيز وخالصاً لوجه التاريخ .

وهنا نستعرض بعض هذه التيارات المعارضة التى أشرنا اليها . من ذلك :

فى أواخر القرن الحادى عشر قامت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩م) وتمكنت فى سنوات معدودات من تأسيس أربع مستعمرات لها فى الشرق ، هى مستعمرة الرها فى أعالى الفرات ، ومستعمرة انطاكية فى أعالى الشام ، ومستعمرة طرابلس الشام بالساحل ، ومستعمرة بيت المقدس فى قلب فلسطين . ويكشف كثير من المؤرخين اللاتين الذين عاصروا تلك الحملة ودونوا أحداثها فى مؤلفات لاتزال باقية حتى اليوم ، عن شكهم فى العدوان وتشككهم فى فعاليته . كانوا يسخرون من المغامرين الصليبيين الذين يشتركون على حد قولهم — «فى مثل تلك الحملات المجنونة الهوجاء ، تاركين كل ما يملكون فى الغرب تحت رحمة الآخرين .» وكان الناس يجدون متعة فى التهكم

على أولئك المغامرين ، والمصير السيء الذى ينتظرهم فى الشرق العربى . وإن دلت هذه التصريحات المبكرة على شيء ، فانما تدل على بداية بذور الشك والتشكك فى الفكرة الصليبية ، من أساسها ومع بدايتها ، وما كانت تنطوى عليه من دوافع عدوانية قوبلت بالسخط والسخرية وعدم الرضاء .

كانت الحملة الأولى هى الحملة الغربية الوحيدة التى حققت ما حققته من انتصارات على حساب ضعف العرب وانقسامهم ، فى وقت أخذ فيه الغرب بسياسة المبادأة والهجوم ، بينما التزم العرب بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن ديارهم بوجه عام ، وفى وقت كان فيه مركز الثقل يميل بقوة لصالح المعتدى بعد الصحوة التى شملت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها . كل هذامكن أهل الغرب من تحقيق انتصارات سريعة خاطفة لم تكن تخطر لهم ببال . ولكن ما أن أفاق العرب بعد تلك الضربة المفاجئة ، حتى استشعروا الخطر الماثل المحدق بهم ، وأخذوا يتكتلون لمواجهته ودفعه عن ديارهم. وكان أن بدأت فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر بوادر يقظة عربية أخذت تسرى كالتيار فى المنطقة ، ولم يكن قد مضى على بداية العدوان سنوات معدودات وأثمرت هذه الافاقة العربية الواعية ، ظهور شخصية عماد الدين زنكى صاحب الموصل الذى تمكن فى أواسط القرن الثانى عشر من استعادة الرها من الصليبيين .

وثارت ثائرة الغرب . فقد كانت هذه أول إمارة يؤسسونها فى العالم العربى ، وأول إمارة يستعيدها العرب . ودعت البابوية إلى حملة جديدة ، تستهدف غزو الرها ، وهى التى تعرف بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩م) . وأخذ الدعاة يدعون لها بكل مكان فى الغرب ، ولكن الحملة فشلت فى تحقيق هدفها أمام بوادر الافاقة العربية . ومع فشلها أخذ الشعور باليأس يتزايد بين الغربيين ، وارتفعت الأصوات تتهم أولئك الذين دعوا

لتلك الحملة ، وكان على رأس الدعاة القديس برنارد اوف كليرفو ، بأنهم «أنبياء كذبة كالمسيخ الدجال .. وأنهم أبناء الشيطان ، بعد أن أضلوا المسيحيين الغربيين بكلماتهم المعسولة الجوفاء ، وبعد أن وجهوهم نحو البيت المقدس فى الشرق ، بخطب كاذبة خادعة» .

ومع هذا الشعور العدائى المتزايد ضد الفكرة الصليبية فى الغرب ، تمتد حركة اليقظة لتشمل العالم العربى ، وتتمخض عن ظهور شخصيات عربية أدت دورها على مسرح الأحداث وقتذاك ، وعلى رأسها نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى ، والبطل صلاح الدين الأيوبى الذى تمكن من تكتيل القوى العربية فى الشرق تحت راية واحدة هى راية العروبة ، وإعلان الجهاد المقدس من قلب مصر ضد العدو الرابض فى فلسطين . وتفلح القوة العربية الذاتية الموحدة من إلحاق شر أنواع الهزائم بالغربيين بعد فترة من المناورات والاستطلاع وجس النبض ، فى موقعة حطين الشهيرة فى يوليو سنة ١١٨٧ م ومن طردهم من البيت المقدس فى أكتوبر من نفس العام .

كانت هذه ضربة معلم جاءت فى وقتها ، وكان وقوعها وقع الصاعقة فوق رءوس الغربيين ، ولطمة قاسية لآمالهم وأحلامهم وأطماعهم فى العالم العربى واذلال لهيبتهم وكرامتهم . وقامت قيامتهم . وفى ثورة حاقدة أخذوا يدعون إلى حملة جديدة للاستيلاء على بيت المقدس لتكون المنطلق لتحقيق باقى الأطماع الصليبية . وتعرف هذه الحملة بالصليبية الثالثة (١١٨٩ ــ ١١٩٢م) . وقد قادها ثلاثة من كبار ملوكهم ، هم فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفردريك بارباروسا امبراطور المانيا الذى مات غريقاً فى أحد الأنهار الصغيرة فى آسيا الصغرى قبل وصوله إلى أورشليم . ولم تكن هذه الحملة أسعد حظاً من سابقيتها ، إذ منيت بالفشل أمام الاصرار

العربى المدرك للعدوان وعواقبه . لم تفلح الحملة فى غزو البيت المقدس والاستيلاء عليه . وأخذ صلاح الدين ، بعد ذلك ، يكيل الضربات تباعاً إلى معاقل الصليبيين فى الشرق العربى والساحل الشامى . وكان لهذه الضربات آثارها ، كما كان لأفعال المعتدين ردودها . إذ وضع أحد الرهبان الغربيين حواراً باللغة اللاتينية بينه وبين الله ، اختتمه بعبارة لها دلالتها ، هى : «إنه لأحمق غبي هذا الذى يتبعك (يعنى الله) فى معركة جديدة ضد العرب» . ويقصد بذلك أن الله لم يدع الغربيين للقيام بمثل تلك الحملات العدوانية ، ولذلك لحق بهم الخزى والعار . وكتب أحد الغربيين يقول : «لم يعد ثمة أمل فى غزو الأراضى المقدسة .. لقد انتصر العرب .. وهكذا أراد الله» .. إشارة إلى أن إرادة الله التى بدأ بها العدوان الصليبى هى التى هيأت النصر للعرب والهزيمة للمعتدين .

هذا هو الإحساس الذى عبر عنه الكتاب والمؤرخون الغربيون القدامى ، وهو إحساس يشوبه ، منذ البداية ، الفتور واليأس والقنوط تجاه العدوان ونتائجه . وخلال تلك الكوارث والمحن التى أنزلها العالم العربى بالغرب الاوروبى فى أخريات القرن الثانى عشر ، ظهر كثير من المفكرين الايطاليين المتحررين الذين أخذوا يندددون بالعدوان فى لهجة صريحة قاسية . ومن بين هؤلاء شخص يدعى يواكيم الفلورى ، نسبة إلى بلدة فلوريا بجنوب ايطاليا وكان للبيئة التى نشأ فيها يواكيم ، حيث وجدت ثقافات عديدة متنوعة المصادر والأصول ومن أهمها الثقافة العربية — كان لهذه البيئة المتحررة أثرها فى الأفكار المستنيرة التى نادى بها . لقد أبدى معارضة شديدة للحرب الصليبية ، ومن أقواله المأثورة فى هذا الشأن : «إن المسيح نفسه يعارض استيلاء الغرب على البيت المقدس ، وإن الحروب الصليبية التى قام بها أهل الغرب ضد العرب هى ضد

الارادة الالهية . وعلى البابوات أن ينوحوا ويتباكوا ليس على البيت المقدس الذى يوجد فى الشرق ، وإنما على بيتهم المقدس هم ، أى الكنيسة العالمية التى استشرى فيها الفساد .. وعليهم أيضاً أن يتوقفوا عن إنهاك المسيحية الغربية فى حروب ضد العرب لا طائل تحتها ولا أمل يرتجى من ورائها» .

وتستمر النوائب والبلايا تحل بالصليبيين الدخلاء على أيدى العرب ، ويزداد مع الزمن الرأى العام الغربى المعارض للعدوان وضوحاً وانتشاراً ، فى الوقت الذى يزداد فيه العرب قوة وصموداً وتماسكاً . وتصبح القاهرة منذ أوائل القرن الثالث عشر ، بعد الدور الذى قامت به فى سبيل توحيد العالم العربى ، هى قلب هذا العالم النابض بالحياة ، ومعقله المنيع ، ومركزه الدائم المستمر لإمداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح ضد قوى البغى والعدوان ويرى الغربيون فيها عقبة كأداء فى سبيل تحقيق أطماعهم المعروفة فى المنطقة . وتتجه أنظارهم إليها فى محاولات هدفها القضاء عليها ، ليتسنى لهم تحقيق هذه الأطماع . وكان أن تعرضت مصر خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر لحملتين صليبيتين كبيرتين ، هما الحملة الخامسة (١٢١٨ — ١٢٢١م) التى قادها أحد رجالهم وهو جان دى برين Jean de Brienne الذى كان متولياً على عكا ويحمل لقب الملك الاسمى لبيت المقدس منذ أن استعادهاالعرب من اللاتين ، والثانية هى الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ — ١٢٥٠م) بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع المعروف بالقديس لويس . ولكن ميزان القوى كان قد اعتدل نهائياً لصالح العرب ، وأصبح مركز الثقل يميل إلى جانبهم . ولذلك ألحقوا بالعدو الفرنجى هزائم مريرة على ضفاف النيل . وقصة هزيمة لويس التاسع وأسره بدار ابن لقمان فى المنصورة معروفة لنا جميعاً . لقد أدت تلك الهزيمة إلى ازدياد الشعور بالسخط فى الغرب ، وإلى انتشار موجة

موجة عارمة من الشك واليأس بين الغربيين أكدتها وعمقتها التجارب السابقة التى مروا بها ، والدروس التى لقنها العرب إياهم . كما تأثرت قدسية لويس التاسع بسبب تلك الهزيمة . وتعرض دعاة الحرب الصليبية فى الغرب للسب والاهانة من الناس علناً وجهاراً . وازدادت هذه النغمة حدة بعد موت لويس التاسع أثناء حملته الصليبية الأخيرة على تونس فى الشمال الافريقى سنة ١٢٧٠م وهى المعروفة فى عداد الحركة الصليبية بالحملة التاسعة . وازدادت مع اخفاقها موجة الهرطقة فى الغرب ، بعد أن أخذ الناس ينفضون من حول الكنيسة اللاتينية ، ويخرجون على أوامرها وتعاليمها ، فى وقت كان فيه الجهاز الكنسى لعوامل عديدة مختلفة ، يسير هو الآخر نحو التداعى والانهيار .

وفى أواخر القرن الثالث عشر ، أخذ نجم الصليبيين الغربيين فى الأفول ، كما بدأت الفكرة الصليبية فى الاحتضار ، فى وقت أصبح فيه زمام المبادرة فى قبضة العرب ، بعد أن توحدت كلمتهم واتحدت جبهتهم . واتخذوا سياسة الهجوم دفعاً للعدوان ، بينما التزم اعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم المتداعى فى الأرض المقدسة . فى ظل هذه الظروف تمكن خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ، ومن بعدهم المماليك فى مصر ، من القضاء على بقايا المعاقل الفرنجية بالساحل الشامى ، إلى أن انتهى الأمر بسقوط آخر معاقلهم الحصينة وهى عكا سنة ١٢٩١ م فى قبضة السلطان الأشرف خليل . ولم تبق بعد ذلك سوى بضعة جيوب صغيرة مبعثرة على امتداد الساحل سقطت تباعاً فى أيدى المصريين فى نفس العام ، منها صور وصيدا وحيفا .وبذلك انهار سلطان الفرنج تماماً فى منطقة الشرق العربى .

ونتيجة لذلك عمت موجة من الحزن واليأس بين دعاة الحرب والداعين إلى مواصلة العدوان فى الغرب ، وازداد الشعور بالمرارة والحقد ضد العرب .

وقامت خلال القرن الرابع عشر محاولات يائسة لإحياء الروح الصليبية البغيضة من جديد ، لتحقيق نفس الأطماع القديمة . وقام كثير من الدعاة بالدعوة إلى الحرب الصليبية فى شتى أرجاء الغرب ، كما ظهرت مشاريع ومؤلفات عديدة فى هذا الشأن . ومن هؤلاء الدعاة بطرس ديبوا Pierre Dubois ، ورامون لال Ramon Lull ، وبيركارد من جبل صهيون Burcard of Mount Sion ، وبطرس دى توما Pierre de Thomas ، وفيليب دى مزيير Philippe de Mézières ، وهمبرت اوف رومانز Humbert of Romans ، وغيرهم ممن أخذوا يشجعون أهل الغرب على الأخذ بأسباب الحروب الصليبية من جديد .

ويعتبر الكتاب الذى وضعه همبرت اوف رومانز باللغة اللاتينية ، واسمه «الدعوة إلى حملة صليبية جديدة» ، وثيقة أصلية معاصرة تتميز بأهميتها الفائقة فيما نحن بصدده . ففيه يعدد همبرت الأسباب التى جعلت الناس فى الغرب ينصرفون عن الفكرة الصليبية ويحجمون إحجاماً تاماً عن الاشتراك فى حملات جديدة ضد العرب . وينتقل بعد ذلك إلى تقسيم المعارضين للعدوان المنددين به إلى مجموعات متقاربة متجانسة ، مع بيان الأسباب التى تدعو كل مجموعة منها إلى الوقوف من العدوان هذا الموقف المعارض . وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب لم يكن يهدف أساساً إلى الكشف عن معارضة الرأى العام الغربى للفكرة الصليبية ، وإنما وجد نفسه مضطراً ، وهو يدعو إلى حملة صليبية جديدة ، إلى الرد على المعارضين لها . فكشف عن غير قصد منه — هذا التيار الذى كان يسرى كالنار فى الغرب ضد فكرة الحرب ، وما جرته على الغربيين من ويلات .

وقد تحدث همبرت ، فى القسم الأول من مؤلفه ، عن الأسباب التى دعت

أهل الغرب إلى الانصراف عن الفكرة الصليبية ، وحصر هذه الأسباب فى النقاط الست التالية :

(أولا) اتصاف الغربيين بالجبن :

يشير المؤلف هنا إلى الجبن الطبيعي الذى يتصف به الغربيون ، وخوفهم الزائد من ركوب البحر . ويقول إنهم كانوا يرتعدون خوفاً كلما مر بخاطرهم ما قد يصيبهم خلال الطريق منذ خروجهم من ديارهم فى الغرب إلى الشرق العربي من مخاطر وأهوال قد تؤدي بهم مورد التهلكة . ويؤكد ذلك أحد المؤرخين العرب ، وهو أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ، إذ قال فى كتابه «صبح الأعشى فى صناعة الانشاء» إن أولئك القوم هم أجبن خلق الله تعالى . ويضيف همبرت إلى ذلك ، أن انغماس الغربيين فى اللهو والملذات ، أمات روح الحرب والقتال فيهم . ويعبر الأدب الشعبي فى الغرب عن هذا الجبن أوضح تعبير . إذ كان الناس يصرحون علانية أنهم يفضلون التمتع بالحياة فى ديارهم ، عن المخاطرة بحياتهم فى حرب صليبية قد تكون فيها نهايتهم . كذلك أبدى كثير من الشعراء ، فى قصائدهم وأشعارهم ارتباطهم ببلادهم الجميلة ، وذكروا أن مغادرتهم لها فى حملة خارجية ، سوف يسبب لهم ألماً وحسرة زائدين .

(ثانياً) سخرية الغربيين من المغامرين الصليبيين :

تكشف الوثائق أن كثيراً من الغربيين كانوا يسخرون من زملائهم الذين يتوجهون فى حملة صليبية ضد العرب . وهم فى ذلك يقولون : «ما الفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التى تكلف الكثير ، بينما يترك المرء مصالحه الخاصة فى بلاده التى تدر عليه الربح الوفير ، ليشترك فى حرب لا تنتهى ، ولا يمكن أن تنتهى ، وقد يخسر فيها كل شيء» . وهم أيضاً يقولون فى أسلوب لاذع :

«كم ستكون الخسارة التى ستحل بالمغامر وأسرته وبأهله وعشيرته ، إذا ذهب فى حرب صليبية خارج بلاده» .

(ثالثاً) الرابطة الأسرية وأثرها :

أعطى الكثيرون فى الغرب ظهورهم للحرب الصليبية ، بسبب ارتباطهم بعائلاتهم وذويهم . وكان الواحد منهم يتساءل : «كيف أترك أبى وأمى ، وكيف أفارق زوجتى وأولادى ، وأذهب فى حرب لن أجنى من ورائها شيئاً ، بل قد أخسر كل شيء ؟» ويلاحظ أن الأغانى الشعبية التى وضعت زمن العدوان باللغتين الألمانية والفرنسية القديمتين ، تبرز هذا المعنى وتؤكده . فهى مليئة بعبارات تدل على اليأس الذى استولى على أهل الغرب ، بمجرد التفكير فى فراق الأهل والأقارب والأحباب ، بسبب الاشتراك فى حرب صليبية . وكثيراً ما كانت مثل هذه الأغانى اللا صليبية ، تنشد على الآلات الوترية فى الشوارع والطرقات بصوت مرتفع ، وهى تعبر عن شكوى الزوج المسكين أو العاشق المتيم من لوعة الفراق ، كما تصور الصراع النفسى الذى كان يمزق المغامر الصليبي من الأعماق .

(رابعاً) معارضة نساء الغرب للفكرة الصليبية :

وكان لنساء الغرب موقف واضح من العدوان له أسبابه ودوافعه . لقد عارضن فكرة الحرب الصليبية معارضة تامة ، ولم تبدين أى اهتمام بها ، لأنها تتسبب فى الفصل بينهن وبين أزواجهن ، ولأنها تؤرق حبهن لبعد الأحباء . وفى كثير من الأغانى الشعبية ، يذكر الشعراء أن النساء احتججن بشدة لأن الحرب انتزعت رجالهن منهن . وهذا يدل على أن الحماس لتلك الفكرة ، لم يكن أصيلا أو متأصلا ، بسبب تلك الروابط الشخصية العميقة . فالزوج المسكين الذى يشترك فى حملة صليبية ، مشغول فى الواقع عنها بزوجة وأولاد

تركهم وراءه فى الغرب . وكذلك العاشق الولهان ، يشترك مع الجيش الصليبى بجسده ، بينما عقله وقلبه منصرفان إلى خليلة قد يكون وداعه لها هو الوداع الأخير . أما الزوجة التى ذهب زوجها فى الحرب ، فهى تعيش فى قلق نفسى يعتمل فى داخلها . إن غياب زوجها يعنى هدم بيتها الصغير ، وتفكك الرابطة الأسرية ، وما يجره ذلك على المجتمع من مآس وهزات .

كانت هذه العوامل بادية للعيان . فالمشتركون فى العدوان غير مقتنعين به غير راضين عنه ، وكذلك الحال بالنسبة للمتخلفين فى الغرب ، وإن اختلفت الدوافع والأسباب .

ولقد أدركت الكنيسة اللاتينية الخطر الذى يحيق بالحركة الصليبية وفتور الحماس لها . وحتى تحد من كراهية النساء للحركة ، أعلنت أنها تمنح الزوجات اللائى يذهب أزواجهن فى حرب صليبية ، نفس الامتيازات التى يتمتع بها كل من ينخرط فى سلك هذه هذه الحروب ، وأولها الغفران البابوى . ومع ذلك لم تهتم نسوة الغرب بتلك المغريات ، وأدرن لها ظهورهن ، فى وقت بدأت فيه الكنيسة نفسها تفقد سلطانها وسطوتها ، بينما أخذت أسلحتها العديدة تفقد هى الأخرى فعاليتها ، نتيجة للتغير الكبير الذى طرأ على الغرب الأوروبى وقتذاك .

(خامساً) تعللات وحجج وأعذار للتنصل من الاشتراك فى الحرب :

وثمة كثيرون أخذوا يتعللون بعدم إمكانهم الاشتراك فى حرب صليبية خارج بلادهم لسبب أو لآخر . فمنهم من احتج بعدم وجود المال الكافى لديه للانفاق على نفسه أثناء الحملة . ومنهم من اعتذر بسبب سوء حالته الصحية التى لا تحتمل مشاق الرحلة وأخطارها . بينما تذرع البعض بقولهم إنه ليس هناك من ينوب عنهم فى بلادهم للقيام بأعمالهم وإدارة شئونهم الخاصة

أثناء تغيبهم فى الشرق . وهناك من احتج بأنه أب لأولاد صغار هم بحاجة إليه وإلى رعايته لهم ووجوده بجوارهم ، وأنه إذا تركهم وشأنهم فلن يجدوا من يعولهم ويرعاهم ، وسيكون مآلهم الضياع .

(سادساً) عدم الايمان أساساً بالفكرة الصليبية :

وينتقل همبرت بعد ذلك إلى ذكر السبب الرئيسى الذى حال بين الغربيين وبين الاشتراك فى مغامرة صليبية جديدة ، وهو عدم الايمان أصلا بالفكرة الصليبية . فهم يرون أنه ليس هناك أى داع للقيام بمثل تلك المغامرة.وكانت التجارب السابقة التى مر بها أهل الغرب ، والضربات التى تلقوها على أيدى العرب ، مما يعزز هذا الاتجاه . فهناك كثيرون لا يؤمنون إطلاقاً بالامتيازات المادية والروحية التى كانت البابوية تمنحها عادة لمن ينخرط فى سلك حرب صليبية ضد العرب . ولم تكن هذه الاعفاءات ، فى يوم ما ، موضع ترحيب من الشعب ، وإن كان هدف المسئولين منها هو الترغيب .

لقد أبدى الشعراء الغربيون شكوكهم صراحة فى جدية هذه الامتيازات وفى قيمتها . وأعلن البعض فى قصائدهم أنها لا تساوى شيئاً ، بينما قال البعض الآخر إن البابوات كانوا يمنحون صكوك الغفران لمن يشترك فى تلك الحروب طمعاً فى المال فحسب . كل هذا يكشف عن شعور بالاستهانة والاستخفاف واللا مبالاة كان سائداً فى الغرب ضد الفكرة الصليبية .

وهكذا لم يكن الحماس الشعبى للحركة الصليبية حقيقياً متأصلا ، كما لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة فى القتال . وليس لنا أن ننتظر منهم ذلك بعد أن تأكد فتور الحماس عندهم بشكل ملموس ، وبعد أن وضحت أبعاد العدوان وتكشفت حقيقة مراميه . فهم يحاربون فى أرض غريبة عنهم ، وفى بلاد غير بلادهم وملك غير ملكهم .

بعد أن عدد همبرت اوف رومانز الأسباب التى حالت بين شعوب الغرب وبين الاشتراك فى العدوان الصليبى ، نجده يقسم المعارضين للعدوان المتشككين فيه إلى ست مجموعات متجانسة ، هى :

المجموعة الأولى : وينادى أفرادها بأن إراقة دم أى عربى فى حرب صليبية أمر يتنافى والتعاليم التى نادى بها المسيح . لقد كانت دعوته دعوة محبة وسلام ، وليست دعوة اقتتال وسفك دماء . هذا، بصرف النظر عن عشرات الألوف من الغربيين الذين يذهبون ضحية هذه الحرب ، ومن بينهم أباطرة وملوك وأمراء وفرسان ، كانت بلادهم أحوج ما تكون إليهم وإلى خبراتهم وأن بقاءهم فى ديارهم كان أولى من المخاطرة بحياتهم فى تلك الحملات المهلكة ويتساءل المنددون بالفكرة الصليبية عن الحكمة فى المخاطرة بصفوة رجال الغرب فى حروب لن تعود آخر الأمر بأى نفع على أوروبا .

المجموعة الثانية : ثمة مجموعة أخرى يرى أتباعها أن ظروف الحرب لن تكون آخر الامر فى صالح الغرب لأسباب عديدة متعددة ، منها أن المحاربين الغربيين يعتبرون قلة دائماً ، إذا قورنوا بالكثرة العددية للعرب أصحاب الديار ثم أنهم سوف يقاسون من جو الشرق الحار الذى لم يتعودوا عليه وهم فى داخل ملابسهم الحربية الثقيلة التى تحد من حركتهم ، بينما العرب معتادون على هذا الجو ، ويمتازون بملابسهم الخفيفة التى تساعدهم على سرعة الحركة ومباغتة العدو واقتناصه . وعلى المقاتلين الغربيين تناول أطعمة ومأكولات غير مألوفة لهم ولأذواقهم ، بينما العرب يألفونها . وبينما نجد العرب على علم تام بالمعابر والممرات وبالطرق والمسالك فى بلادهم ، كان الصليبيون يجهلونها . وبينما المخاطرون اللاتين تعوزهم الامدادات المستمرة من المؤن ، كان كل شىء متوفراً لدى العرب ، ولم تكن مسألة إمداد الجيش بالمؤن والأزواد تشكل

أية صعوبة بالنسبة لهم . وهذه كلها أمور لها وزنها واعتبارها عند خوض معركة ما ، بحيث لا يمكن التهوين من شأنها . ويستطرد أتباع هذه المجموعة من المعارضين قائلين : «إنه لمن الغباء ، بطبيعة الحال ، أن يذهب المرء للقتال تحت ظل هذه الظروف المضادة» . ويتوصلون من وراء هذا التحليل المنطقى بقولهم : «لما كانت الحكمة وبعد النظر يعتبران من أهم الشروط لضمان النجاح فى حرب ما ، لذا يجب على الغربيين ألا يحاولوا إطلاقاً إثارة مثل هذا الصراع الدامى الذى لن يعود عليهم بأية فائدة» .

المجموعة الثالثة : أما المجموعة الثالثة من المعارضين لفكرة الحرب ، فينادى أتباعها بأنهم على استعداد للدفاع عن أنفسهم فى حالة واحدة فقط ، هى إذا هاجمهم العرب فى عقر دارهم فى الغرب . وخلاف ذلك فهم يتركونهم وشأنهم دون أن يلهثوا وراءهم فى مغامرات غير مأمونة العواقب أو مضمونة النتائج . ويعبر عن ذلك تعبيراً صادقاً الأدب الشعبى فى الغرب فى القرن الثالث عشر ، وهو عصر احتضار الفكرة الصليبية . إذ نجد مثالا حياً فى قصيدة بالفرنسية القديمة لشاعر فرنسى يدعى وليم رتبوف ، جاء فيها : «إنه لمن الحمق والغباء أن يخاطر المرء بحياته فى حرب خارجية ، طالما كان بوسعه أن يتصل بالله فى وطنه ، وهو بين أهله وعشيرته وأن يعيش فى نعمة ويسر وسلام» . وتتكرر هذه الفكرة فى القصيدة على امتدادها . وكانت هذه هى النغمة السائدة فى الغرب من أقصاه إلى أقصاه إبان العدوان . وقد ازداد رنينها بعد أن أيقن الغربيون أن العدوان الذى أثاروه ضد العرب كان بمثابة مقبرة لهم ولآمالهم فى رقعة العالم العربى .

المجموعة الرابعة : يتساءل أتباع هذه المجموعة قائلين : «لماذا لا يقضى الغربيون — مثلا — على اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، والذين يسببون

لهم متاعب ومضايقات لاعد لها ولا حصر ؟ لماذا لا يلفظونهم خارج ديارهم ويرتاحون منهم ، بدلا من الجرى وراء العرب وقطع آلاف الأميال سعياً وراء مغامرة محفوفة بالمخاطر والأهوال ؟» .

وتحتاج هذه النقطة إلى وقفة سريعة لازمة . فهى تكشف عن كره الغربيين العميق لليهود . كما تكشف عن أفكار كانت تدور فى رؤوس الغربيين تجاه هذا العنصر ، وعن المحاولات التى كان يجرى بحثها هناك ابان الحركة الصليبية بهدف التخلص من اليهود . وهذه حقيقة لها أكثر من دلالة وأكثر من مغزى إذ كان العداء قديماً ومستحكماً بين الغربيين واليهود المقيمين فى الغرب . وهو يرجع إلى عوامل عديدة ، من أهمها تحكم اليهود — وقبل أن تبدأ الحركة الصليبية بزمن طويل — فى اقتصاديات الغرب وإضرارهم بها . فضلا عن أن الغربيين كانوا يعتبرون اليهود غير قوميين أو وطنيين أو مخلصين للبلاد التى يعيشون تحت سمائها ويستظلون بظلها . إذ كانت الجاليات اليهودية تشكل داخل البلاد التى تعيش فيها دولة داخل الدولة .

وقد اتخذ هذا العداء مظاهر شتى . إذ تشير المصادر الغربية التى عاصرت العدوان الصليبى ، إلى المذابح التى شهدتها أوروبا ضد يهود الغرب ، والتى كان الصليبيون — عادة — يبدأون بها أى حملة صليبية يقومون بها ضد العرب ومن ذلك موقف الحملات الألمانية الشعبية التى سبقت قيام الحملة الصليبية الأولى ، حيال اليهود فى أوروبا . كانت إحدى هذه الحملات بقيادة شخص يدعى فولكمار . وتروى المصادر اللاتينية أنه عندما بلغ أفرادها مدينة براغ ، وهم فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة ، أعملوا القتل فى جميع يهود المدينة . وثمة حملة أخرى كانت بقيادة شخص يدعى كونت اميكو ، وقد بدأت مسيرتها بقتل جميع اليهود فى مدن الراين . واستمرت المذبحة — كما تروى

المصادر — شهراً كاملا فى كثير من المدن ، من بينها ماينز وكولونيا وتريف وورمز وميتز . وقد قتل فيها عدد كبير جداً من اليهود من بينهم رئيس الجالية اليهودية نفسه . وكان اليهود يلجأون أحياناً إلى قصور المطارنة للاحتماء بها من غضبة الجماهير فى الغرب . ولكن الغربيين كانوا يهاجمون تلك القصور ، ويجبرون المطارنة على مغادرتها ، ثم يقومون بذبح اللاجئين إليها من اليهود . وقد تكررت هذه المواقف فى كافة أرجاء الغرب طيلة مراحل العدوان الصليبى معلنة عن سخط وغضبة الشعوب الغربية على هذا العنصر الذى كان فى نظرها أشبه بدود لحاء الشجر ، أو السوس الذى ينخر فى العظام ، أو اخطبوط تمتد أذرعه إلى كل شبر فى الغرب .

والخلاصة أن هذا الشعور المعادى لليهود فى الغرب له جذوره العميقة . فهو يرجع إلى أقدم العصور ، ولايزال قائماً حتى اليوم ، وإن كانت هناك فى الوقت الحاضر ظروف معينة وموقتة تخفف فى الظاهر من عنفه وحدته . ولكنه عداء كامن ينتظر أول فرصة مواتية ليعبر عن نفسه مرة أخرى ، كما حدث — على سبيل المثال — فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . والسؤال الذى يجب أن نطرحه على أنفسنا اليوم ، ونحن نخوض معركة المصير العربى ضد الصهيونية والاستعمار ، هو : كيف نستفيد من هذا العداء لصالح قضية المصير العربى ؟ والاجابة عنه تحتاج إلى بحث وتدبر ،وإلى دراسة وتخطيط ، وإلى ذكاء ودهاء ، وإلى منهج علمى مدروس .

المجموعة الخامسة : وهناك مجموعة أخرى فى الغرب ترى أن العدوان الصليبى كانت له نتيجة غير ما توقع الغربيون أنفسهم . إذ أشعل ضدهم ثورة العرب ، الذين باتوا يتحينون الفرصة المواتية للثأر والانتقام . ويزيد أنصار هذه المجموعة الأمر وضوحاً بقولهم : «إنه لا توجد لدينا عندما نقوم بغزو

أرض العرب ، قوة ثابتة دائمة يمكن بها السيطرة على أولئك الذين يحرثون تلك الأرض ويفلحونها ويعيشون على ما تغله من خيرات ، طالما أن رجالنا لا يرغبون فى البقاء فى تلك الجهات .»

وترتبط هذه الفكرة أساساً بسياسة التهجير والاستيطان الاستعمارى فى العالم العربى إبان العدوان الصليبى . إذ تتلخص التجربة الصليبية فى قدوم الحملات الغربية لتحقيق أهداف العدوان . وبعد انتهاء كل حملة ، يعود غالبية الصليبيين إلى ديارهم بالغرب ، بينما تبقى فى الشرق أقلية منهم . وحتى هذه الأقلية الضئيلة إما أن تذوب تلقائياً بين الأغلبية العربية ، وبذلك تنمحى شخصيتها وينتهى كيانها ، وإما أن تنزح إلى أوطانها بعد قليل . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة ، من سياسة واجتماعية واقتصادية ، داخل أوروبا نفسها تشد أولئك المغامرين إليها ، فضلا عن اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل الأرض العربية المحتلة ، والمقاومة العربية الشديدة المتزايدة التى تسبب لأولئك الدخلاء قلقاً بالغاً . وأخيراً إدراك الغزاة أن العرب يحيطون بهم من كل جانب ، وأنهم إذا اتحدوا دفاعاً عن وجودهم ومقدساتهم — وهذا أمر لا مندوحة عنه — سيطبقون عليهم ويقبضون على البقية الباقية منهم . ولهذا السبب لم تكن نداءات تهجير الغربيين إلى المستعمرات الصليبية فى الشرق تلقى استجابة كافية بين أهل الغرب . يضاف إلى ما تقدم ، أنه كان من عادة الصليبيين الغربيين الاستقرار فى المدن وترك المواطنين العرب فى القرى يحرثون الأرض ويفلحونها . والنتيجة أن العرب أصحاب الديار كانوا دائماً أغلبية فى ديارهم ، بينما الفرنج الغزاة أقلية ليست هناك أى رابطة تربطهم بالأرض التى يحتلونها . وهذا يلقى تفسيراً كافياً على تساؤلات أنصار المجموعة الخامسة المعارضة للفكرة الصليبية .

المجموعة السادسة : وهناك فريق آخر من المنددين بالعدوان يبرر موقفه بأن هذا العدوان ضد مشيئة الله وإرادته . فقد أنذر — سبحانه وتعالى — الغربيين بالكوارث والويلات التى سوف تحل بهم إذا دخلوا فى صراع مع العرب . ويعزز هذا الفريق رأيه عندما يتساءل فى لهجة لاذعة قاسية تنم عن الشك العميق فى العدوان وجدواه . يتساءل أتباع هذا الفريق قائلين : «لماذا سمح الله لصلاح الدين أن يسترد بسرعة فائقة الأرض التى بذل الغربيون الأرواح والجهد والمال فى سبيل الحصول عليها ؟ ولماذا سمح الله بأن يغرق الامبراطور الألمانى فردريك الأول باربروسا أحد زعماء الحملة الصليبية الثالثة فى جدول ماء صغير وهو فى طريقه لقتال العرب فى الأرض المقدسة ؟ ولماذا سمح الله للملك لويس التاسع واخوته ونبلائه كلهم تقريباً بأن يقعوا أسرى فى قبضة المصريين ؟ ولماذا مات لويس التاسع وابنه يوحنا الحزين وهما يهاجمان العرب فى تونس فى الشمال الافريقى ؟ أما كان بوسعه — عز وجل — أن يحول دون وقوع كل هذه البلايا والكوارث إذا كانت هذه الحرب التى نقوم بها أمراً يرضيه ؟ لاشك أنه — جل وعلا — غير راض عنها ، ولهذا حلت علينا لعنته»

وجدير بالذكر أن مثل هذه التساؤلات وغيرها بما تحمله من معان الشك والتشكك فى العدوان ومظاهر السخط على القائمين به الداعين إليه ، كانت أمراً عادياً شائعاً ومألوفاً فى الغرب وقتذاك ، وكانت على ألسنة الجميع من كبير وصغير وغنى وفقير . ولم تقتصر على بلد واحد من بلدان الغرب ، وإنما شملت الغرب الأوروبى كله من أقصاه إلى أقصاه . وقد حفظت لنا المصادر التاريخية والآداب الشعبية التى وضعت فى الغرب فى عصر التوسع الصليبى ، هذا التراث القيم من الضياع بما له من أهمية فائقة .

وما دمنا نتحدث عن معارضة الرأى العام الغربى للعدوان الصليبى ضد

العالم العربى ، يجب أن نشير إلى ثلاثة من صفوة الأحرار المعتدلين فى آرائهم من أهل الغرب الذين وقفوا من هذا العدوان موقف الصريحة . وقد عاش ثلاثتهم فى القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذى شاهد الفكرة الصليبية وهى تلفظ آخر أنفاسها ، ويمثل كل منهم قطاعاً عاماً من قطاعات المجتمع الغربى وقتها .

أولهم من رجال الفكر والقلم ، وهو الشاعر الفرنسى وليم رتبوف .. وثانيهم من رجال الدين والكهنوت ، وهو الكاهن الانجليزى متى الباريزى وثالثهم من رجال الحكم والسياسة ، وهو الامبراطور الألمانى فردريك الثانى ، حفيد الامبراطور فردريك بارباروسا أحد زعماء الحملة الصليبية الثالثة ..

عاصر الشاعر وليم رتبوف (١٢٤٥ — ١٢٨٥م) أحداث تلك الفترة من الزمن . ووضع قصيدة طويلة باللغة الفرنسية القديمة ، يسخر فيها من الجهاز البابوى فى الغرب الذى جعل من العدوان الصليبى وسيلة لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعه البعيدة فى العالم العربى . ومما قاله إذا إنه كان الله موجوداً فى كل مكان من العالم ، فلاشك أنه موجود فى ايطاليا وفى انجلترا وفى ألمانيا وفى فرنسا وفى غيرها من بلدان الغرب . وعلى هذا ليس هناك داع للبحث عنه فى الأراضى المقدسة فيما وراء البحار . وكأن لسان حاله يقول : «لماذا يلهث الغربيون وراء الله فى أرض غريبة عنهم تفصل بينهم وبينها آلاف الأميال ، فى حين أنه بوسعهم الاتصال بالله فى ديارهم والعيش فى نعمة ويسر وسلام ، إذا كان هذا فى الحقيقة هو الهدف الذى يسعون إليه . فإن الحصول على رضاء الله وغفرانه لا يستدعى بالضرورة التوجه إلى قبره فى فلسطين» . وهكذا يكشف الشاعر بطريق غير مباشر عن حقيقة العدوان الصليبى الذى لا يمت إلى الدين بصلة ، ولو أنه اتخذ من الدين قناعا لتغطية أهدافه ، فى عصر كانت

فيه الظروف والأوضاع فى الغرب مهيأة لذلك . ويستمر الشاعر فى نقده اللاذع للفكرة الصليبية بكل ما تنطوى عليه من أحقاد وأطماع ، معبراً عما كان يجيش فى صدور الملايين من أهل الغرب اللاتينى .

أما الكاهن متى الباريزى فهو الآخر من كبار كتاب القرن الثالث عشر . وقد وضع مؤلفين باللاتينية ، هما «التاريخ الكبير» و «تاريخ انجلترا» . وفى كتابه الثانى يتهكم تهكماً مريراً على الجهاز الكنسى البابوى ، ويهاجم الفكرة الصليبية هجوماً صريحاً مكشوفاً . ومن أقواله المأثورة : «لم يكن يعنى البابا الدعوة إلى حملة صليبية إلا بالقدر الذى يخدم أطماعه ، ويحقق مصالحه العلمانية» ويقول فى موضع آخر من الكتاب : «لقد اقتفى البابا ، وهو أبونا الروحى ، خطى الامبراطور قسطنطين الكبير ، وكان الأولى به أن يحذو حذو القديس بطرس ، ولهذا سبب الكثير من القلاقل والاضطرابات فى العالم» . ويقصد بذلك أن الكوارث والمحن التى شهدها العالم وقتذاك كانت بسبب انغماس البابوية فى الشئون الدنيوية ودخولها فى صراع عنيف مع القوى العلمانية وعلى رأسها الامبراطورية . وقد يبدو هذا مستغرباً فى تلك العصور التى كان فيها للدين مكانة كبيرة فى المجتمع الغربى الوسيط ، خاصة وأن هذا الهجوم ضد الفكرة الصليبية والنظام الكنسى قد صدر عن رجل دين يعرف جيدا خبايا هذا النظام ومساوئه ومواطن الضعف فيه . ولكن كان لدى متى الباريزى من الجرأة والشجاعة ما يكفى لقول الحق فى تلك العصور التى عاش فيها الفرد فى الغرب داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الافلات منها ، وإن كانت تباشير عصر جديد قد بدأت تلوح فى الأفق .

أما ثالث هؤلاء فهو الامبراطور الألمانى فردريك الثانى(١٢١٥—١٢٥٠م) كان من أعجب شخصيات العصور الوسطى ، حتى لقد نعته المعاصرون

له بأعجوبة الدنيا . نشأ فى صقلية ، وقسم أملاكه فيما وراء الألب بين أبنائه ، واستقر هو فى الجنوب الايطالى حيث تأثر بالثقافة المتحررة الموجودة هناك ، وهى ثقافة متنوعة المصادر والأصول ، امتزج فيها اليونانى والرومانى القديم بالتراث البيزنطى بالحضارة العربية . كان واسع العلم والثقافة ، كثير الاطلاع ، يجيد عدة لغات من بينها العربية . وامتاز بتحرره من سلطان الكنيسة اللاتينية وقيودها . كان معجباً بالعرب وعلومهم وعاداتهم وأخلاقهم وكان على صداقة متينة مع عدد منهم ، مثل الكامل محمد سلطان مصر الأيوبى وابنه الصالح نجم الدين أيوب . وامتاز بروح التسامح ، واحترام جميع الأديان . وكان بلاطه موئلا للعلماء المسلمين والمسيحيين على السواء . وكثيراً ما كان يجتمع بمفكرى الاسلام ، كما كان على صلة بتلامذة ابن رشد والمفكرين فى العالم العربى . وتروى المصادر العربية أنه كثيراً ما كان يتصل بالعلماء فى مصر وسورية وغيرهما من البلدان ، إذا ما واجهه مشكل فى الرياضة والعلوم . لكل هذا كان العرب فى المشرق وفى صقلية وجنوب ايطاليا يكنون له كل تبجيل واحترام ، حتى لقد اعتبره كثير من المؤرخين العرب ، مثل أبو الفداء العينى ، أنه أميل إلى الاسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل . بينما اضطهدته الكنيسة اللاتينية وأصدرت ضده قرار الحرمان الكنسى أكثر من مرة ، متهمة إياه بالهرطقة والخروج على الدين . وباختصار ، لم يكن الامبراطور فردريك الثانى كاثوليكياً متعصباً ولا صليبياً ضيق الأفق ، وذلك على عكس ما سبقوه ومن جاءوا بعده من الحكام والقادة الغربيين فى عصر التوسع الصليبى .

لقد عبر هؤلاء عن موقف ذوى العقل والتعقل تعبيراً دقيقاً صادقاً فى تلك العصور ، حيث بدأت الأنظمة القديمة التى ارتكز عليها العالم الوسيط

فى الدين والسياسة والحرب والاقتصاد والفكر فى التداعى لتحل محلها مثل وأنظمة أخرى مغايرة تؤذن بقيام عصر جديد له مفاهيم جديدة تتمشى مع الظروف والأوضاع التى طرأت على العالم وقتذاك . وقد وجد إلى جانب هؤلاء كثيرون ممن فهموا الأمور على حقيقتها ، وممن أخذوا ينددون بفكرة الحروب الصليبية . وساعد على ذلك نمو المدن والقوميات ، و ظهورشخصية الفرد ، واتساع المدارك والآفاق ، وتطور الحركة الفكرية ، ونشأةالجامعات التى خرج من بين جدرانها الكثير من الشباب المثقف المستنير .

وكيفما كان الأمر ، ومهما كانت الدوافع والأسباب التى حدث بأهل الغرب من مختلف الطوائف والفئات والأجناس ، إلى معارضة العدوان الصليبى والتشكيك فيه ، فلاشك أن وجود هذا التيار المعارض فى قلب العالم الغربى ، وازدياده وتصاعده ، أمر له دلالته ومغزاه . وسواء أكان هذا الشعور المعارض من جانب الغربيين تجاه العدوان لأسباب تتعلق بشئونهم الخاصة ومصالحهم الذاتية داخل بلادهم ، أم لعدم إيمانهم أساساً بالفكرة الصليبية ، خاصة بعد أن تأكدت أبعادها الخطيرة ، وما جلبته عليهم من كوارث ، ونكبات — فانه يكشف عن وجود رأى عام معاد للحرب ضد العرب كان يسرى كالتيار فى الغرب . وغير خاف أن هذا كان سنداً قوياً لموقف العرب ولقضيتهم العادلة فى عصر التوسع الصليبى ، لا يمكن إغفاله أو التهوين من شأنه ، وكان عاملا له أثره فى تقويض مستعمرة الغزاة فى العالم العربى ، فى وقت كان فيه ميزان القوى فى المنطقة قد اعتدل لصالح العرب ، وفى وقت أصبح فيه العرب فى مركز القوة بعد أن اتفقت كلمتهم وتوحدت جبهتهم ، مما كان له أكبر الأثر فى رد العدوان وردع المعتدين .

البحث الثالث

علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية
فى ضوء وثائق «صبح الأعشى»

بحث فى مؤلف «ابو العباس القلقشندى و كتابه صبح الاعشى» ـ نشر وزارة الثقافة بجمهورية مصر العربية فى سلسلة «المكتبة العربية» ـ العدد ١٣٨ القاهرة (مصر) ١٩٧٣ ـ ص ١٤٧ ـ ٢٠٠ .

عاصر أبو العباس أحمد القلقشندى فترة تغير وانتقال شهدها العالم المعروف وقتذاك . إذ ولد بمصر سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥م) وتوفى فى ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) عن ٥٦ سنة ، بعد حياة حافلة أمضاها فى العلم والعمل والدراسة والتأليف . وأسهم التحاقه بديوان الإنشاء بمصر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩م) ، فضلا عن تنقلاته وجولاته وأسفاره العديدة فى البلاد الخاضعة لحكم المماليك ، مساهمة واضحة يبدو أثرها فيما أثرى به المكتبة العربية من مؤلفات قيمة تناولت شتى الموضوعات . ومن أهمها ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، كتابه المعروف باسم «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» (١) .

عاصر القلقشندى نهاية العصور الوسطى بمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها وبداية عصر جديد له أوضاع ومفاهيم جديدة مغايرة . إذ عاش مع الانقلابات والانتفاضات الهائلة التى اهتز لها كيان العالم الوسيط من أساسه فى الفكر والسياسة والاقتصاد والحرب . فلم يكن هناك شيء ثابت على حاله ، بل كان كل شيء فى تغير دائم مستمر . ولقد شمل هذا التغيير شتى مرافق الحياة ومختلف أوجه النشاط فى المجتمع الإنسانى . عاش فى عصر كانت فيه الدماء الساخنة تجرى فى العروق معلنة انتهاء عصر وبزوغ فجر جديد (٢) . تحدث

---

(١) Encyclopédie de l'Islam, t. II (Leyde & Paris, 1927), 742-3:; Ronart, S. & N., Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization : The Arab East (Amsterdam, 1959), 432.

وللمزيد من التفاصيل عن القلقشندى وسيرته ومؤلفاته ، أنظر السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ٢ (القاهرة ١٣٥٤ هـ) ص ٨ ، ابن العماد شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — جـ ٧ (القاهرة ١٣٥١ هـ) ص ١٤٩ ، راجع أيضا كلمة محمد عبد الرسول فى كتاب «صبح الأعشى» — جـ ١ (القاهرة ١٩١٣) ص ١٩ — ٢٤ .

(٢) أنظر عن ذلك :

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médièval (Paris, 1965), 445 ff. ; Waugh, W.,T., A History of Europe from 1378 to 1949 (London, 1932), 1—9; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages (London, 1955), 9 ff., 153 ff., 228 ff.

عن القاهرة ، عاصمة المصريين ، وهي في أوج قوتها وعظمتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ «فهي أم الممالك ، حاضرة البلاد ، دار الخلافة كرسي الملك ، منبع الحكماء ، ومحط الرجال» كما أشار إلى سلاطين المماليك الذين تربعوا على عرشها في عصره (١) . وإن كان قد تحدث عن مصر ، وحكامها ، فلم يغفل الغرب وأحواله . فقد كانت الدول والممالك الإيطالية ، وبخاصة البحرية منها المشتغلة بالتجارة ، قد سبقت غيرها إلى عصر النهضة ، وازدادت صلاتها بمصر قوة ورسوخاً . فتردد الرسل والمبعوثون والسفار بينها وبين مصر ، وعقدت المهادنات ، وتواترت المكاتبات ، وتوثقت العلاقات الطيبة تدعيما للمصالح المشتركة . كذلك شاهد الفكرة الصليبية وهي تلفظ آخر أنفاسها في أواخر القرن الرابع عشر ، بفشل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتيني على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف شعبان (٢) .

وإن دل هذا على شيء فعلى أن الفكرة الصليبية لم يعد لها مكان في مجتمع القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بعد أن انصرف الناس في غرب أوروبا

---

(١) صبح الأعشى — جـ ٣ (القاهرة ١٩١٤) ص ٣٦٧ . أنظر أيضا صفحات ٢٧٨ — ٢٨١ و ٤٣١ و ٤٣٧ — ٤٣٨ من الجزء نفسه .

(٢) صبح الأعشى — جـ ٤ (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٤ ، وجـ ٨ (القاهرة ١٩١٥) ص ١١١ — ١١٥ . وللمزيد من المعلومات عن حملة لوسنيان على الاسكندرية ، أنظر :

Atiya, A. S., The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938), 345—78; idem, Crusade, Commerce and Culture (Bloomington, 1962), 102—4.

هذا وقد حكم بطرس لوسنيان قبرص في الفترة من سنة ١٣٥٩ م إلى سنة ١٣٦٩ م ، أما الأشرف شعبان سلطان مصر فهو حفيد للملك الناصر محمد وقد تولى الحكم لمدة ١٤ سنة (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ — ١٣٧٧ م) ومات مقتولا .

عنها إلى مصالحهم الخاصة ومشكلاتهم الداخلية . كما يدل على أن المجتمع الغربى بدأ ينبذ سياسة الحديد والنار ، ويتجه اتجاهاً مخالفاً لما كان سائداً فى عصر التوسع الصليبى ، وذلك بازدياد التلاحم بينه وبين الشرق الأدنى الإسلامى بعامة ومصر بصفة خاصة . وقد تمثل ذلك فى العلاقات الطيبة التى قامت بين مصر وبين الدول التجارية الإيطالية ، وعلى رأسها البندقية وجنوة وبيزه ، والتى يمدنا كتاب «صبح الأعشى» بمعلومات عنها على جانب كبير من الأهمية تسد فجوة كبيرة فيما نحن بصدده (١) .

وغنى عن القول أن هذا الكتاب يعتبر بالنسبة للأمة العربية والعالم المحيط بها المتعامل معها ، دائرة معارف فى شتى النواحى الأدبية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية والفلسفية . وعلى الرغم من فوات مئات السنين على وفاة مؤلفه ، فالكتاب لايزال حتى اليوم مصدراً أساسيا يرجع إليه طلاب العلم والمعرفة فى الشرق والغرب على السواء فى كثير من المعارف والعلوم ، فضلا عن أهميته بالنسبة للعلاقات بين شتى العالم فى فترة من أدق فترات التاريخ ... وعلى الرغم من الدراسات التى صدرت عنه وعن مؤلفه ، لا يزال «صبح الأعشى» كنزاً مغلقاً على ما يحتويه من نفائس، منجماً لم يستغل بعد الاستغلال الكافى ، ومعيناً لا ينضب للباحث فى الأفرع التى أشرنا إليها .

ويمتاز القلقشندى بأنه مصدر ثقة فيما يكتب ، وبخاصة الفترة التى عاصرها وشاهد أحداثها . والمتصفح للكتاب يدرك على الفور أن صاحبه رجع إلى

---

(١) تضمنت وثائق «صبح الأعشى» الخاصة بالمكاتبات والمراسلات والمهادنات وعقود الأمان بين مصر والممالك التجارية الايطالية الكثير من المعلومات الهامة التى لم تتعرض لها المراجع الأجنبية .

عشرات المصادر العربية والأجنبية التى استقى منها معلوماته ، وقد فقد بعضها ولم يصلنا ، فحفظ لنا مادته من العبث والضياع .

وإذا نظرنا إلى الكتاب نظرة مدققة فاحصة ، عريضة شاملة ، فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية ، وعلى أسلوب التفريغ داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى . فهو ينقسم إلى عشر مقالات تسبقها مقدمة وتلحق بها خاتمة . وقد ركز المؤلف فى المقالة الأولى على التعريف بصناعة الإنشاء وكل ما يتعلق بها لتكون المدخل إلى باقى المقالات التى أبان فيها أهمية معرفة المسالك والممالك ، والدول والبلدان التى لها علاقات بمصر ، كما أشار إلى منتجاتها وصادراتها ووارداتها ، وذكر المكاتبات المتبادلة بينها وبين مصر بما فى ذلك كتب الأمان والمهادنات وعقود الصلح . كل هذا يكشف عن ثقافة القلقشندى المتكاملة فى النواحى الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية ، فضلا عن مكانته المعروفة فى الناحية الأدبية (١) .

وبين ثنايا أجزاء «صبح الأعشى» نجد المادة التى تهمنا ؛ الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية — مبعثرة هنا وهناك ؛ وهى تلقى ضوءاً واضحاً على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها . وترجع المادة التى زودنا بها القلقشندى إلى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وإن كان الجانب الأكبر منها يتعلق بعصر القلقشندى نفسه ، أى النصف الثانى من القرن الرابع عشر والسنوات الأولى من القرن الخامس عشر . ومن هنا جاءت قيمتها التاريخية باعتبار أن صاحبها كان معاصرا لها وشاهد عيان لأحداث ذلك الزمان

---

(١) أنظر كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة وعنوانه «القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل» القاهرة ١٩٦٢ (مجموعة أعلام العرب — العدد رقم ١٢) .

بحكم عمله فى ديوان الإنشاء بمصر ، الذى أتاح له فرصة التعرف على كل كل مايختص بتلك العلاقات والاطلاع على وثائقها ومستنداتها . وثمة ملاحظة أخرى هى تلك المادة التى تلازم زمنياً عصر التوسع الصليبي ضدالعالم الإسلامى: ومن هنا جاءت العلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية معبرة عن طبيعة ذلك العصر أصدق تعبير . فهى تكشف عن وجود علاقات اقتصادية بين مصر والجاليات التجارية الإيطالية داخل نطاق النزاع الدينى .

وكيفما كان الأمر ، نستدل من وثائق «صبح الأعشى» أن الدول التجارية الإيطالية التى كانت لها علاقات بمصر وقتذاك هى على التوالى : البندقية وجنوة وبيزه . وقد قامت علاقاتها مع مصر على أساس تجارى بحت . ولتفهم ذلك يحسن أن نعود قليلا إلى الوراء لنلقى نظرة عاجلة على الظروف التى مر بها الغرب منذ بداية العصرالوسيط حتى عصر التوسع الصليبي .

فى أواخر القرن الخامس الميلادى سقطت الإمبراطورية الرومانية القديمة أثر غزوات البرابرة عليها . وقامت على أنقاضها فى الغرب ممالك جديدة لها أنظمة وحضارة جديدة مغايرة (١) . وبسقوطها تتدهور حياة المدينة باقتصادها النقدى ونشاطها التجارى المعروف الذى كان محوره البحر المتوسط ، لتبدأ البذور الأولى لعصر الإقطاع الذى ساد الغرب طوال العصر الوسيط الأول ؛ والإقطاع يقوم أساساً على الأرض وفلاحيها وماتغله من خيرات . وكانت حضارته حضارة زراعية ريفية لاتعرف التجارة أو الصناعة إلا فى أضيق

(١) La Monte, J. L., The World of the Middle Ages (New York,1949) 36—50, 70—3, 152—3; Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire (New York, 1960), 10, 12—3, 17, 31,37—42 48—50, 63—6; 73; 101; 104; Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe (New York, 1960), 88—9, 91—2, 99, 100, 104—5, 108—10, 112, 114—5 118; 135.

الحدود (١) . وساعد على ذلك أن أوروبا كانت فى القرون الأولى من تلك العصور مسرحاً لأحداث سياسية خطيرة لم تساعد على نمو التجارة ونهوضها من كبوتها ، نذكر منها غزوات البرابرة التى أوجدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب فى كافة أرجاء الغرب ، ثم حركة الفتح العربى وماترتب عليها من سيطرة الإسلام على البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح بحيرة إسلامية بعد أن كان بحراً رومانياً (٢) . ثم تصدع إمبراطورية شارلمان وتفككها بعد موته ، بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة. ونتج عن كل هذا توقف الحياة الاقتصادية فى العالم الغربى وإصابتها بشلل حاد لقرون طويلة . وأصبحت حركة التجارة محدودة غير نشطة لاتتعدى تبادل السلع الزائدة عن الحاجة (٣) .

---

(١) هارتمان (ل. م.) وبارا كلاف (ج.) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى — ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف (الاسكندرية ١٩٦٦) — ص ١٥ وما بعدها و ١٠٣ وما بعدها . أنظر أيضا :

Pirenne, H., Medieval Cities trans. from the French by F.D. Halsey (New York, 1948), 43 ff.; Pirenne, H., Cohen, G. & Focillon, H., La Civilisation Occidentale au Moyen Age du XIe au milieu du XVe siècle (Paris, 1941), 7 ff.

(٢) Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe (London, 1961, 2—3, 40—1; idem, Med. Cities, 15—6.

أنظر أيضا لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ — ١١٠٠م) — ترجمة أحمد محمد عيسى — (القاهرة ١٩٦٠) ص٨ وما بعدها و ٨٧ وما بعدها و ٢١١ وما بعدها .

(٣) كولتون (ج.ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف — ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) — ص ٢٨٨ — ٢٨٩ ، لوبيز (ر.) : التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب — ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب يشتمل على خمسة بحوث مترجمة باسم «بحوث فى التاريخ الاقتصادى» (القاهرة ١٩٦١) — ص ١٤٤ و ١٧١ . انظر أيضا :

Stephenson, C., Medieval Feudalism (New York, 1942), 97—8.

وللمزيد من المعلومات عن التجارة بين الشرق والعرب فى العصور الوسطى المبكرة ، وبخاصة فى القرون : الثامن والتاسع والعاشر ، أنظر :

Lopez, R.S. & Raymond, I.W. (trans.),
Medieval Trade in the Mediterranean World (New York, 1955), 19—41.

كان هذا الوضع السائد فى الغرب حتى أوائل القرن الحادى عشر عندما بدأت المدن الجديدة فى الظهور ، بينما أخذ الإقطاع فى الإنهيار والزوال : ويعتبر ظهور المدن من الأمور البالغة الأهمية ؛ إذ أسهم فى زلزلة بقايا النظام الإقطاعى ومهد لقيام مجتمع جديدوحضارةجديدةأساسها التجارة والصناعة وكان هذا النشاط بمثابة انقلاب‌اقتصادى كبيرمن أبرز نتائجه التوسع فى نظام الأجر النقدى وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الإقطاعية التى كانت سائدة من قبل (١) .

وكان للعامل الجغرافى أثره الكبير فى تطور بعض المدن الغربية وأزدهار التجارة بها ، من ذلك المدن البحرية الإيطالية ، وعلى رأسها : البندقية وجنوة وبيزه التى استمدت أهميتها من موقعها على البحر المتوسط الذى كان محور نشاطها ، والذى جعل منها حلقة أتصال بين الشرق والغرب (٢) . وساعد على قيامها بهذا الدور الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم وقتذاك . فقد كان لمنتجات الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة أهمية كبيرة بالنسبة للغرب الأوروبى . ومن أهم السلع التى كان الغرب فى حاجة إليها التوابل والبهارات لحفظ المأكولات سليمة ولصناعة الأدوية والعقاقير ، فضلا عن السكر والعطور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والخامات الأولية اللازمة لصناعة النسيج كالقطن . كذلك كان الشرق فى حاجة إلى بعض الخامات الغربية التى لم تكن متوفرة عنده مثل : الأخشاب والمعادن كالنحاس والحديد .

---

(١) Pirenne, Med. Cities, 58 f.; idem, Economic and Social Hist., 42 f, 116 ff., 169.

أنظر أيضا ممفورد (لويس) : المدينة على مر العصور « أصلها وتطورها ومستقبلها» إشراف ومراجعة الدكتور إبراهيم نصحى — جـ ٢ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٧٢ وما يليها .

(٢) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى — مقالة لوبيز «أثر الشرق فى نهضة الغرب الاقتصادية» ص ١٧٥ — ١٧٦ .

وكانت تلك المدن البحرية تقوم بعملية تصدير واستيراد هذه السلع تلبية لتلك الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم ، وتجني من وراء ذلك أرباحاً هائلة (١) .

وللبندقية بالذات تاريخ بحرى مجيد أنفردت به عن غيرهامن دول الغرب الأوروبى مثلما انفردت به عن زميلتيها جنوة وبيزه (٢) . فهى مدينة ممتدة على المستنقعات والبحيرات . ويكشف موقعها الجغرافى عن عظمتها البحرية والتجارية (٣) . إذ تقع على رأس البحر الأدرياتى (٤) ، الذى كان يعتبر على حد قول الكاتبة إيلين بور E. Power أعظم طريق بحرى لتجارة العصر الوسيط . ثم هى فى موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلا عن كونها ميناء من موانى البحر المتوسط . ويكاد هذا الميناء أن يكون فى قلب أوروبا لوقوعه فى أقصى الطرف الشمالى . كل هذا أكسبها ميزات حسدتها عليها كثير من بلدان أوروبا ، ففيها كان يرسوالتجار الوافدونمن الثغور المصرية : كالإسكندرية ودمياط وغيرها من موانى شرق البحر المتوسط ، ومن بلاد الشرق الأقصى ، ومعهم الأنسجة الحريرية والتوابل والكافور والعاج واللؤلؤ والعطور والطنافس وغيرها . ومن البندقية كانت هذه البضائع تنقل إلى ألمانيا وفرنسا وأنجلترا والأراضى الواطئة وغيرها من بلدان الغرب (٥) .

(١) أنظر ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية – ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق اسكندر (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠ و ٣٥ – ٣٦ و ٥٩ .

(٢) ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية – ص ٧ .

(٣) Cf., Pirenne, Med. Cities, 59.

ويمدنا القلقشندى بمعلومات طيبة عن المدينة وسكانها وقاعدة ملكها وأطوالها وسبب تسميتها بهذا الاسم وحكامها وعملتها وأهم منتجاتها وأعمالها . أنظر صبح الأعشى – جـ ٥ (القاهرة ١٩١٥) ص ٤٠٤ . راجع أيضا

Pirenne, Cohen & Focillon, op. cit., 21.

(٤) يقال له أيضا بحر أدريا أو خليج البندقية . أنظر محمد أمين الخانجى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان – جـ ١ (القاهرة ١٩٠٧) ص ١٧٤ .

(٥) Power, E., Medieval People (London, 1954), 34—5.

ويمدنا القلقشندى بمعلومات طيبة عن البندقية وأهلها وصاحبها وألقابه ، وهو يطلق عليها «مملكة البنادقة» معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار الواقعة مابين الخليج القسطنطيني وجزيرة الأندلس (١) . فهى تقع على الخليج المعروف باسم «جون البنادقة» فى الركن الشرقى من سهل لمبارديا (٢) . ويعرف سكانها باسم «البنادقة» نسبة إلى المدينة نفسها ، «وهم طائفة مشهورة من الفرنج» . (٣) كما يعرف حاكمها ومتولى أمرها باسم «ملك البندقية» (٤) والملك عندهم هو الدوق . ويزيد القلقشندى الأمر وضوحاً فيردد أكثر من مرة «أن الملك اسمه عندهم دوك» (٥) ؛ ولذلك يقال له «دوك البندقية» (٦)

---

(١) صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤٠٤ . ومن الكتب القيمة عن البندقية كتاب أوجست باي

Bailly, A., La Sérénissime République de Venise, Paris, 1946.

فقد أشار إلى موقف البندقية من الحركة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى (ص ٦٨ وما بعدها) ، والصراع من أجل بضائع الشرق الأدنى الاسلامى ، وكذلك التنافس بينها وبين جنوة (ص ١١٦ وما بعدها) .

(٢) صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٢٣٤ . ويطلق الأدريسى على «جون البنادقة» اسم «البنادق» و «خليج البنادقيين» . أنظر : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق (طبع روما سنة ١٨٧٨) — تحقيق امارى — ص ١١ .راجع أيضا ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية — ص ٩٠٧ .

(٣) صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤٠٤ و جـ ١٣ (القاهرة ١٩١٨) ص ٨٨ . وتتفق المصادر الاسلامية على تسميتهم بهذا الاسم .

(٤) صبح الأعشى — جـ ٥ — ٤٠٤ و ٤٨٥ .

(٥) صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٣٧ . ويقول القلقشندى : إن «ملكهم من أنفسهم يقال له الدوك» . أنظر صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤٠٤ . وفى موضع آخر يقول «وكل من ملك منهم يسمونه دوك بالكاف المشوبة بالجيم فيقال «دوك البندقية» ، وهذا اللقب جار على ملوكهم إلى آخر وقت . «انظر صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤٨٥ . ولكن القلقشندى يعود فيناقض نفسه عندما يذكر أن الدوك غير الملك . وهذا غير صحيح ، فالمعروف أن الدوج عندهم بمثابة الملك . أنظر صبح الأعشى — جـ ٨ — ص ٤٨ .

(٦) صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤٨٥ .

أو «دوقس البنادقة» (١) ، أو «دوج البندقية» (٢) ، الذى كان يعتبر رمز عظمة البندقية (٣) . وهذه التسمية الأخيرة هى أكثرها شيوعاً فى المراجع الحديثة من عربية وأجنبية . أما تعريفه فى ديوان الإنشاء بمصر فهو «صاحب البندقية» (٤) .

ولقد حرصت البندقية على إقامة علاقات طيبة مع مصر ودول الشرق الأدنى الإسلامى قبل قيام الحركة الصليبية . وحصلت هى وغيرها من الجاليات البحرية الإيطالية على امتيازات تجارية واسعة من الخلفاء الفاطميين بمصر (٥) وأثرت من وراء ذلك ثراء كبيراً . وكان إسهامها فى الحملات الصليبية التى اندلعت فى أواخر القرن الحادى عشر نتيجة طبيعية لسياستها الاقتصادية . ولكن هذه الحملات ، وإن اتسمت بميسم العنف ، إلا أنها مع ذلك دفعت التجارة النامية فى أوروبا الغربية دفعة كبرى إلى الأمام (٦). إذ أدى الاحتكاك الحربى بين الغرب الأوروبى والشرق الأدنى الإسلامى إلى احتكاك تجارى

---

(١) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠١ و ٤٠٢ .

(٢) صبح الأعشى — ج ٨ — ص ٤٧ .

(٣) انظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية — ص ٨٥ وما بعدها .

(٤) أورد القلقشندى هذا التعريف عند حديثه عن المكاتبة إلى «صاحب البندقية» أنظر صبح الأعشى — ج ٨ — ص ٤٧ .

(٥) أنظر Pirenne, Med. Cities, 61. هذا ويشغل حكم الفاطميين لمصر الفترة من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٦٧ هـ (٩٦٩ — ١١٧١م) ، وقد انتعشت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر الفاطمية خلال القرن الحادى عشر ، وهو القرن السابق لقيام الحركة الصليبية.

(٦) كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ص٢٠٢ ، ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية — ص ٣٠ ، أنظر أيضا كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن الحرب الصليبية والتجارة والثقافة Atiya, Crusade,Commerce and Culture,162 ff. هذا ، ويرى لوبيز أن الحروب الصليبية كانت خاتمة أكثر منها بداية ، وأن النهضة الاقتصادية فى الغرب كانت سببا لها أكثر مما هى نتيجة لها . أنظر توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ١٧٤ .

يتمثل فى تبادل السلع والبضائع بينها . وهذا يعنى أن العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لم تنقطع حتى فى وقت الحروب الصليبية (١) .

وكان لأهل البندقية دور ملموس فى هذا المضمار . فأسهموا بسفنهم وأساطيلهم فى نقل الجند والعتاد والمهمات من موانى أوروبا إلى سواحل مصر والشام . كما اشتركوا مع القوات الصليبية فى الإستيلاء على الموانى الشامية تحقيقاً لمصالحهم وأطماعهم التجارية فى المنطقة . لقد كان هدف تجار البندقية استغلالى بحت ، نظراً للكسب الكبير الذى يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصر مصدر ثراء عريض للمشتغلين بها . فإن امتلاك مصر والشام حيث تنتهى الطرق البحرية الرئيسية لهذه السلع كان حجر الزواية فى السيطرة على تجارتها (٢) .

لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال فى الاستيلاء على المراكز الرئيسية فى الشام . فشاركوا فى استيلاء اللاتين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، كما كانوا عنصراً بارزاً فى الحملات التى كانت مصر والشمال الأفريقى مسرحاً لها فيما بعد (٣) . ولم يقتصر التجار البنادقة على المساهمة فى قيام الإمارات اللاتينية بالأراضى المقدسة ، بل امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة تمكيناً لمصالحهم وتثبيتاً لها (٤) . وقد تمثل ذلك فى المعاهدات التى عقدت

---

(١) أنظر توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى – ص ١٧٥ .

(٢) Pirenne,Economic and Social Hist.,31; Grousset, R.,The Sum of History, English version by A. & H. Temple Patterson (Oxford, 1951), 181.
انظر أيضاً توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى – ص ١٧٦ (مقالة لوبيز).

(٣) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى – ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٨٧ – ٨٨ .

(٤) Pirenne, Med. Cities, 64; Coulton, G.G., Medieval Panorama (New York, 1955), 320.

بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتين ، التى تضمنت امتيازات عديدة إقليمية ومالية وقضائية لصالح أولئك التجار (١) .

والخلاصة أن البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين كانوا يجرون وراء مصالحهم حيثما وجدت . فكانوا يشتركون مع الصليبيين إذا وجدوا فى ذلك مصلحة لهم . ولكنهم سرعان مايتحولون عنهم ويسارعون إلى التفاهم مع خصومهم المصريين وفقاً لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة . وهكذا كانت الحرب الصليبية مجرد ورقة يلعبون بها (٢) .

ويتضح هذا الموقف المتلون من تذكرة من إنشاء القاضى الفاضل بعث بها صلاح الدين الأيوبى مع رسول من قبله يدعى الأمير شمس الدين الخطيب إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله . وتتناول التذكرة بإيجاز السنوات الأخيرة من الحكم الفاطمى لمصر وبداية الدولة الأيوبية . وفيها يعرض صلاح الدين عرضاً سريعاً لأعماله وفتوحاته وجهاده ضد كل من الفرنج بالشام وبقايا الفاطميين بمصر ، ثم موت نور الدين محمود سلطان حلب والشام ، ومحاولات صلاح الدين توحيد الجبهة الإسلامية المفككة فى الشرق الأدنى لمواجهة الخطر الصليبى بالشام الذى كان قد أستفحل أمره وبات يهدد المسلمين بشر مستطير (٣).

---

(١) Pirenne, Economic and Social Hist., 30—3; Mahmud, S.F., The Story of Islam (Karachi, 1959), 135.

انظر أيضا ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية — ص ٣١ .

(٢) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مقالة لوبيز) ص ١٧٦ .

(٣) لم يحدد القلقشندى تاريخ ارسال هذه التذكرة التى تتضمن عرضا سريعا لفتوحات صلاح الدين فى اليمن والمغرب ، وأطماع الفرنج فى مصر ، والفترة الأخيرة من حكم العاضد الفاطمى فى عهد وزارة صلاح الدين والتى انتهت بموت العاضد وانتهاء الخلافة الفاطمية بمصر ، ثم موت نور الدين وأحوال الدولة النورية بعد وفاته ، وموقف صلاح الدين من الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ومحاولاته السيطرة على الشام ليتفرغ للجهاد ضد الفرنج وفى ختام التذكرة يطلب صلاح =

وكيفما كان الأمر ، فقد وردت فى التذكرة إشارة واضحة إلى سياسة البنادقة حيال كل من صلاح الدين والصليبيين ، فيما يلى نصها :

«ومن هؤلاء البنادقة .... تارة لاتطاق ضراوة ضرهم ، ولاتطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام الموهوبة ، ومامنهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتالة وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة ، على مانريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون (١) » .

كان الصليبيون فى هذا الوقت قد أسسوا إماراتهم الأربع فى الأراضى المقدسة على حساب الضعف الذى انتاب الشرق الأدنى الإسلامى عند قيام الحركة الصليبية (٢) . فقد كانت الخلافة الفاطمية فى طور الاحتضار ، وتوشك على السقوط عند أول ضربة قوية توجه إليها (٣) . والتنافس على

= الدين من الخليفة العباسى أن ينعم عليه بتقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ماتشتمل عليه الولاية النورية. وعلى الرغم من أن القلقشندى لم يحدد تاريخ ارسال هذه التذكرة إلى الخليفة العباسى الا أنه من المحتمل حسب تسلسل الأحداث أن تكون بعد سنة ٥٦٩ ﻫ (١١٧٤ م) بقليل ، وهى السنة التى مات فيها السلطان نور الدين محمود وخلفه فى الحكم ابنه الصالح اسماعيل . انظر نص التذكرة فى صبح الأعشى — ج ١٣ — ص ٨١ — ٩٠ . وسنتناولها بالدراسة والتحليل عند التعرض للعلاقات بين جنوة ومصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

(١) صبح الأعشى — ج ١٣ — ص ٨٨ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) ابن الأثير منتخبات من كتاب الكامل فى التاريخ ، فى «مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية — المؤرخون الشرقيون» ج ١ (طبع باريس ١٨٧٢) ص ٥٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٥ — ٣٤٦ و ٣٦٣ .

أشده بين كل من «أمورى» حاكم بيت المقدس اللاتينى ونور الدين محمود صاحب الشام على ملك مصر . وتوالت حملات كل منهما عليها فيما بين عامى ٥٥٨ و ٥٦٤ هـ (١١٦٣ — ١١٦٨ م) ، وقد انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى(١) وكان القضاء على الخلافة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين بمصر إيذاناً ببداية بوادر اليقظة الإسلامية فى اواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) بعد أن أحس المسلمون بالخطر الجاثم الذى ، كان يتهددهم ، وأخذوا يتكتلون لمواجهته ودفعه عن ديارهم (٢) .

فى ظل هذه الظروف كان البنادقة يساعدون الصليبيين بأساطيلهم ، فهم مسيحيون مثلهم ويتقاضون أجوراً على نقلهم هم ومهماتهم عبر البحر إلى الشرق: ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يتقربون إلى السلطات المسئولة بمصر خشية ضياع المكاسب التى يجنونها من وراء التعامل معها . وهى سياسة ذات شقين متناقضين ولكنها على أية حال تتفق مع مصالحهم الخاصة التى كانت بالنسبة لهم فوق أى أعتبار .

---

(١) انظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين الأيوبى (مصر ١٣١٧ هـ) ص ٢٨ — ٣٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ فى «مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية» جـ ١ — ص ٥٣٢ — ٥٤١ و ٥٤٦ - ٥٥١ و ٥٥٣ - ٥٥٨ . راجع أيضا

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien, ed. R.H.C.—Doc. Arm., I (Paris, 1896),353—9; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. R.H.C.—H. Occ., I (Paris, 1844), 890—1, 934, 945—6.

(٢) جوزيف نسيم : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٦ و ٢٧ وما بعدها .

وتتأرجح العلاقات بين البندقية ومصر فى العصر الأيوبى (١) بين التأزم والتصافى ، وهو العصر الذى تبلورت فيه حركة الإفاقة الإسلامية ، والذى شاهد بداية جهاد المسلمين ضد الفرنج فى الأرض المقدسة بقصد إجلائهم عنها . ويستمر خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ومن بعدهم المماليك البحرية فى (٢) مصر فى قتال الصليبيين ، إلى أن يتمكن السلطان الأشرف خليل (٣) سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) من الاستيلاء على عكا ، وهى آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى . ولم تبق بعد ذلك سوى بضعة جيوب مبعثرة على امتداد الساحل منها : صور وصيدا وحيفا ، سقطت تباعاً فى أيدى المصريين فى العام نفسه (٤) .

لم تمت الفكرة الصليبية تماماً بسقوط عكا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وإن كان ضياعها من الفرنج إيذاناً ببداية النهاية لعصر التوسع الصليبى ضد العالم الإسلامى . فكان المصريون يعلمون أن أهل الغرب اللاتينى سوف يقومون بمحاولات جديدة يائسة تستهدف تحقيق أحلامهم القديمة فى المنطقة ، وأن البنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية لن يتوانوا عن مساعداتهم مثلما فعلوا فى الحملات المبكرة .

فبعد حوالى عام من سقوط عكا تم عقد هدنة يرجع تاريخها إلى صفر

---

(١) احتلت الدولة الأيوبية من تاريخ مصر ٨٠ سنة تقريبا ، فهى تبدأ حوالى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وتنتهى فى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

(٢) يشغل حكم المماليك البحرية لمصر الفترة من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ – ١٣٨٢ م).

(٣) تولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون الحكم لمدة ثلاث سنوات ، وقد انتهى حكمه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) وقتل وسنه ٣٠ سنة .

(٤) أنظر عن ذلك ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر – مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٤٣ تاريخ – جـ ٨ – ورقة ٣٣٠ – ٣٥ ، با مخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر – مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤١٠ تاريخ – جـ ٣ قسم ١ – لوحة ٩٨٨ .

سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢) بين الأشرف خليل وبين صاحب أرغونة (١) الفرنجى الذى كان مصافيا له . وقد تضمنت خاتمتها بنداً صريحاً يتعلق بالبنادق وغيرهم من طوائف الفرنج الذين دأبوا على إلحاق الضرر بالديار المصرية والبلاد الشامية . وخلاصته أن على صاحب أرغونة — الذى كان على علاقة صداقة ومودة مع الأشرف خليل ، منع أولئك القوم، عن قصد مصر والشام مستخدماً فى ذلك كافة السبل ، حتى ولو أدى الأمر إلى قتالهم لصرفهم عما هم قادمون عليه .

ونص هذا الشرط الوارد بالهدنة المذكورة هو :

«... وعلى أن الملك دون حاكم (الريد أرغون) (٢) هو وأخواه وصهراه أصدقاء من يصادقون الملك الأشرف (خليل) وأولاده وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية . وإن قصد الباب برومية (٣) ، أو ملك من ملوك الفرنج ، متوجاً كان أو غير متوج كبيراً كان أو صغيراً ، أو من الجنوية ، أو من البنادقة ... مضرة بلاد الملك الأشرف ، بمحاربة أو أذية ، يمنعهم الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراه ويردونهم ، ويعمدون

---

(١) لظروف عديدة داخلية — منها موقف قشتالة فى الشمال الأسبانى من أرغونة ، اتجه حكام أرغونة وقتذاك إلى الخارج . فاهتموا بالتجارة ، وأقاموا صلات مع صقلية وايطاليا والشرق الأدنى . كما كانوا يعتبرون أنفسهم حماة للرعايا المسيحيين فى الشرق ، خاصة بعد سقوط آخر معاقل الصليبيين بالساحل الشامى فى أيدى المماليك فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

(٢) المقصود بذلك السيد حاكم مملكة أرغونة ، وهو حينذاك خايمى الثانى Jaime II وقد حكم من سنة ١٢٩١ إلى سنة ١٣٢٧ م .

(٣) المقصود بابا روما رأس الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب الأوروبى . وقد تضمنت وثائق «صبح الأعشى» اشارات عديدة قيمة عن بابوية روما وعلاقاتها بمصر فى عصر التوسع الصليبى

شوانيهم (١) ومراكبهم ، ويقصدون بلادهم ، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله وثغوره المذكورة وغير المذكورة ، ويقاتلونهم فى البر والبحر بشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم وخيالتهم ورجالتهم (٢) » .

وإذا كانت البندقية — كما رأينا — قد مدت يد العون إلى الصليبيين تحقيقاً لمصالحها فحسب ، فقد أمتنعت عن معاونتهم فى كثير من الأحيان عندما كانت تجد أن مثل هذه المعاونة سوف تضر بمصالحها فى مصر والشرق الأدنى الإسلامى ، وحتى لاتوغر صدر السلطات المسئولة بمصر عليها . ونجد مثالا واضحاً لذلك فى موقفها من حملة لويس التاسع الصليبية على مصر فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى . فبينما كان الملك الفرنسى يستعد لهجومه على مصر فى عهد السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين ، أجرى اتصالات مع الدول البحرية الإيطالية لاستئجار السفن اللازمة لنقل الجند والمؤن والعتاد عبر البحر إلى الشرق (٣) . وعندما اتصل بالبندقية لهذا الغرض رفضت

---

(١) الشوانى جمع شونة أو شينية ، وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة تقام فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم . وتجهز الشوانى فى أيام الحرب بالسلاح والمؤن وتحشد بالمقاتلة والجدافين . وكان الشينى يسمى «الغراب» أيضا . انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — ج ٢ (القاهرة ١٢٧٠ هـ) ص ١٩٤ - ١٩٥ . ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين (القاهرة ١٩٤٣ ص ٣٤٠ ، ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام (بغداد ١٩٤٨) ص ٦٦ ح ٤ .

(٢) صبح الأعشى — ج ١٤ (القاهرة ١٩١٨) ص ٦٦ .

(٣) لم تكن فرنسا وغيرها من دول الغرب مثل ألمانيا وانجلترا والأراضى الواطئة تملك فى ذلك الحين سفنا تسمح لها بنقل قواتها وعتادها عبر البحر إلى الشرق الاسلامى . وكانت المدن التى لها أساطيل هى تلك التى لها موانى على البحر المتوسط ، وبصفة خاصة البندقية وجنوة وبيزه . ولقد أدرك هذه الحقيقة أحد المؤرخين المسلمين ، وهو ابن فضل الله العمرى ، إذ أوضح فى كتابه المعنون «رسالة تشتمل على كلام اجمالى فى أمر مشاهير ممالك الفرنج عباد الصليب فى البر دون البحر — نشر أمارى (طبع روما سنة ١٨٨٣) ص ٣» — أن عساكر الملك الفرنسى لويس التاسع فى البر أطول منها فى البحر ، وأنه ليس له أسطول ولا مراكب .

تزويده بما يحتاج إليه من سفن (١) ، وبسبب العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بينها وبين مصر وقتذاك (٢) . إذ كانت تخشى من قيام حملة صليبية بحرية ضدها تؤدى إلى إغلاق أبواب التجارة فى وجهها ، وهى مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها (٣) .

لقد كان هدف البنادقة منذ بداية الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب المادى ، ولم يكن يعنيهم الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق مصالحهم . فقد غلبت الصفة التجارية البحتة على مسلكهم وتصرفاتهم (٤) . ويكفى أن نعرف أن شعارهم الذى عرفوا به وقتذاك هو «لنكن أولا بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين (٥) » .

كانت البندقية فى الواقع هى أقوى قوة بحرية فى ذلك الوقت ، حتى إن حاكمها الدوج أصبح الحاكم المطلق على أربعة بحار هى : البحر الأدرياتى والبحر الإيجى وبحر مرمرة والبحر الأسود ، فضلا عن أن سفنها كانت ترتع

---

(١) Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venice (Bruxelles, 1840), 181.

(٢) كان للبندقية فى الاسكندرية حينذاك فندقان لسكن التجار البنادقة والعمل على راحتهم أثناء اقامتهم . كذلك كانت لهم كنيسة خاصة بهم ، وغيرها من الامتيازات التى منحهم اياها سلاطين بنى أيوب . انظر عن ذلك :

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge, I (Leipzig, 1885), 410—2; cf. also : Lane-Poole, St., A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1936), 218.

(٣) Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, III (Paris, 1936), 428

(٤) Mahmud, Story of Islam, 132.

(٥) Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273, trans, from the Latin by J.A. Giles, II (London, 1853), 306; cf. also: Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114.

فى البحر المتوسط ، وملأت متاجرها سواحل شرقى هذا البحر . كما كانت جزر قبرص ورودس وكريت تحت حكمها . وقضت سفنها على قراصنة البحر الذين كانوا يسببون الكثير من المتاعب للتجار والمسافرين . كذلك حاولت القضاء على المنافسين لها فى ميدان التجارة البحرية ، وبخاصة جنوة . وبلغت سيطرة البندقية وسطوتها البحرية أنه كان يجب أن تمر التجارة مع الشرق عن طريقها هى فقط (١) .

وباحتضار الفكرة الصليبية فى أواخر القرن الثامن الهجرى (أواخر القرن الرابع عشر الميلادى) ، كان طبيعياً أن تزداد العلاقات بين البندقية ومصر قوة وتوثقا بعد أن زالت العوائق التى حالت فى الماضى دون ذلك . وتلقى وثائق «صبح الأعشى» ضوءاً على هذه المسألة . ففى ١٦ من صفر سنة ٨١٤ هـ (١٤١٢م) ورد إلى السلطان الناصر فرج (٢) من المماليك الجراكسة كتاب من دوج البندقية المسمى ميخائيل مع رسوله المدعو نيقولا البندقى (٣) وفيه

---

(١) Power, Med. People, 37; cf. also Pirenne, Med. Cities, 60.
راجع كذلك ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ـ ص ٢٢ — ٢٤ و ٣٢ و ٥٠ — ٥٧ .

(٢) جاء اسمه فى رسالة دوج البندقية «السلطان المملوكى فرج الله» ، والمقصود الملك الناصر فرج بن برقوق ، وكان قد تولى الحكم مرتين : المرة الأولى لمدة سبع سنوات لغاية سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) وقد انتهى هذا الحكم بخلعه ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره . ثم يأتى أخوه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق ليتولى الحكم بضعة أشهر ويخلع وسنه ١٨ سنة . ويعود الملك الناصر فرج مرة أخرى ليتولى الحكم سبع سنوات أخر لغاية سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وينتهى حكمه بقتله وله من العمر ٢٤ سنة .

(٣) المفهوم مما جاء فى وثائق «صبح الأعشى» أن كتاب الدوج ورد باللسان الفرنجى ، وقد قام بنقله إلى العربية اثنان من التراجمة بديوان الانشاء بمصر وقتذاك هما شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون . والكتاب مدون على ورقة مربعة وسطوره متقاربة . وقد احتفظ القلقشندى ضمن وثائقه بترجمته العربية ، وهى لا ترقى بحال فى مستواها اللغوى من حيث البلاغة وجزالة اللفظ إلى مستوى المكاتبات العربية الصادرة من ديوان الانشاء بمصر إلى ملوك الغرب . انظر صبح الأعشى — جـ ٨ — ص ١٢٣ .

يتحدث ، بعد تقبيل الأرض وبث الشوق والود ، عن تردد التجار البنادقة على مصر فى أمان وسلام بسبب عدل السلطان ثم يشير الدوج فى ثنايا الخطاب إلى حادثة اعتقال السلطات لقنصل البنادقة وتجارهم بالأسكندرية لتصرف بدر منهم ، مؤكداً أنه لم يقع منهم مايستوجب ذلك ، ملتمساً فى النهاية التوصية خيراً بالقنصل والتجار وحسن معاملتهم ضماناً لاستمرار ترددهم على مصر وهم مطمئنين .

وفيما يلى نص الكتاب :

«السلطان المعظم ، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه —

يقبل الأرض بين يديه نقولا (١) دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ، لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل الممالك الإسلامية كلها . وينهى ماعنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين (٢) والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، ويزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ماأتفق فى العام الماضى من حبس العر (٣) فى ثغر دمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك

---

(١) ذكر القلقشندى قبل ذلك بأسطر قليلة أن اسمه «ميكائيل» وأن اسم رسوله «نقولا» ، ولعل هذا سهو منه . أنظر صبح الأعشى — ج ٨ ص ١٢٣ ح ١ .

(٢) المقصود أكابر تجار البنادقة . والمحتشمون جمع محتشم وهو من ألقاب التجار الفرنج . وسنعرض لذلك بالتفصيل فى ختام البحث .

(٣) كذا وردت فى «صبح الأعشى» بدون نقط ، ولم يتسن تفسيرها .

قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الاسكندرية المحروس ، وزنجرهم (١) بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم البهدلة بين حبوسهم والضرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا ، فإن الذى فعل مع المذكورين إنما فعل معنا ، وتعجبنا من ذلك : لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب ، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان فى مملكته ، ومحبتنا له ، ومناداتنا فى جميع مملكتنا بكثرة عدله ، وبمحبته لطائفتنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا لجميع نوابنا : إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه ، والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم ، والنظر فى أمورهم إذا حصل مايشبه هذا الأمر ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، ويترددوا إلى مملكته(٢)

ويدل هذا على تردد تجار البنادقة على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وهم ينعمون برعاية الدولة وحمايتها ، بعد أن لفظت الفكرة الصليبية آخر أنفاسها وكان من الطبيعى أن تثور بعض المشكلات والخلافات بين الجانبين البندقى والمصرى نتيجة حركة التعامل المتصلة بينهما . وكان يتم — عادة — تسويتها عن طريق الرسل والسفراء وتبادل المكاتبات (٣) .

---

(١) أى قيدهم بالحديد .

(٢) صبح الأعشى — جـ ٨ — ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٣) يمدنا «صبح الأعشى» بمعلومات هامة قيمة فيما يتعلق بالكتب الواردة من ملوك الفرنج وكبار أهل الغرب إلى مصر . يقول القلقشندى : ان الفرنج لم يراعوا بصفة عامة الفصاحة والبلاغة فى مكاتباتهم ، وأنه كان من عادتهم التعظيم فى تلك المكاتبات (جـ ٦ — القاهرة ١٩١٥ — ص ٢٩٩ و ٣٠١) . كذلك يتحدث عن طريقة طى الكتاب عندهم (جـ ٦ — ص ٣٥٢) ، ومقادير قطع الورق ونوعه ببلادهم (جـ ٦ — ص١٩٣ و جـ ٨ — ص ٦٥)، والرسل الواردة بالمكاتبات=

لم تكتف القلقشندى بإبراز طبيعة العلاقات بين مصر وللبندقية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، بل أوضح أيضاً أن مصر كانت تكاتب صاحب البندقية كلما دعت الضرورة إلى ذلك (١) . وأورد فى وثائقه رسم المكاتبة إليه حسبما هو متعارف عليه بديوان الإنشاء بمصر . إذ ذكر أنه كتب إليه جواب رداً على مكاتبة منه بتاريخ رجب ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، جاء فى مطلعه :

«وردت مكاتبة حضرة الدوج ، الجليل ، المكرم ، الخطير الباسل ، الموقر ، المفخم .... فخر الملة المسيحية ، جل الطائفة الصليبية ، دوج البندقية .... صديق الملوك والسلاطين» .

وكان رسم المكاتبة إليه فى جواب آخر بعث به إليه رداً على مكاتبة وردت منه ، هو :

«وردت مطالعة الدوك الجليل ، المكرم المبجل ، الموقر ، البطل ، الهمام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير ، مجد الملة النصرانية ،

= وما يتبع عند وصول رسول من قبل أحد ملوكهم أو حكامهم إلى مصر يحمل رسالة أو ردا على مكاتبة (جـ ٣ — ص ٤٩٠ و جـ ٤ — ص ٥٨ — ٥٩) . وأشار أيضا إلى الإجراءات التى تتبع بشأن الكتب التى ترد إلى مصر بخط يخالف للخط العربى كاللسان الفرنجى . فكان يتولى ترجمتها إلى العربية من يوثق بهم من أخصاء الدولة ممن يعرف ذلك اللسان ، ثم تقرأ الترجمة على السلطان ويعتمد ما يأمر به فى جوابه ليكتب به (جـ ٦ — ص ٢١٣ و ٢١٦) . ولهذا السبب أشار صاحب «صبح الأعشى» إلى أهمية معرفة الكاتب بديوان الانشاء بمصر باللغات الأعجمية ، وهى لغة الكتب التى ترد عليه لملكه من الخارج ، وذلك حتى يفهمها ويجيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها أن امكن ذلك حفظا لسر ملكه وسلامة بلده . ويقول القلقشندى : ان اللغة الفرنجية تعتبر من اللغات العجمية التى لها قلم يخصها وتكتب به ، وان كتب الفرنج كانت ترد بخطهم ولغتهم (جـ ٣ — ص ١٦٥ — ١٦٧) . ومن الواضح أن كتاب ميخائيل دوج البندقية المشار إليه أعلاه قد ورد إلى الأبواب السلطانية بمصر باللسان الفرنجى ، وقد قام بنقله إلى العربية أثنان من التراجمة بديوان الانشاء وقتذاك .

(١) جدير بالذكر أن القلقشندى لم يحتفظ ضمن وثائقه بأية مكاتبة صادرة من ديوان الانشاء بمصر إلى دوج البندقية على الرغم من إشاراته المتكررة إلى تواتر المكاتبات بين الطرفين .

فخر الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز بابا رومية ، صديق الملوك والسلاطين . دوك البنادقة (١) » .

ولعلنا نستدل من هذه الألقاب التى كان يخاطب بها صاحب البندقية عن الأبواب الشريفة بمصر ، مدى ماكان يتمتع به من مركز ممتاز ومكانة بارزة وشهرة واسعة . ويكشف عن كل ذلك الدور الهائل الذى لعبته البندقية بالنسبة لتجارة شرق البحر المتوسط . ويكفى أن نعرف أن من الدنانير التى كانت مصر تتعامل بها عادة مايعرف باسم «الدوكات» ، «وهذا الاسم لايطلق فى الحقيقة عليها إلا إذا كان ضرب البندقية » (٢) ويدل هذا فى الوقت نفسه على جودة دنانيرها التى سميت بـ«الدوكات» نسبة إلى « الدوك » أو « الدوج» (٣) .

لقد غدت البندقية إحدى دول العالم العظمى فى العصور الوسطى ، وفرضت عليها ظروفها وموقعها أن تبذل أقصى عنايتها لتقدم تجارتها . وجعل هذا من سكانها أمة عظيمة فى البحار فى وقت كانت لاتزال فيه بعض أمم الغرب غارقة فى عصر الإقطاع . وإذا كانت البندقية تعتبر من أعظم دول البحر

---

(١) صبح الأعشى — جـ٨ — ص ٤٧ . وللمزيد من التفصيل أنظر الجزء نفسه — ص ٤٨ و جـ ٦ — ص ١٧٨ و ١٧٩ . وجدير بالتنويه أن القلقشندى اكتفى هنا بالاشارة إلى ألقاب دو البندقية دون اثبات نص الرد الذى بعث به إليه سلطان مصر ، وهو فى ذلك الحين الملك الأشرف شعبان حفيد الملك الناصر محمد . وليس من السهل تفسير سبب عدم ايراد القلقشندى فى كتابه المكاتبات الصادرة عن ديوان الانشاء بمصر إلى صاحب البندقية سواء كانت ردا على رسائل بعث بها الدوج إلى سلطان مصر أم رسائل صادرة من مصر إلى الدوج فى انتظار رد منه عليها ، خاصة وأن صاحب «صبح الأعشى» قد عاصر فترة ازدهار العلاقات بين الدولتين وعمل فترة غير قصيرة من الزمن بديوان الانشاء الأمر الذى كان يسمح له باثبات تلك المكاتبات .

(٢) صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٣٧ . وتعرف هذه الدنانير أيضا باسم «البندقى» أنظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية — ص ٦٥ .

(٣) صبح الأعشى — نفس الجزء والصفحة .

المتوسط للدور الكبير الذى قامت به ؛ فقد كان لمصر ، وهى الأخرى من بلاد هذا البحر ، فى ميدان التجارة العالميـة فى العصر الوسيط المتأخر أهمية لايمكن بحال التقليل من شأنها ، على الأقل قبل أن يكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى أخريات القرن الخامس عشر . وأدرك البنادقة منذ أمد بعيد الربح الذى يجنونه من وراء التعامل مع مصر ، فعملوا جاهدين على عقد الصلات مع السلطات الحاكمة فيها (١) .

و ذا كنا قد تحدثنا عن علاقات مصر بالبندقية فى ضوء وثائق «صبح الأعشى» ، فلم يكن دور كل من جنوة وبيزة يقل عنها أهمية فى ميدان التجارة البحرية والمغامرات الصليبية . وإذا كانت وثائق «صبح الأعشى» غنية بالمادة التى تكشف عن توطد مركز البندقية فى مصر ، فأن المادة التى أمدتنا بها تلك الوثائق فيما يتعلق بكل من جنوة وبيزة كانت أقل من البندقية . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن البندقية كانت تعتبر بالفعل أكبر قوة بحرية فى عصر التوسع الصليبى ، وبخاصة فى حوض البحر المتوسط ، مما أكسبها هذا الوضع المتميز الذى أنفردت به عن زميلتيها فيما يتعلق بعلاقاتها مع مصر. ولو أن هذا لايقلل بحال من الدور الذى قامت به كل من جنوة وبيزة .

لقد كان لكل من جنوة وبيزة علاقات قوية مع مصر قبيل قيام الحركة الصليبية ، وحصلتا من «الفواطم» خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) على امتيازات تجارية كبيرة . وساعدهما على ذلك موقعهما الجغرافى باعتبارهما من موانى البحر المتوسط ، وهمزة الوصل بين الشرق الغروب

---

(١) للمزيد من المعلومات عن العلاقات التجارية بين مصر والبندقية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واتجار البنادقة مع المصريين رغم تهديدات الكنيسة اللاتينية فى هذا الشأن ، أنظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (الترجمة العربية) ص ٥٨ — ٦١ .

وتعرف جنوة فى وثائق القلقشندى باسم «بلاد جنوة» (١) و«مملكة الجنويين» معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار (٢) . وقاعدتها مدينة جنوة الواقعة على خليج كبير . ويسمى سكانها «الجنويون» و «الجنوية» . وهم طائفة مشهورة من الفرنج (٣) . أما بيزة فيعرفها القلقشندى فى وثائقه بأنها «بلاد البيازنة» (٤) و«بلاد بيزة» (٥) ويعتبرها من ممالك الفرنج الصغار ، ومركزها بيزة التى هى مرسى جيد وتقع غربى رومية . وسكانها ينسبون إليها ، فيعرفون باسم «البيازنة» (٦) أو «البياشنة» (٧) وهم أيضاً فرقة من الفرنج ،وليس لهم ملك وإنما مرجعهم إلى بابا روما (٨) .

ذكرنا أنه قامت علاقات تجارية طيبة بين كل من جنوة وبيزة من ناحية وبين مصر الفاطمية من ناحية أخرى قبل الحركة الصليبية . فى سنة ١٠٦٣ م عقد مندوب من قبل جنوة معاهدة تجارية مع الفاطميين . وكان كثير من تجارها يفدون إلى ثغر الاسكندرية لاستيراد السلع والبضائع التى كان الغرب فى حاجة إليها . كما كان رعاياها بصفة عامة موضع حماية الدولة

---

(١) صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٢٣٥ ويتحدث القلقشندى بإيجاز عن موقع جنوة وأطوالها ومنتجاتها وأهلها . أنظر ج ٥ — ص ٤٠٥ — ٤٠٦ و ٤١١ .

(٢) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠٥ .

(٣) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠٥ و ج ١٣ — ص ٨٥ و ٨٨ .

(٤) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤١١ .

(٥) صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٢٣٤ .

(٦) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤١١ و ج ٣ — ص ٢٣٤ .

(٧) صبح الأعشى — ج ١٣ — ص ٨٨

(٨) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤١١ .

ورعاياها . كذلك حرصت بيزة حرصاً شديداً على أن تظل علاقتها مع الخلفاء الفاطميين ودية . فقد أوفدت فى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) ، بعد مضى نصف قرن على قيام الحركة الصليبية؛ سفيراً من قبلها إلى بلاط الخليفة الفاطمى الظافر بالله (١) للعمل على تسوية بعض المشكلات الناجمة عن تعرض بعض تجارها لفريق من التجار المصريين بالسلب والنهب . وعاقبت الحكومة الفاطمية التجار البيازنة المقيمين بمصر بالسجن . وهذه الواقعة قريبة الشبه لما حدث لقنصل البندقية وتجارها بمصر فى حادثة مماثلة فى عهد السلطان المملوكى الناصر فرج فى بدايات القرن الخامس عشر . ولقد نجح سفير بيزة فى الوصول إلى تسوية مرضية مع الحكومة الفاطمية ، تعهدت فيها بيزة بالاقتصاص من المعتدين ومعاقبتهم والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام أو لغيرهم من أعداء مصر ، بينما تعهدت الحكومة الفاطمية من جانبها بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزة الذين أعتقلتهم ، وحماية الحجاج والتجار والبيازنة الذين يسافرون فى سفن غير حربية (٢) .

لقد اتخذت كل من جنوة وبيزة فى علاقاتها بمصر قبل الحركة الصليبية موقفا يتفق ومصالحها الخاصة، شأنها فى ذلك شأن البندقية .وجاء اشتراكها فى الحملات الصليبية أو انصرافهما عنها نتيجةطبيعية لما تمليه عليها تلك المصالح(٣)

---

(١) حكم الظافر بالله سنة ٥٤٤ إلى سنة ٥٤٨ هـ (١١٤٩ — ١١٥٣م) .

(٢) أنظر عن ذلك Heyd, op. cit, I, 391.; Lane-Poole, op. cit., 182.

راجع أيضا محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٧٣— ١٧٥ .

(٣) نعرف أنه فى عام ١٠٩٧م — أى أثناء الحملة الصليبية الأولى— قام أسطول جنوى—

وبإنتهاء الخلافة الفاطمية وبداية دولة الأيوبيين بمصر فى عام ٥٦٧ هـ (١١٧١م) — أى بعد بداية الحركة الصليبية بحوالى ثلاثة أرباع القرن — نجد أن الجنوية والبيازنة يتخذون سياسة ذات وجهين متباينين : أحدهما يقتضى منها مساعدة الصليبيين ضد المصريين وغيرهم من مسلمى الشرق الأدنى . بأعتبارهم مسيحيين مثلهم ، فضلا عن الامتيازات العديدة التى يحصلون عليها من وراء نقل المغامرين الغربيين بسفن وأساطيلهم . أما الوجه الثانى فيستلزم منها الحرص قدر الاستطاعة على الإبقاء على العلاقات الطيبة مع مصر التى كانت قائمة من قبل حتى لاتضار مصالحهم الاقتصادية فيها . وكانت هذه السياسة المزدوجة مصدر متاعب لمؤسس الأسرة الأيوبية ، فى وقت كان كان يستعد فيه لتوحيد القوى فى المنطقة توطئة لتوجيه ضربة حاسمة إلى الصليبين فى الشام (١) .

ويتضح ذلك من التذكرة التى أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد بعد أن أستتب به الأمر بمصر (٢) . فقد تضمنت إشارة واضحة إلى مساعدة هاتين الجاليتين للصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام . والوسائل التى كانوا يلجأون إليها للإضرار بالإسلام . كما تكشف عن السياسة المزدوجة التى اتبعوها حيال مصر ، والتى لم تكن تستهدف سوى مصلحتهم الخاصة التى كانت أسمى من أى شىء .

بنقل الصليبيين الغربيين هم ومؤنهم وامداداتهم عبر البحر إلى انطاكية. وبعد ذلك بعامين أرسلت بيزة سفنها بناء على أوامر من البابا الرومانى للاستيلاء على بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين فصاعدا انفتح شرق البحر الأبيض المتوسط للصليبيين الغربيين وعلى رأسهم الايطاليين . انظر :
Pirenne, Med. Cities, 64.

(١) أنظر صبح الأعشى — ج ١٣ — ص ٨٨ .

(٢) أشرنا إلى هذه التذكرة عند التعرض للعلاقات بين صلاح الدين والبنادقة .

أشار صلاح الدين فى تذكرته إلى المستضئ بالله إلى مضايقات الجنويين بخاصة ؛ والفرنج والروم بعامة :

«ونحن نقاتل العدوين (١) : الباطن والظاهر ، ونصابر الضدين : المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين ومن الفرنج ومن ملك الروم ومن الجنويين وأجناس الروم ، لأن أنفارهم تنافرت ، ونصاراهم تناصرت ، وأناجيل طواغيتهم (٢) رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت (٣)

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، ويجمل بنا التوقف عنده لتحليله والتعرف على دلالته ومغزاه . وهو يشير باختصار إلى الفترة التى أحاطت بانحلال السلطة التنفيذية الحاكمة فى مصر منذ أوائل حكم العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، فى الوقت الذى ازدادت فيه أطماع وزير هذا الخليفة المسمى شاور فى الاستيلاء على الحكم ، واتفاقه مع نور الدين محمود سلطان حلب والشام لتحقيق حلمه هذا . فى تلك الفترة كان كل من نور الدين والفرنج بالشام واقفين لبعضهما بالمرصاد ، وقد أتجهت أطماع الفرنج للاستيلاء على مصر مستغلين ضعف الدولة الفاطمية . وكان كل منهما يعلم تمام العلم أن نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه فى أمر واحد هو الظفر بمصر . (٤) وانتهى

(١) المقصود العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر (٥٥٦ — ٥٦٧ هـ) والفرنج بالشام .

(٢) طواغيت وطواغ جمع طاغوت ومعناه كل معتد متعد ، ومعناه أيضا الشيطان والصارف عن طريق الخير ، والقصود هنا الفرنج الدخلاء .

(٣) صبح الأعشى — جـ ١٣ — ص ٨٥ .

(٤) أنظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين — ص ٢٩ — ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية — المؤرخون الشرقيون) — جـ ١ — ص ٥٣٥ و ٥٤٧ ، ابو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية — جـ ١ (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ص ١٣١ . راجع أيضا :
Stevenson, W.B., The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), 187;
Lane-Poole, St., The Story of Cairo (London, 1924), 164—7.

الأمر بعد وقائع ودسائس وحروب إلى تولى أسد الدين شيركوه عامل السلطان نور الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩م) . ولكن شيركوه مات فى جمادى الثانية من تلك السنة (مارس ١١٦٩م) ، فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولقب بالملك الناصر ، لأن العادة أن الوزير أصبح يسمى ملكاً قبل ذلك بسنوات عديدة ، فى وقت ازدادت فيه سلطة الوزراء وأصبح الخلفاء الفواطم ألعوبة فى أيديهم . وإجابة لرغبة نور الدين قطع صلاح الدين الخطبة عن الخليفة الفاطمى العاضد بالله ، ونودى بها للخليفة العباسى . ولم يلبث أن مات العاضد فى محرم ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١م) ، وانتهى بموته حكم الدولة الفاطمية بمصر ، وبدأت دولة جديدة فى الحكم هى دولة الأيوبيين نسبة إلى مؤسسها صلاح الدين الأيوبى . (١)

ولكن الجو لم يخل تماما لصلاح الدين ، إذ قامت مؤامرات داخلية فى مصر من أجل إحياء الدولة الفاطمية والقضاء على الوزير الجديد . وكان من تدبير المتآمرين الاستنجاد بالفرنج فى الشام لغزو مصر ، فإذا ماخرج صلاح الدين لصدهم ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، وبذلك يسهل القضاء عليه . وكان من الطبيعى أن يرحب الفرنج بهذه الدعوة التى وجدوا فيها فرصة طيبة لتحقيق أطماعهم التى أخفقوا فيها من قبل . وقد تمثل هذا فى ثورة مؤتمن الخلافة (٢) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩م) حيث قدم الفرنج لمساعدة الثائرين

(١) أنظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية – المؤرخون الشرقيون) جـ ١ – ص ٥٧٨ وما يليها .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) جـ ١ – ص ٥٦٦ – ٥٦٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – جـ ٤ (القاهرة ١٣٥٠ هـ) ص ٢١٤ . أنظر أيضا .

Casanova, P., «Les Derniers Fâtimides,» Mémoires de la Mission Archéologique Francaise du Caire (Paries, 1893), t. VI, 3e fasc., 430 f.

فهاجموا دمياط فى صفر ٥٦٥ ﻫ (أكتوبر – نوفمبر ١١٦٩م) (١) وثورة عمارة اليمنى (٢) سنة ٥٦٩ ﻫ (١١٧٤م) التى أعقبها هجوم الفرنج على الاسكندرية فى ذى الحجة ٥٦٩ ﻫ (يوليو ١١٧٤م) (٣) ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء على المؤامرتين وصد غزوتى الفرنج على كل من دمياط والاسكندرية ، والتى أسهم فيها الجنوية بنصيب ملموس .

نستنج من العرض السابق للتاريخ السياسى لمنطقة الشرق الأدنى إبان تلك الحقبة من الزمن أن الصراع كان عنيفاً بين القوتين المتنازعتين : الفرنج بالشام ، والقوى الإسلامية الفتية الناهضة بمصر وأن ميزان القوى بدأ يتغير لصالح المسلمين . ونستنتج أيضا أن العدوين اللذين أشار إليهما صلاح الدين فى كتابه إلى خليفة العباسيين هما : افرنج الشام وبقايا الفاطميين بمصر . ويوضح الكتاب أن الجنويين والبيازنة قد ساعدوا الفرنج فى غزوتهم على مصر ، ولكن صلاح الدين ألحق بهم الهزيمة ، ولم يمكنهم من بغيتهم (٤)

لقد وجدت جنوة أن مصلحتها وقتذاك فى مساعدة الصليبيين بالشام ضد صلاح الدين بعد أن تذوقت طعم المكاسب التى جنتها من وراء اشتغالها بالتجارة مع مصر فى عهد الفواطم قبل قيام الحركة الصليبية وبعد أن أحست تغير نظام الحكم فى مصر سوف يضر بمصالحها الاقتصادية .

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين – ص ٣٣ – ٣٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — جـ ٢ (القاهرة ١٣٢٧ ﻫ) ص ١٨—١٩ ، أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر – جـ ٣ (آستانة ١٢٨٦ ﻫ) ص ٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية(جـ ١ – ص ٥٩٩ ٦٠١ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار – جـ ١ (القاهرة ١٢٧٠ ﻫ) ص ٥٣ ،أبو الفداء: المختصر – جـ ٣ – ص٥٧ . راجع أيضا : Casanova, op. cit., 422, 432.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين – ص ٣٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) جـ ١ – ص ٦١١ – ٦١٤ .

(٤) أشار القلقشندى فى تذكرته إلى موقف الجنوية والبيازنة أكثر من مرة . أنظر صبح الأعشى – جـ ١٣ – ص ٨٥ و ٨٨ .

وامتدادا لتلك السياسة نجد أنها توافق فى أواسط القرن السابع الهجرى (أواسط القرن الثالث عشر الميلادى) على تأجير عدد من السفن إلى الملك الفرنسى لويس التاسع ليتسنى له نقل الجند والعتاد والمهمات عبر البحر إلى مصر حتى يضمن لحملته الصليبية النجاح. وعقدت معه اتفاقية بهذا الشأن (١).

ويكشف موقفها عن تدخل المصالح المادية فى الحركة الصليبية . ونجد مثلا حيا لذلك فى موقف البحارة الجنوية والبيازنة الذى أشتركوا فى نقل جيش لويس التاسع إلى مصر ، وكان قد تركهم فى مدينة دمياط بعد استيلائه عليها لحراستها عندما توجه هو وقواته جنوبا صوب العاصمة المصرية بهدف غزوها . إذ يذكر جوانفيل ، مؤرخ سيرة لويس التاسع ، أنه غلبت على أولئك البحارة الإيطاليين الصفة التجارية التى عرفوا بها . ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ولغضبة المصريين عليهم ، عندما علموا بوقوع ملك الفرنسيين ورجاله فى الأسر . ولذلك قرروا فيما بينهم ترك دمياط والنجاة بأنفسهم حتى لايلحق بهم ما لحق بالملك الأسير : ولم يهمهم فى شىء مصير الحملة وقائدها ورجالها. ويذكر جوانفيل أن أولئك القوم لم يعدلوا عن رأيهم الابعد أن أغرتهم الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع بالمال وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة . (٢)

(١) Heyd, op. cit., I, 409 and n. 3. وقد استصدر الملك الفرنسى فى أكتوبر ١٢٤٩م مرسوما يتعلق بأستئجار ست عشرة سفينة جنوية ما بين كبيرة وصغيرة من أجل الحملة على مصر . أنظر :

S. Louis nolise seize navires génois pour sa première croisade, ed. Les Archives de l'Orient Latin, II (Paris 1884). 232--6.

(٢) Joinville J. de., Histoire de Saint Louis. ed. M. Natalis de Wailly (Paris 874), 218.

ومن حسن حظ المكتبة العربية أن قام الدكتور حسن حبشى بترجمة مؤلف جوانفيل ترجمة دقيقة بعد أن زودها بالهوامش المفيدة ومهد لها بدراسة علمية قيمة . انظر جوانفيل : القديس لويس «حياته وحملاته على مصر والشام» — ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨) ص ١٨٢ — ١٨٣ .

لقد كانت حرفة الجاليات التجارية الإيطالية هي التجارة : وهمها الأول والأخير هو الربح والكسب المادى . وكان هذا من بين الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع بينها فى المعاقل اللاتينية فى الساحل الشامى . وكثيرا ماتطور هذا الصراع إلى حروب مكشوفة ذهب ضحيتها الكثيرون ونجد مثالا لذلك فى الحرب التى نشبت فى مارس سنة ١٢٤٩ م بين الجنوية والبيازنة فى شوارع مدينة عكا ، وكانت وقتها من معاقل اللاتين ، وقد أستخدمت فيها مختلف آلات الحصار والقتال . وفيها رجحت كفة البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد قناصلهم . وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات ، وتعتبر هذه الحرب طوراً من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا وغيرها من مدن الساحل الشامى الخاضعة للحكم الصليبى . وكانت تقوم فى الغالب لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية ، كما كانت من العوامل التى أضعفت قوى الفرنج فى الجيوب المبعثرة المتبقية لهم على امتداد الساحل ، والتى كانوا يتحصنون بداخلها ضد هجمات المصريين ، إلى درجة أنه لم يكن بوسعهم الصمود فى وجه تلك الهجمات أو حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم ومعاقلهم (١)

وفى تلك الأثناء كان ميزان القوى قد أعتدل نهائياً لصالح مصر والمسلمين فى الشرق الأدنى ، وأصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم بعد أن اتفقت كلمتهم وتوحدت جبهتهم . وأصبح الفرنج بالشام فى موقف الدفاع عن كيانهم بوجه عام . وأخذوا يتلقون الضربات تباعاً من خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ، ومن بعدهم المماليك بمصر ، إلى أن تم طردهم نهائياً من الساحل الشامى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) ، فى عهد السلطان الأشرف خليل .

ومع ذلك لم يأمن المصريون جانب تلك الجاليات التجارية الإيطاليـــة ،

(١) Heyd. op. cit,. I, 343—4; Grousset, Croisades. III, 433, 436—7.

وكانت تجاربهم السابقة معها تؤكد شكوكهم فى صدق نواياها ومقاصدها . فهم يعلمون جداً أن التجار الإيطاليين قوم جشعون محبون للمال الذى امتلأت به خزائنهم عن طريق التجارة مع الموانى المصرية الواقعة على البحر الأبيض . وكانوا يدركون أنهم سوف يعيدون الكرة إذا واتتهم الفرصة ، حتى يتسنى لهم فتح تلك الأبواب التى أغلقت فى وجوههم . وكان سقوط عكا قد وقع فوق رءوس أهل الغرب وقع الصاعقة ، وأخذوا يعدون العدة لعدوان جديد .

كان الأشرف خليل سلطان مصر مصر يدرك ذلك تمام الإدراك حتى إنه بعد حوالى عام من استرداده مدينة عكا عقد هدنة مع صديقه صاحب أرغونة الفرنجى . (١) وجاء فى أحد شروط الهدنة أن على صاحب أرغونة مصادقة أصدقاء الملك الأشرف خليل ومعاداة أعدائه . وطلب منه استخدام نفوذه فى الغرب ليبعد عن مصر والشام الخطر الذى يتهددها من قبل الفرنج بصفة عامة والجنويه بصفة خاصة . بمعنى أنه إذا حاول الجنوية أو غيرهم من الفرنج من من أعداء الإسلام إلحاق الضرر والأذى بمصر والشام، فعلى صاحب أرغونة منعهم من ذلك ، ولو أستلزم الأمر التوجه إليهم بسفنه ورجاله لقتالهم حتى يشغلهم عن تنفيذ هدفهم . (٢)

كانت الشكوك إذن تساور السلطات الحاكمة فى مصر فى أخريات القرن الثالث عشر من نوايا أولئك القوم . ولكن بعد أن أخذت الفكرة الصليبية فى التقلص والزوال أخذت العلاقات بين جنوة ومصر فى التحسن والإزدهار .

---

(١) تعرضنا لهذه الهدنة بشىء من التفصيل عند الحديث عن العلاقات بين مصر والبندقية فى عهد الأشرف خليل . انظر ما سبق ص ١٠ — ١١ من هذا البحث .

(٢) انظر صبح الأعشى — ج ١٤ — ص ٦٦ .

وقد حفظ لنا صاحب «صبح الأعشى» نسخة كتاب ورد إلى مصر فى صفر ٨١٤ ﻫ (١٤١١م) فى عهد الملك الناصر فرج من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة (١) بقبرص وكان لجنوة وقتها مقدم للشوانى فى تلك الجزيرة . (٢)

ولأهمية هذا الكتاب يحسن تناوله بشىء من التحليل والتعريف ، مع بيان الظروف التى لابسته . يفتتح الراسل مكاتبته - حسب عادة الفرنج فى مكاتبتهم - بذكر اسم السلطان المصرى وألقابه . ثم يبدأ بتقبيل الأرض تعظيما للسلطان المكتوب إليه ، فالدعاء له بطول البقاء . وقد راعى الكاتب فى تعظيم المكتوب إليه أن عدل فى خطابه عن ضمير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة . بمعنى إجراء المخاطبة فى المكاتبة على معنى الغيبة ، ولا أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة . وذلك بأعتبار أن المرسل إليه أعظم شأنا وأرفع قدراً من المرسل . وأتى الكاتب بعد ذلك بالإنهاء ، أى بمحتوى الخطاب ومضمونه والمقصود منه . ثم أختتم الكتاب بالدعاء بأقتضاء العدل والإنصاف من السلطان مع دوام البقاء .

يتحدث قبطان الماغوصة الجنوى والمستشارون بها فى كتابهم الموجه إلى

---

(١) الماغوصة : ميناء بقبرص وقد وردت بهذا الاسم فى المصادر العربية ، وتعرف فى المراجع الأجنبية باسم فاجوسته . وقد كان لصاحب جنوة مقدم على الشوانى فى هذا الميناء ، وكان رسم المكاتبة اليه عن ديوان الانشاء بمصر هو «وردت مكاتبة المحتشم ، الجليل ، المبجل ، الموقر الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين» ويلى ذلك الدعاء ، أما تعريفه فهو «مقدم الشوانى الجنوية بقبرص» أنظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ . ويلاحظ أن القلقشندى لم يحتفظ لنا ضمن وثائقه التى أثبتها فى «صبح الأعشى» بنسخة الكتاب الصادر من مصر إلى قبرص ردا على رسالة القبطان المذكور. كما لم نعثر على وثائق فى وثائق «صبح الأعشى» على أية مكاتبة صادرة من مصر إلى «مقدم الشوانى الجنوية بقبرص» .

(٢) هى المكاتبة الوحيدة بين جنوة ومصر التى حفظها لنا القلقشندى. وقد قام بنقلها إلى العربية شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون الترجمانان بديوان الانشاء بمصر وقتذاك . أنظر «صبح الأعشى» - ج ٨ - ص ١٢٤ .

الملك الناصر فرج عن علاقات المودة والسلم القائمة بين مصر وجنوة ، وأهتمام جنوة بحماية مسلمى مصر والموانى الإسلامية من قراصنة البحر ، وينهون بالتماس رعاية التجار الجنوية ، والعمل على كف أسباب الضرر والأذى عنهم .

وفيما يلى نص الكتاب :

«الملك المعظم ، ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ، الملك الناصر ، عظم الله شأنه » .

يقبل الأرض بين أياديه الكبطان والمستشارون ، وينهون أنهم آناء الليل ، داعون بطول بقائه ، مجتهدون فى أستمرار الصلح والمودة التى لا يشوبها كدر بين القومون (١) وبين مولانا السلطان ، وأن فى هذا الوقت ثم حرامية غراب (٢) يتحومون (٣) بأطراف هذه البلاد ، والمين (٤) ، الإسلامية ، ونحن لم نزل نشحطهم (٥) بالمراكب الأغربة (٦) ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا ، حتى إن أحداً صار لا يجسر على الدخول إلى ميناء الماغوصة جملة كافية مع أننا كنـــا خلصنا فى المدة الماضية من الحرامية المذكورين خمسة وعشرين نفراً من المسلمين ، وأكرمناهم وأطلقنا سبيلهم (وعزمنا أن) (٧) نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الأسكندرية .

---

(١) القومون أو الكيون . أنظر عن ذلك Pirenne, Med. Cities ,127-30, 143-5.

(٢) أى غرباء أو أجانب .

(٣) فى الأصل يتحرمون ولعلها يتحومون أى يدورون حول .

(٤) المين والموانى جمع المينا والميناء . وهو كل مرسى للسفن .

(٥) أى نطاردهم .

(٦) الأغربة أو الغربان جمع غراب ، وهى من أقدم أنواع السفن الحربية ، إذ كانت معروفة عند قرطاجنة والرومان وغيرهم ، ولم تزل معروفة حتى أيام الدولة العثمانية . والغالب كما يتضح من تسميتها أنها كانت على شكل الغراب . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين – ص ٣٤٠ .

(٧) كذا أوردها المحقق فى المتن ، وأوضح فى الحاشية أنها فى الأصل «وعقيبها تجهزهم» انظر صبح الأعشى – جـ ٨ – ص ١٢٥ ح ١ .

وأما غير ذلك ، فقد بلغنا أن برطلما أوسق (١) للمواقف الشريفة الشريفة صابونا فى مراكبه ، وكان قصده أن يهرب بذلك ، فللحال عمرنا مركبا كبيرا ، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة ، وأحضرناه إلى الماغوصة ، وعهدنا بطروق المراكب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون ، وهو رجل مشكور السيرة . وقلنا له أنه يتوجه إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يوسق شيئا من الأصناف لمولانا السلطان ، ويجهزه إلى أى مكان أختاره يسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه ، فليفعل ، وهذا القول كله يكون دليلا عند مولانا السلطان على صدق الولاء والتمسك بالصلح . والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته ، وكف أسباب الضرر عنهم ، وينشر معدلته عليهم ، والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه .(٢)

وكما كان لدوج البندقية رسم مكاتبة خاص به عن الأبواب السلطانية بمصر ، كذلك كان لحكام جنوة رسم مكاتبة يخصهم . وكان هذا الرسم حتى أواسط القرن الثامن الهجرى (أواسط القرن الرابع عشر الميلادى) كالآتى :

«صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة البود شطا (٣) والكبطان الجليلين المكرمين ، الموقرين ، المبجلين ، الخطيرين ، ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابر المحترمين ، أصحاب الرأى والمشورة ، الكينون بجنوة ، أمجاد الأمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ، وجعل النصيحة عندهم ».

---

(١) وسق الشىء أى جمعه وحمله .

(٢) انظر صبح الأعشى — جـ ٨ — ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٣) يعرف فى المراجع الأجنبية باسم « بودستا » podestà أى حاكم المدينة . وللمزيد من المعلومات عن هذه الوظيفة ، انظــر La Monte, op. cit., 444.

بعد ذلك تتضمن المكاتبة إعلامهم بكيت وكيت ، وكان تعريفهم «الحكام بجنوة» . وأعتبارا من عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م) أبطلت المكاتبة إلى «البودشطا» والكبطان بعد إبطالها وأستقرت مكانها المكاتبة إلى «الدوج» بما نصه :

« صدرت هذه المكاتبة إلى الدوج الجليل ، المكرم ، المبجل ، الموقر الخطير ، فلان ، والمشايخ» .

والباقى حسبما تقدم فى رسم المكاتبة أعلاه . (١)

ومن المصادفات الجديرة بالملاحظة أن المكاتبة قد أستقرت إلى الدوج بجنوة فى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٢٦٥م) ، وهى نفس السنة التى تعرضت فيها الإسكندرية لحملة صليبية كبيرة ، والتى تحولت فيها الإسكندرية من ولاية صغيرة إلى نهاية نيابة لها وزنها وقدرها . فقد إزداد أهتمام السلطات الحاكمة بمصر بأمر الإسكندرية باعتبارها ميناء على البحر يغرى الغربيين بالهجوم عليه مثلما فعل صاحب قبرص اللاتينى فى حملته التى شاركه فيها كثير من الجنوية تحقيقاً لأطماعهم التى أصيبت بنكسة عقب طرد الصليبيين من الساحل الشامى فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى . (٢)

جاء النشاط التجارى للبندقية وجنوة وبيزة فى شرق البحر المتوسط والذى تمثل أصدق تمثيل فى العلاقات التى قامت بينها وبين مصر فى عصر التوسع الصليبي — جاء هذا النشاط معبراً فى واقع الأمر عن تلك الثورة الأقتصادية الكبرى التى كان التجار الإيطاليون طليعتها ، والتى بدأت

(١) صبح الأعشى — جـ ٨ — ص ٤٦ . لم يحدثنا القلقشندى عن رسم المكاتبة إلى المسئولين فى بيزة ، ولعل السبب فى ذلك أن مرجعهم كان إلى بابا روما حسبما ذكر القلقشندى نفسه .

(٢) أنظر عن ذلك .

Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 336 f., 339, 341 ff.

متواضعة فى أواخر القرن العاشر ووصلت ذروتها فى نهاية القرن الثالث عشر. وقد كانت هذه الثورة بدورها نتيجة لعوامل عديدة من بينها احتكاك الغرب بالشرق أثناء الحروب الصليبية ، وزوال عصر الإقطاع فى الغرب بحضارته الزراعية الريفية واقتصاده الطبيعي ، ونشأة المدينة بحضارتها المدنية واقتصادها النقدى ونشاطها التجارى والصناعى . وكانت الجمهوريات الإيطالية الثلاث بحكم موقعها الجغرافى الممتاز أسبق من غيرها من أمم الغرب فى هذا المضمار مثلما كانت أسبق منها إلى عصر النهضة .

وكان التجار الإيطاليون (١) بعد زوال الفكرة الصليبية وانصراف الناس

---

(١) عندما يتحدث القلقشندى عن اللاتين الغربيين يطلق عليهم بصفة عامة «الفرنج» أو «طائفة الفرنج» ، كما يطلق على عناصرهم وأجناسهم المختلفة عبارة «أمم الفرنج» أو «ممالك الفرنج» ، وعلى حكامهم «ملوك الفرنج» . فالمسيحيون فى أسبانيا هم «أفرنج أسبانيا» ، وصاحب صقلية «فرنجى» ، و «الكتيلان» أو «القتيلان» هم جنس من الفرنج ، وكذلك «التسقان» وأهالى طليطلة وقشتالة وأرغونة ، فضلا عن البنادقة والجنوية والبيازنة ، الذين هم طوائف وفرق مشهورة من الفرنج . و «افرنسة» هى «افرنجية» ، أنظر صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٤٣٧ و ج ٥ — ص ٢٧١ و ٢٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٤٠٩ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤٨٥ و ج ٨ — ص ٣٤ و ٣٦ — ٣٨ و ج ٩ (القاهرة ١٩١٦) ص ٢٥٠ و ج ١٤ — ص ٢٤ . وهذا يعنى أن مفهوم كلمة «الفرنج» فى وثائق «صبح الأعشى» ينسحب على جميع أهل الغرب اللاتينى ، بما فى ذلك الجاليات التجارية الايطالية . ولذلك عندما يتحدث القلقشندى عن التجار الغربيين الذين يتعاملون مع مصر ويفدون على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، يشير إليهم فى معظم الأحيان بقوله «تجار الفرنج» . انظر صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٤٥٩ . ويلاحظ أيضا أن جميع المهادنات التى أثبتها القلقشندى والتى عقدت بين كل من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من ناحية وبين افرنج الشام من ناحية أخرى ، خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، قد تضمنت العديد من البنود التى تتعلق بتجار الفرنج دون اشارة محددة تنص على التجار الايطاليين بالذات . انظر صبح الأعشى — ج ١٤ — ص ٣٧ و ٤١ — ٤٢ و ٤٥ و ٤٧ و ٥٠ — ٥١ و ٥٨ — ٥٩ و ٦١ و ٦٨ — ٦٩ . كذلك أشار إلى سفن الغربيين التى تنقل البضائع بين مصر والموانى الغربية على أنها «مراكب الفرنج» أنظر صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٤٥٩ . فالاشارة هنا أيضا عامة على الفرنج وسفنهم دون تحديد أو تخصيص ، وغير خاف أن المقصود بتجار الفرنج التجار البنادقة والجنوية والبيازنة الذين كانوا

فى الغرب عنها يقومون بعملية التصدير والاستيراد بين بلدان الشرق الأدنى بعامة ومصر بخاصة من ناحية وبين الغرب الأوروبى من ناحية أخرى . فتأتى سفنهم محملة بالسلع والبضائع من الغرب لتفريغها فى ثغرى الإسكندرية ودمياط وللقيام بعمليات البيع والشراء فيهما ثم تقلع منهما محملة بالبضائع التى كان الغرب فى حاجة إليها . (١) ومن أهم الواردات التى كانت تأتى إلى مصر ، والتى أشار القلقشندى إليها : المماليك والجوارى والأخشاب والمعادن ؛ كالفضة والذهب ، والحديد ، والنحاس . (٢) وقد اشتهر بصفة خاصة الحديد البنزانى الذى ينسب إلى بنزة ، (٣) والجوخ البندقى نسبة إلى البندقية وهو يفوق كل أنواع الجوخ . (٤) وإن لم يرد نص صريح فى وثائق « صبح الأعشى » عن استيراد مصر لكل من حديد بنزة وجوخ البندقية ، إلا أن إشارات القلقشندى

= فى واقع الأمر يحتكرون التجارة مع مصر وحوض الليفانت. ويعزز ذلك الاشارات الصريحة التى وردت فى بعض وثائق «صبح الأعشى» بخصوص التجار الايطاليين . أنظر : صبح الأعشى — جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٥ . ولعلنا نخلص مما سبق أن اشارات القلقشندى العامة عن تجار الفرنج الذين كانوا يتعاملون مع مصر وتتذاك انما تعنى فى حقيقة الأمر تجار الجمهوريات البحرية الايطالية . وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لاشارات القلقشندى إلى مراكب الفرنج .

(١) صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٢) صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٩٦ و جـ ١٤ — ص ٦٨ . ويذكر القلقشندى أن الفضة كانت تصل إلى مصر من بلاد الفرنج وغيرها ، وأن ورودها انقطع من سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧/١٣٩٨ م) ، فغلت الفضة وبطل ضرب الدراهم بمصر الا فى القليل النادر . أنظر صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٦٣ . كما أشار صاحب «صبح الأعشى» إلى قلة الوارد من النحاس إلى مصر فى زمنه حتى أن العملة التى كان الناس يتعاملون بها أخذت فى التناقص لصغرها ونقصت أوزانها . وجاء فى اشارة أخرى أنه لم يعد يصل من معدن النحاس شىء حتى لقد صدرت الأوامر بابطال دار الضرب بمصر نحو شهرين إلى أن يحضره الفرنج لاستعماله . أنظر : صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٤٠ و جـ ٧ (القاهرة ١٩١٥) ص ٢١٣ . ويعكس هذا الوضع الحالة الاقتصادية فى مصر زمن القلقشندى من حيث غلاء الاسعار ، وتدهور العملة المستعملة ، وعدم ثبات صرف الذهب . أنظر صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٣٨ و ٤٤٠ و ٤٥٠ و ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٣) صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤١١ و جـ ٣ — ص ٢٣٤ .

(٤) صبح الأعشى — جـ ٥ — ص ٤٠٥ .

المتكررة إليها تدل على معرفة مصر بها فى ذلك الحين ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت تستوردهما من هاتين الجهتين .

هذا عن واردات مصر التى كانت تصل إليها من الخارج ، أما أهم السلع التى كانت تصدر من موانيها فهى بعض المواد الأولية اللازمة لصناعة المنسوجات والأقمشة ، وبصفة خاصة قماش الأسكندرية « الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا » (١) وكذلك المرجان الذى يحمل من الإسكندرية إلى سائر البلاد (٢) ، والسكر الذى كان يصدر أيضا إلى أكثر البلاد (٣) وبعض الأحجار النفيسة : كالزمرد ، والبلسان ، أو البلسم الذى كان ملوك مصر يهادون به ملوك الفرنج وغيرهم لعظم شأنه (٤) ، وغير ذلك من الأحجار والمعادن التى كانت تستخرج من مصر مثل النطرون والشب واللازود (٥) وأما الملح فقد كان من أهم صادرات مصر إلى بلاد الفرنج (٦) بالإضافة إلى التوابل الواردة إلى مصر من الهند واليمن (٧) ، والتى يقوم التجار الإيطاليون بدورهم بنقلها على سفنهم من موانى البحر الأبيض إلى الغرب :

وتمتع أولئك التجار فى حلهم وترحالهم — بصفة عامة — برعاية الدولة وحمايتها . فقد كانت تحسن وفادتهم ، وتؤمنهم على أنفسهم وحياتهم وأموالهم

(١) صبح الأعشى — جـ ٣ — ص ٤٠٤ و جـ ٥ — ص ٨٤ و ١٤٣ .
(٢) صبح الأعشى — جـ٢ (القاهرة ١٩١٣) ص ١١٦ .
(٣) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٣٠٩ .
(٤) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .
(٥) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٢٨٣ — ٢٨٤ و ٣٠٥ و ٣٠٧ و ٤٥٦ .
(٦) ذكر القلقشندى أن «بحيرة بوقير هى بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومى بين الاسكندرية ورشيد ، ولها خليج صغير مشتق من خليج الاسكندرية .. وبجوانبها الملاحات الكثيرة التى يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها . أنظر صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٣٠٣ .
(٧) صبح الأعشى — جـ٤ — ص ٣٢ و ح ١ .

وبضائعهم وتعمل على رفع الظلم عنهم ، ونشر العدل بينهم بما يعود على البلاد من خير وفائدة . ووثائق صبح الأعشى واضحة فى ذلك تمام الوضوح إذ تلقى نسخ التواقيع الخاصة بنظر ثغر الإسكندرية (١) ونظر الصادر الخاص بتجار الفرنج بها (٢) ، كذلك نسخ المكاتبات والمهادنات بين مصر والفرنج ضوءا كافياً على ذلك .

فى توقيع بنظر ثغر الإسكندرية كتب به للقاضى جمال الدين بن بصاصة حوالى ٦٧٨ هـ (١٢٩٠ م) (٣) ، جاء مايلى :

« . . . . و يجتهد فى تحصيل أمواله (٤) . . . . وتنمية متاجره ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على ماتجنه الصدور ، وإذا لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، وليعتمد معهم ما

---

(١) متوليها يسمى ناظر الاسكندرية أو ناظر المباشرة ، وهى من الوظائف الديوانية التى يكتب بها بثغر الاسكندرية ، وموضوعها التحدث عن الأموال السلطانية بالاسكندرية مما يتحصل من من المأخوذ من تجار الفرنج وسائر المتاجر الواصلة برا وبحرا بالقبض والصرف والحمل إلى الأبواب السلطانية» أنظر صبح الأعشى — جـ١١ (القاهرة ١٩١٧ ص ٤١٩ .

(٢) من الوظائف الدينية التى يكتب بها بثغر الاسكندرية ، «وموضوعها التحدث فى قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى ثغر الاسكندرية ..» أنظر صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤١٩ .

(٣) لم يحدد القلقشندى تاريخ التوقيع ، ولكنه أعقبه بنسخة توقيع ثانية باعادة النظر بثغر الاسكندرية لابن بصاصة فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٠م) ، مما يبين أن التوقيع الأول كان حوالى ذلك الوقت أو قبله بقليل . أنظر صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤٠ — ٤٢ .

(٤) المقصود ثغر الاسكندرية .

تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت ، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت (١)

وفى نسخة توقيع بنظر الصادر الخاص بتجار الفرنج فى ثغر الإسكندرية كان ينسج على منوالها ويستضاء بها فيما يكتب من هذا النوع ، جاء مايلى :

« . . . . (وليتلق) كذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن لهم الوفادة وليعاملهم بالمعدلة المستفادة ، فإن مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزيادة . . . . » (٢)

وفى تذكرة سلطانية كتب بها عن السلطان الملك الصالح على بن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ، عندسفر الملك الصالح إلى الشام واستقرار كتبغا نائباً عنه فى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) — نجد إشارة لها أهميتها عن التجارة والتجار تحت عنوان « فصل الثغور المحروسة » جاء فيها بعد بيان أهمية الثغور :

« . . . . والتيقظ لمهمات الثغر ، واستجلاب قلوب التجار واستمالة خواطرهم ؛ ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى تتواصل التجار وتعمر الثغور . . . . » (٣).

ويدل هذا على مدى اهتمام مصر باجتذاب تجار الفرنج إلى موانيها نظراً للمكاسب الهائلة التى كانت تعود عليها من وراء ذلك .

وتتميز نسخ المهادنات المعقودة بين مصر والفرنج فى عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل ، فيما بين عامى ٦٦٥ و ٦٩٢ هـ (١٢٦٧—

(١) صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤٢٠ — ٤٢١ .
(٢) صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٣٢٠ .
(٣) صبح الأعشى — جـ١٣ — ص ٩٦ .

١٢٩٢ م) ، والتى أثبتها القلقشندى فى كتابه — بأهميتها فيما نحن بصدده . فقد وردت بها إشارات عديدة تتعلق بتأمين التجار الفرنج بالشام وغيرهم من الوافدين من الغرب . ولم ترد هذه المهادنات إشارات صريحة تخص التجار الإيطاليين ، وإنما كانت الإشارة إلى تجار الفرنج بصفة عامة . وغير خاف أن المقصود تجار المدن البحرية الإيطالية الذين كانوا يقومون بعمليات التصدير والاستيراد بين مصر والشرق الأدنى الإسلامى من ناحية ، وبين الغرب اللاتينى من ناحية أخرى (١) والذين احتكروا تجارة شرقى حوض البحر المتوسط مثلما احتكروا عملية نقل الصليبيين على سفنهم إلى الشرق زمن العدوان الصليبى .

ففى هدنة عقدت بين الظاهر بيبرس (٢) وجماعة الفرسان الإسبتارية بحصنى : الأكراد والمرقب بالشام ، تاريخها يوم الإثنين ٤ رمضان ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، وردت إشارة تنص على ضرورة تأمين التجار والسفار على أنفسهم وأموالهم وكل ما يتعلق بهم ، وذلك فى البلاد التى وقعت الهدنة عليها(٣) وفيما يلى نص البند المشار إليه :

« . . . . على التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية فى البلاد التى وقعت هذه الهدنة عليها — على النفوس والأموال والدواب ومايتعلق بهم يحميهم السلطان ونوابه . . . وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى

(١) أنظر ماسبق ، ص ٢٥ ح ٣ من هذا البحث .

(٢) تولى الظاهرة بيبرس الحكم ١٨ سنة من ٦٥٨ إلى ٦٧٦ هـ (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) ، ويغلب على الظن أن حكمه انتهى بمقتله مسموما .

(٣) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . أنظر النص الكامل للهدنة فى كتاب صبح الأعشى — جـ ١٤ — ص ٣١ — ٣٩ .

طريق اختاروه من الطرق الداخلية فى عقد هذه البلاد الداخلة فى هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الأسبتار والمناصفات ، يكون الساكنون والمترددون فى الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمى كل جهة الجهة الأخرى (١) .

وفى هدنة ثانية عقدت بين بيبرس وبين ملكة بيروت الفرنجية بتاريخ الخميس ٦ رمضان ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) ، إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنج لم تجر العادة بها ، وأن يكون التجار آمنين مدة أربعين يوماً بعد انقضاء المدة المتفق عليها فى الهدنة (٢) .

« . . . . وعلى ألا يحدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين . . . .

. . . . وعلى أنه إن تاجر فرنجى صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلا فى هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لايكون داخلا فى هذه الهدنة . . . .

. . . . وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً ، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره . . . (٣) »

وفى هدنة ثالثة عقدت بين بيبرس وولده الملك السعيد (٢) وبين

(١) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٣٧ .

(٢) لم يتضمن النص أى إشارة إلى مدة الهدنة . أنظر النص الكامل لها فى صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٣٩ — ٤٢ .

(٣) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) تولى الملك السعيد بن الظاهر بيبرس الحكم لمدة سنتين حتى ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) وانتهى حكمه بخلعه وكان عمره ٢٠ سنة وقتها .

جماعة الفرسان الأسبتارية على قلعة المرقب بالشام فى مستهل رمضان ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) (١) ، إشارة واضحة إلى الإتفاق على تقسيم ما يتحصل من التجار الفرنج والمصريين مناصفة بين الجهتين الفرنجية والإسلامية :

« . . . . وكل ماهو من الموانى والمراسى البحرية المعروفة جميعها بحصن المرقب : من مينا بلدة إلى مينا القنطرة المجاورة لحدود مرقية — تكون هى وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ، وتشهد به الحسبانات — جميعه مناصفة . وما يدخل فى ذلك من أجناس البضائع على اختلافها ياخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الأسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة الجارية ، بل تجرى التجار فى الحقوق على عادتهم فى البضائع التى يحضرونها والمتجر كائناً من كان . . . (٢) » .

وفى أحد شروط الهدنة آنفة الذكر بند خاص بتأمين التجار المصريين والفرنج على أرواحهم وأموالهم من ناحية كل من الظاهر بيبرس والفرسان الأسبتارية ، وهو بند تضمنته جميع المهادنات التى سجلها القلقشندى فى « صبح الأعشى » :

« . . . . وعلى أن التجار السفارة والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ماخرجوا من الموانى المحددة أعلاه يتوجهون

(١) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر . أنظر نصها الكامل فى صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤٢ – ٥١ .

(٢) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤٤ — ٤٥ .

بخفارة (١) الجهتين من غير حق : لايتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين . ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانيها ، فالترتيب على الخفارة من الجهتين ، مع تدرك الرؤساء الخفظ للطرقات صادراً ووارداً بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب : ، وإلى الموانى بالمرقب المحدودة أعلاه ، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين ، على ماشرحناه . . . » (٢) .

وورد فى نفس الهدنة نص ثالث جاء به أنه فى حالة فسخها يؤمن التجار من الجهتين ، وقد تحددت المدة التى يؤمنون فيها على أنفسهم وأموالهم بأربعين يوماً . وفيما يلى النص :

« . . . . ومتى وقع — والعياذ بالله — فسخ بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين ، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً . . . . » (٣) .

وفى هدنة رابعة عقدت بين الملك المنصور قلاوون الصالحى (٤) وولده الملك الصالح على وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام فى يوم الخميس ٥ ربيع الأول ٦٨٢ ﻫ (١٢٨٣ م) ، إشارات عديدة لها أهمية خاصة فى هذا الشأن (٥) . إذ جاء فى أحد بنودها شرط خاص بما يتبع حيال

(١) أى حراسة .

(٢) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤٧ .

(٣) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٥٠ — ٥١ .

(٤) تولى المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الحكم ١٢ سنة ، من (٦٧٨ إلى ٦٨٩ﻫ) (١٢٧٩ — ١٢٩٠م) ، ومات وهو فى السبعين من عمره .

(٥) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . أنظر النص الكامل لها فى صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٥١ — ٦٣ .

مراكب الطرفين التى تنكسر أو تغرق فى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة ، وكيفية معاملة من عليها من التجار :

« . . . . وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتها من المسلمين وغيرهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى مينا عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأتباع والمتاجر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم وإن عدموا بموت أو غيبة ، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده. وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج يجرى لها مثل ذلك فى بلاد السلطان وولده . ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضرا إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا أو المقدم . . . . . » (١) .

ونص بند آخر فى نفس الهدنة على مايتبع عند وفاة أحد التجار من الجهتين من حيث المحافظة على أمواله إلى أن يتسلمها المختصون :

« ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده فى عكا وصيدا وعثليت والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم (فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده) وإذا توفى أحد فى البلاد الإسلامية الداخلة فى هذه الهدنة ، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين » (٢) .

---

(١) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٥٩ .

هذا ، بالإضافة إلى النص الذى يرد عادة فى مثل تلك المهادنات الخاص بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شىء منهم لم تجربه العادة :

« . . . . وعلى ألا يجدد على التجار المسافرين : الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجربه عادة ، ويجروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة ، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق لم تجربه عادة . وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، وفى حالتى سفرهم وإقامتهم ، ويكون التجار ، والسفار ، والمترددون آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين فى حالتى سفرهم وإقامتهم ، وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة » (١) .

وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة أكثر عمقاً ، وربطنا بين تلك المهادنات التى أسلفنا الإشارة إليها وبين الأحوال السياسية السائدة فى الشرق الأدنى وقتذاك ، نجد أن إمارات اللاتين بالشام كانت وقتها أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر — قد فقدت الأمل بالفعل فى أية مساعدة يقدمها لها أهل الغرب الكاثوليكى تمكنها من صد هجمات البحرية . لقد أخذ المماليك بمصر فى توجيه الضربات القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامى . فنرى الظاهر بيبرس يغير على ممتلكاتهم فيما بين سنتى ٦٦٣ ﻫ (١٢٦٥ — ١٢٦٨ م (والتى يترجمها انتصاره عليهم فى أنطاكية فى رمضان ٦٦٦ ﻫ (مايو ١٢٦٨ م) . وكان احتلال هذا الحصن المنيع نذيرا بانهيار حكم الصليبيين وتلاشى دولتهم فى

---

(١) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٦١ .

الشرق (١). ثم واصل المنصور سيف الدين قلاوون سياسة بيبرس من حيث شنه الهجمات المتكررة على باقى ممتلكات اللاتين بالشام ، وأهمها استيلاؤه على طرابلس فى ربيع الآخر سنة ٦٨٨ ﻫ (ابريل ١٢٨٩ م) (٢) ويتوج السلطان الأشرف خليل هذا الجهاد المتصل باستيلائه فى جمادى الأولى ٦٩٠ ﻫ (مايو ٢١٩١ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالأرض المقدسة .ولم يبق لهم بعدئذ على الساحل الشامى سوى أمكنة فردية ضعيفة هى : صيدا وصور وحيفا طردهم المسلمون منها فى نفس السنة (٣).وفى ظل هذه الظروف التى تم فيها القضاء على البقية الباقية من سلطنة اللاتين الغربيين فى الأراضى المقدسة والتى اعتدل فيها ميزان القوى بشكل واضح وحاسم لصالح المسلمين ، تم إبرام المهادنات المشار إليها أعلاه بين المسلمين والفرنج بالشام ، تلك المهادنات التى تضمنت بنودا صريحة تكشف عن هذا التغيير الكبير الذى طرأ على ميزان القوى بين الفريقين فى رقعة الشرق الأدنى . وتبين أن سلاطين المماليك كانوا يملون إرادتهم على إفرنج الشام وهم فى مركز القوة .

وإذا كانت تلك المهادنات تكشف عن مدى اهتمام الجهات المسئولة بمصر بأمر التجارة لما كانت تدره عليها من أموال ساعدتها على تقوية نفسها وتعزيز

---

(١) راجع النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة — جـ٢٨ — لوحة ٩٤ — ٩٦ ، الكتبى : فوات الوفيات — جـ١ (القاهرة ١٢٩٩ ﻫ) ص ٨٧ و ٨٩ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة — جـ١ قسم٢ (القاهرة ١٩٣٦) ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

(٢) المقريزى : السلوك — جـ١ قسم ٣ (القاهرة ١٩٣٩) ص ٧٤٧ — ٧٤٨ .

(٣) بيبرس الدوادار المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ — جـ١٠ — لوحة ٢٨٢ — ٢٨٩ . أنظر أيضا ص ٢٠ ح ٤ من هذا البحث .

جيشها وأسطولها فى مواجهة الصليبيين الغزاة فى فلسطين فى وقت أخذ فيه المماليك بمصر زمام المبادأة بينما التزم أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم المتداعى بوجه عام — فإن المكاتبات التى تبودلت سلاطين المماليك والفرنج بالشام إبان تلك الحقبة من الزمن لاتقل فى أهميتها ودلالتها عما تقدم .

من ذلك ؛ الكتاب الذى بعث به ميخائيل دوج البندقية سنة ١٤١١ م (٨١٤ هـ) مع رسوله نيقولا البندقى إلى الملك الناصر فرج . وقد أشار فيه إلى تردد التجار البنادقة على الديار المصرية وهم آمنين مطمئنين يتمتعون بعدل السلطان ورعايته . وفى ختام الكتاب يوصى الدوج السلطان المملوكى خيرا بالقنصل البندقى فى الإسكندرية بالرعايا والتجار البنادقة حتى يطمئنون على أنفسهم ويترددوا على مملكته (١) .

وثمة كتاب آخر ورد من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة بقبرص إلى الناصر فرج فى نفس السنة ، يلتمس فيه حسن معاملة التجار الجنوية فى مصر ونشر العدل بينهم والتحقيق فى شكاياتهم مع كف أسباب الضرر عنهم . وقد أوضح القبطان فى رسالته أن المراكب الجنوية لاتتوانى من ناحيتها عن حماية مسلمى مصر من التجار والمسافرين من مضايقات القراصنة الأجانب (٢) .

وإن دل هذا على شىء فعلى انتعاش حركة التجارة فى مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد موت الفكرة الصليبية ، وعلى تردد التجار الإيطاليين عليها وهم آمنين . وكان المسئولون بمصر يبذلون جهدهم

(١) صبح الأعشى — جـ٨ — ص ١٢٣ — ١٢٤ . هذا ، ولم نعثر فى وثائق «صبح الأعشى» على رد السلطان المملوكى على رسالة دوج البنادقة ، كذلك لم نستدل من تلك الوثائق مايبين أنه بعث برده عليها .

(٢) صبح الأعشى — جـ٨ — ص ١٢٤ — ١٢٥ . سبقت الاشارة إلى هذين الكتابين فى شىء من التفصيل والتحليل عند التعرض للعلاقات بين كل من البندقية وجنوة من ناحية وبين مصر من ناحية أخرى .

لتهيئة سبل الراحة والإقامة لهم . والمبادرة بحل مشاكلهم ، والنظر فى شكاياتهم .وإن كان هذا لايمنع من القول بأن مصر كانت تبادر بوقفهم عند حدهم والتشدد فى معاملتهم إذا تصرفوا تصرفا يضر بالبلاد ومصالحها العليا . ونجد مثلا لذلك فى موقفها من تصرفات بعض التجار البنادقة والجنوية زمن الناصر فرج .

وثمة دلائل على أن السلطات الحاكمة بمصر قد وجهت اهتمامها لاجتذاب أكبر عدد من التجار الإيطاليين إليها . وأستلزم ذلك توجيه المزيد من الاهتمام إلى الثغور المصرية ، وبخاصة ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وكان هذان — الثغران محط أولئك التجار ، ومركزاً لنشاطهم الاقتصادى . ووثائق «صبح الأعشى» غنية بالمادة فى هذه الناحية .

لقد كانت الإسكندرية موضع اهتمام خاص باعتبارها أجل الثغور المصرية فهى تمتاز بموقعها التجارى الممتاز على البحر المتوسط ، ومينائها الصالح لرسو السفن . كما كانت توجد بها «الأسواق الممتدة وفيها ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر» (١) إذ تأتى إليها سفن الفرنج محملة بالبضائع لبيعها للتجار المسلمين (٢) وكانت الإسكندرية قبل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتينى عليها سنة ٧٦٧ هـ (١٢٦٥م) مجرد ولاية عادية . ولكنها استقرت بعد ذلك نيابة (٣) يكتب لنائبها تقليد من الأبواب الشريفة بمصر (٤) وكان استحداث هذه النيابة

(١) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٤٠٤ .
(٢) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .
(٣) صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤٠٥ .
(٤) صبح الأعشى — نفس الجزء والصفحة — أنظر نسخة التقليد الخاص بنيابة ثغر الاسكندرية الذى أثبته القلقشندى فى صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤٠٥ — ٤٠٧ . ويتضح منه مدى اهتمام المسئولين بمصر بأمر الثغور ، مما اقتضى العمل على رعاية التجار ونشر العدل =

فى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين (١) ، مما يكشف عن الاهتمام الذى أخذ المسئولون يوجهونه إليها وقتذاك .

وإذا كانت الاسكندرية لموقعها الممتاز قد اجتذبت التجار الإيطاليين إليها ، فلم تكن دمياط تقل عنها أهمية . إذ امتازت بتفوقها الصناعى (٢) وموقعها الفريد من الناحيتين الجغرافية والتجارية . والواقع أن مركزها الساحلى بين مصب فرع الدلتا الشرقى وساحل البحر الأبيض جعل منها سوقا تجارية دولية تنقل إليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر والنيل – تلك البضائع التى تحملها سفن الفرنج فى البحر المتوسط إلى سواحل مصر والشام ، ومنها تنقل إلى الغرب الأوروبى . وكانت هذه التجارة تدر على

= بينهم. وجدير بالذكر أن الوظائف التى كان يكتب بها بثغر الاسكندرية كانت على نوعين . الوظائف الدينية وهى ثلاث : القضاء والحسبة ونظر الصادر ، والوظائف الديوانية وهى الأخرى ثلاث : ناظر المباشرة ويعرف أيضا بناظر الاسكندرية، ونظر كتابة الدرج ، ونظر دار الطرز . أنظر صبح الأعشى – جـ١١ – ص ٤٠٨ – ٤٢٦

(١) صبح الأعشى – جـ٧ – ص ١٥٦ .

(٢) اشتهرت دمياط فى العصر الوسيط ، وبخاصة فى عهد الأيوبيين ، بأنها مدينة صناعية هامة تخصصت فى صناعة النسيج واشتغلت بتصديره إلى الاسواق الخارجية . وتحدث عن ذلك الجغرافيون العرب وكتاب المسالك والممالك . أنظر اليعقوبى : كتاب البلدان – منشور فى

Kamal, Y,. Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, t. III, fasc. I (1930), 540.

الاصطخرى : مسالك الممالك – منشور فى

Kamal, op. cit., t. III, fasc. II (1932), 586.

ابن حوقل : المسالك والممالك والمفاوز والمهالك – منشور فى

Kamal, op. cit , t. III, fasc. II, 652.

القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد – (طبع جوتنجن ١٨٤٨م) ص ١٢٩ ، على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة – جـ١٠ (القاهرة ١٣٠٥ هـ) ص ٤٦ .

سلطان مصر أرباحا طائلة . (١) لذا كانت محاولات الغربيين احتلال دمياط والإسكندرية فى عصر التوسع الصليبي من أشد وسائل مضايقة المصريين وعرقلة تجارتهم مع العالم الخارجى . (٢)

وهكذا كان تجار الجمهوريات الإيطالية يفدون على هذين الثغرين اللذين «تأتى إليهما مراكب الفرنج بالبضائع فتبيع منها ماتحتاج إليه من البضائع» (٣) .

كان هذا الاهتمام الزائد الذى وجهته مصر إلى التجارة والتجار الفرنج من جهة ، وإلى الموانى والثغور المصرية المطلة على البحر الأبيض من جهة أخرى له مايبرره ويدعو إليه . فقد كانت التجارة مصدر ثروة طائلة بالنسبة للبلاد أكسبتها القوة والمنعة فى الداخل والخارج . إذ ظلت دولة المماليك بمصر هى الدولة القوية التى لامنافس لها فى رقعة الشرق الأدنى حتى أواخر القرن الخامس عشر . ويكفى أنها تمكنت من إلحاق الهزيمة بالتتار فى بداية عهدها . كما أفلحت فى طرد الصليبيين من الساحل الشامى فى أواخر القرن الثالث عشر ، والوقوف فى وجه الحملات الصليبية المتأخرة فى القرن الرابع عشر ، ثم تأديب الغربيين بحملات إسلامية مضادة خلال القرن الخامس عشر (٤) .

(١) Jacques de Vitry, Historia Hierosolimitana, ed, Y. Kamal, Monumenta Cartographica, t. III, fasc. IV, 944; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. Kamal, op. cit., t. III, fasc. IV, 908; cf. also : Heyd, Hist. du com., I, 384.

(٢) نجد مثلا واضحا لذلك فى حملتى جان دى برين ولويس التاسع على دمياط فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكذلك حملة بطرس لوسنيان على الاسكندرية فى أواسط القرن الرابع عشر . ومن الواضح أن محاولات الغربيين الاستيلاء عليهما معناه أن يصبح فى يد الغزاة موردا ماليا له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة .

(٣) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٤٥٩ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية أبان العدوان الصليبى — ص ٣٠ — ٣١ و ٣٥ و ٣٧ ومابعدها والحواشى .

وكانت الأموال التى أمتلأت بها خزائن مصر تأتى عن طريق المكوس والضرائب التى يتم تحصليها على بضائع التجار الوافدين على ثغرى الاسكندرية ودمياط . (١) ولهذا السبب كان الاهتمام الزائد بتحصيل الأموال منهم ، و«عدم التفريط فى مستخرج حقوق المراكب الواصلة،ولايقلل متحصلها، ولاينقص حملها ». (٢) وكان المقرر فى الشرع هو أخذ العشر من بضائع التجار إذا شرط ذلك عليهم . وفى مذهب الشافعى أن للإمام أن يزيد فى المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر إذا دعت الحاجة إلى الازدياد من جلب البضاعة ومن الممكن أن يرفع ذلك عنهم إذا استوجبت المصلحة ذلك أيضا . وجدير بالذكر أنه كيفما كان تحصيل المكوس فلا يزيد على مرة واحدة من كل تاجر فى كل سنة حتى لو رجع إلى بلاده ثم عاد بالتجارة فى نفس السنة ، فلا يؤخذ منه شئ اكتفاء بما أخذ منه فى المرة الأولى

كانت هذه هى القاعدة المتبعة حيال التجار الوافدين بالبضائع على مصر بصفة عامة . ويخص القلقشندى تجار الفرنج بكلمة فى هذه الناحية إذ يذكر أنه تقرر أن يؤخذ منهم الخمس أى ضعف العشر عن كل مايصل لهم ، وربما زاد مايؤخذ منهم على الخمس أيضاً (٣) وفى بعض المهادنات التى أبرمت

---

(١) صبح الأعشى — ج٣ — ص ٤٦٦ .

(٢) صبح الأعشى — ج١٣ — ص ٩٦ . أنظر تذكرة الملك الصالح على بن المنصور قلاوون لكافل السلطنة بمصر الأمير كبتغا سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١م) فى صبح الأعشى — ج١٣ ص ٩١ — ٨ .

(٣) صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٤٥٩ . وهذه المكوس المتحصلة على البضائع الواردة إلى مصر مع التجار منها مايختص بالديوان السلطانى مثل البضائع التى قد تصل للتجار المسلمين إلى ساحل الاسكندرية ودمياط فيؤخذ منها المرتب السلطانى على ماتوجبه الضرائب ، ومنها مالا اختصاص له بالديوان السلطانى والمقصود به المكوس المتفرقة بالبلاد . أنظر صبح الأعشى — ج٣ — ص ٤٦٤ — ٤٦٧ .

بين سلاطين مصر من المماليك البحرية وبين إفرنج الشام خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، مثل هدنة رمضان ٦٦٩ هـ (١٢٧١م) بين الظاهر بيبرس والفرسان الاستبارية ، كان يتم الاتفاق على مناصفه مايتحصل من التجار من الضرائب والمكوس فى الثغور والموانى التى تشملها الهدنة ، وفقا للعادة المتبعة (١) .

و كان يتم تقدير المقدرات بواسطة الموازين والمقاييس المتعارف عليها . ومن أهم آلات المعاملة بمصر وقتذاك الميزان والذراع . (٢) أما عن العملات التى كان يتم التعامل بها . فهناك الدنانير المصرية التى يتم التعامل بها وزنـا كالذهب المصرى . وهناك مايأتى إلى مصر من العملات المسكوكة فى غيرها من الممالك الفرنجية ، ويتم التعامل بها عادة . وهى عبارة عن دنانير معلومة الأوزان يؤتى بهـا من بلاد الفرنـج ، وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا القديسين بطرس وبولس . وتعرف هذه العملات باسم «الدنانير الافرنتية» نسبة إلى «إفرنسة» أو «إفرنجة» . (٣) وهناك نوع آخر من الدنانير يعرف باسم «الدوكات» ، وهو لايطلق إلا على الدنانير التى تضرب فى البندقية نسبة إلى صاحبها «الدوك» أو «الدوج» . (٤) ويبدو من إشارات القلقشندى المتكررة إلى «دوكات» البندقية أنها كانـت منتشرة بمصر فى عصره وأنه كان يتم التعامل بها ، مما يكشف عن ثباتهـا واستقرارها . ،فضلا عن الحظوة التى كانت تتمتع بها البندقية من قبل مصر

(١) أنظر صبح الأعشى – جـ١٤ – ص ٤٥ .

(٢) صبح الأعشى – جـ٢ – ص ١٤٦ و ١٤٧ – ١٤٨ .

(٣) الافرنتية جمع افرنتى وأصلها افرنسى نسبة إلى افرنسة وهى مدينة من مدن الفرنج ، وربما قيل فيها افرنجة التى تنسب إليها طائفة الفرنج ، وهى مقر ملكهم الذى يعرف بالفرنسيس ، أى ملك الفرنسيين . أنظر صبح الأعشى – جـ٣ – ص ٤٣٧ .

(٤) صبح الأعشى – نفس الجزء والصفحة .

ولاشك أن تلك الحظوة تفوق تلك التى كانت تتمتع بها كل من جنوة وبيزة .

لقد أولى القلقشندى موضوع التجار الفرنج وعلى رأسهم التجار الإيطاليين الذين يفدون على مصر إهتماماً كبيراً فى وثائقه . فنراه يحدثنا بإسهاب وتفصيل عن ألقابهم التى اصطلح عليها لمكاتباتهم عن الأبواب الشريفة بمصر وتكشف هذه الألقاب عن المكانة التى كان يتمتع بها أولئك التجار من ناحية والصفات الواجب توافرها فيهم من ناحية أخرى . فهم الرسل والسفار بين الملوك والقادة و الحكام ، وهم المصلحون بين القوم ، وهم المؤتمنون على الأسرار . أما الصفات الواجب توافرها فيهم فهى ، فى المرتبة الأولى : الصدق والأمانة ، والإخلاص والإستقامة ، والثقة ، وحسن السمعة ، وكتمان السر ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة .

فمن ألقابهم التى أشار إليها صاحب «صبح الأعشى» «السفيرى» نسبة إلى السفير ، وذلك لسفارة التاجر منهم بين الملوك وتردده فى الممالك لجلب الجوارى والمماليك ونحو ذلك. (١) ويلقب الواحد منهم «الصدر» لتصدره فى المجالس ، وهو أيضا «الصدرى» نسبة إلى الصدر للمبالغة (٢) . وهو «المقرب» لأنه مقرب عند الملوك ومن فى معناهم و «المقربى» نسبة إليه للمبالغة . وهو كذلك «المنتخب» و«المختار» ، وهو «المؤتمن» لأنه يؤتمن على المالك والجوارى فى السفر وعلى أخبار الممالك وأحوالها فلا يفشى أسرارها ، (٣) وهو «الأمين» لائتمانه على مايحمله من بضائع و«الأمينى» نسبة إليه للمبالغة . ويلقب أيضاً بـ «أوحد الأكابر» ، و«أوحد الكبراء» و«تاج الأمناء» و«ثقة الدول» وقد خص

---

(١) صبح الأعشى — جـ٦ — ص ١٥٩ .

(٢) صبح الأعشى — جـ٦ — ص ١٨ .

(٣) صبح الأعشى — جـ٦ — ص ٣٠ و ٣١ .

التجار بهذا اللقب الأخير لترددهم فى الدول والممالك. ويلقب به أيضا المترددون فى الرسائل بين الملوك. ومن ألقاب التجار أيضا ألقاب مثل : «جمال الأكابر» و«زين الأكابر» ، و«شرف الأصفياء المقربين» واللقب الأخير من ألقاب كبار التجار ، وكذلك «شرف الرؤساء فى العالمين» وفخر الأعيان» ، وفخر الرؤساء ، و«فخر الصدور» ، «ومجد الرؤساء» ، و«مجد الصدور» ؛ و«مقرب الحضرتين» إذا كان مترددا بين مملكتين ، ومقرب الدول وهذا اللقب الأخير أعم من سابقه وهو أيضا ناصح الملوك والسلاطين » (١) . ومن بين ألقابه «المحتشم » ويذكر صاحب «صبح الأعشى» أنه من الألقاب التى أصطلح عليها لتجار الفرنج بالذات ، والمقصود بذلك الرئيس الذى له خدم وحشم (٢) .

وإذ كانت وثائق «صبح لأعشى» قد أمدتنا بمادة وفيرة فى هذه الناحية تعبر عن وجهه نظر كاتب مصرى عاش فى أو خر العصر الوسيط ، فهناك من الجانب الآخر وثيقة باللاتينية ترجع إلى نفس الوقت تقريبا كتبها أحد التجار الإيطاليين عنوانها «التاجر» تعزز ما جاء فى كتاب القلقشندى . وتعاصر الوثيقة المذكورة سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين وأنتهاء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، أى أنها تعاصر نهاية العصر الوسيط بفسلفته ومثله وتقاليده المعروفة ، وبداية عصر النهضة بمفاهيمه ومبادئه الجديدة المغايرة . إذ تغير وضع التجار كثيراً عما كان عليه من قبل ، وتحسن مركزهم تحسناً ملموساً

(١) أنظر صبح الأعشى — جـ٦ — ص ١٠ و ١٣ و ٣٨ و ٣٩ و ٤١ و ٤٢ و ٥٢ و ٥٥ و٥٦ و ٦٢ و ٦٨ و ٦٩ و ٧١ و ٧٣ .

(٢) صبح الأعشى — جـ٦ — ص ٨٣ . وقد ذكر القلقشندى أن الألقاب السابقة تطلق على التجار بصفة عامة ومن بينهم تجار الفرنج بطبيعة الحال ، اللهم إلا إذا حدد التجار الفرنج . وعلى هذا فالألقاب المذكورة تنسحب على تجار الجمهوريات البحرية الأيطالية كالبندقية وجنوة وبيزة ، الذين كانوا يتعاملون مع مصر مثلما تنطبق على غيرهم من التجار .

خلال الأربعمائة سنة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر : أكثر مما طرأ على أحوالهم من تغيير فى القرون التالية . وغنى عن البيان أن من أهم مظاهر العصر الوسيط المتأخر هو قيام طبقة التجار التى كان التجار الإيطاليون طليعتها ، واحتلال هذه الطبقة الجديدة مكانة مرموقة فى المجتمع مما جعلها تسيطر على اللوردات الإقطاعيين فى الغرب ، وتشكل المجتمع هناك تشكيلا يختلف تماماً عما كان سائداً من قبل .

وتتعرض هذه الوثيقة الهامة للتاجر ومهنته ، وهى تدعم ماجاء فى وثائق «صبح الأعشى» وتسد فى نفس الوقت الفجوات التى لم ترد بها . يذكر الكاتب الإيطالى أن التاجر يجب أن يكون مستعداً للتضحية بكل شىء فى سبيل الصالح العام ، مبينا أن ما أصابته الجمهوريات الإيطالية من تقدم ورخاء إنما يرجع يرجع الفضل فيه إلى التجارة . ذلك أن التجارة تؤدى إلى تلبية الاحتياجات المتبادلة بين المدن والبلدان . ويقوم التجار بدور هام فى هذا الشأن . فهم الذين يجلبون معهم فى رحلاتهم وأسفارهم كميات وافرة من العملات والجوهرات ومختلف أنواع المعادن كالذهب والفضة وهم الذين يهيئون سبل العيش والرزق للفقراء والمعوزين . كذلك يؤدى تصديرهم للبضائع واستيرادهم لها إلى أزدياد حصيلة الفوائد والرسوم الجمركية التى تقوم الجمهوريات المشتغلة بالتجارة بجبايتها ، فتمتلىء خزائنها بالمال ، وتنتعش أحوالها . وإذا كان للتجارة مزاياها فهناك صفات يجب توافرها فى التاجر ، من أهمها حسن التدبير ، والاقتصاد دون تقتير أو تبذير ، والثبات ، والاعتدال ، والاستقامة والإخلاص . فكل هذا يساعد على إنماء ثروتهم وتحسين أحوالهم . يضاف إلى ماتقدم أن التاجر يجب أن يتعاون بإخلاص مع من يتعامل معهم فى حياته الخاصة والعامة . فى المجال الخاص يجب أن يرتبط بأسرة شريفة فى حياة

مستمرة مثمرة . وفى المجال العام يجب أن يتعاون تعاونا صادقا مع غيره من أرباب المهن والحرف ، ومع سادة المجتمع من رجال الدنيا والدين . ويشترط فى التاجر أن يكون مثقفا صالحا . فالتاجر المثقف الصالح يفد عليه الجميع من كل مكان لرؤيته والتعرف عليه والتحدث معه والاستماع إليه والإفادة منه ، طالما هم بحاجة إليه وإلى خبراته التى اكتسبها من أسفاره ومن ممارسته للتجارة . وفى ختام الوثيقة يشير إلى السمعة الطيبة والسيرة الحسنة والثقة الكبيرة التى يجب أن يتمتع بها التاجر فى عمله وفى علاقاته بالآخرين . ويقول إن إيصالا عاديا لأحد التجار الموثوق بهم يعتبر إيصالا قانونيا معترفا به دون أى شهود أو إثباتات ، فى حين تنعدم الثقة فى أى شخص آخر مهما كانت رتبته ما لم يكن هناك ضمانات وتحوطات كافية . وحتى يحافظ التاجر على هذا المركز الرفيع الذى يتمتع به يجب أن يخلص نفسه مما لايليق بكرامته وشرف مهنته . فيكون جادا فى حديثه ، متزنا فى خطواته ، محافظا على شرفه معتدلا فى تصرفاته ، حسنا فى سيرته . (١)

ولمتسائل أن يقول : هل كانت هذه المثل العليا فى ميدان التجارة والتى أشار إليها كل من القلقشندى والكاتب الإيطالى تراعى على طول الخط ؟ الواقع أنها كثيرا ما كانت تنتهك ، مما يكشف عن الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق فى مجتمع العصور الوسطى . لقد سبق الكاتبين المسلم والمسيحى ، واعظ من الرهبان الفرنسسكان عاش فى القرن الثالث عشر يدعى برتولد أوف ريجنسبورج Berthold of Regensburg وتحدث فى إحدى

(١) أنظر الترجمة الانجليزية للوثيقة المذكورة فى كتاب Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History (New York, 1959), 184—6; Lopez & Raymond (trans).,Medieval Trade in the Mediterranean World, 416—8.

عظاته عن أهمية الثقة والسمعة الطيبة فى التجارة ، وضرورة تمسك التجار بالقيم والمثل العليا من حيث الأمانة وعدم الغش ومراعاة الذمة والضمير فى عملهم . ثم يقول إن هذه المثل لم تكن تراعى تماماً . ويتحدث عن الوسائل العديدة التى كان التجار يلجأون إليها لخداع الشعب المسكين والحصول على السلع بأرخص الأثمان . ويعلق أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو جورج جوردون كولتون G. G. Coulton على ذلك قائلا إن ما أكده رجنسبورج فى القرن الثالث عشر ، كان لايزال هو الوضع القائم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، اللذين انتهت بهما العصور الوسطى وبدأت تباشير عصر جديد (١) .

ولكن فى أواخر القرن الخامس عشر يحدث تغيير هام كانت له آثاره الخطيرة فى التاريخ والاقتصاد العالمى وقد ترك أثره فى العلاقات بين مماليك مصر والجمهوريات التجارية الإيطالية . ففى عام ١٤٨٩ م تمكن فاسكودى جاما Yasco da Gama البرتغالى من تطويق رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول طرف أفريقيه الجنوبى فى طريقه إلى الهند . ولقد أدى اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجارى الجديد من ناحية إفريقية إلى نزعاج المماليك الجراكسة (٢) فى مصر وضياع الثروة الهائلة التى كانوا يجنونها من وراء التجارة مع العالم الخارجى بصفة عامة ومع الجمهوريات البحرية الإيطالية بخاصة . وقاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم دون جدوى ، إذ كان الزمام قد أفلت من أيديهم ولم يعد من الممكن إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء

---

(١) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ط . ثانية — ص ١٩٧ — ١٩٩ و ٢١٣ — ٢١٤ .

(٢) حكم المماليك الجراكسة من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٩٢٣ هـ (١٣٨٢ — ١٥١٧ م) .

وقد ترتبت على ذلك نتائج بالغة الأهمية من حيث ضعف المماليك فى مصر إلى أن انتهى الأمر بزوال حكمهم بعد انتقال التجارة من حوض البحر المتوسط والدول المحيطة بشواطئه إلى المحيط الغربى وأممه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ أوجدت الثروة الفرصة أمام التجار الإيطاليين والأغنياء لتشجيع العلوم والآداب والفنون ، مما عجل بزوال آخر آثار العصر الوسيط ومهد لظهور عصر النهضة فى التاريخ الأوروبى الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة (١)

---

(١) La Monte, J., The World of the Middle Ages (New York, 1949), 732; Painter, S., A History of the Middle Ages : 284—1500 (London, 1966), 477—8; Mackie, J. D., The Earlier Tudors: 1485—1558 (Oxford,1966), 4, 224; Bailly, A., La Sérénissime République de Venise (Paris, 1946), 167—70.

البحث الرابع
نقط التلاقى والصراع
بين أوروبا العصور الوسطى والشرق
(القرن ١٠ - ١٥ م)

تأليف

ياروسلاف سيزار — جوزيف فوزار

ترجمة
وتقديم وتعليق
جوزيف نسيم يوسف

نشرت هذه الدراسة فى مجلة «عالم الفكر» - المجلد العاشر - العدد الأول
(أبريل - مايو - يونيو ١٩٧٩) - الكويت ١٩٧٩ - ص ٢٣٣ - ٢٤٨

هذه ترجمة المقال التالى :

Cesar, Jaroslav & Vozar, Jozef,

Contact and Conflict between the Medieval Europe and the Orient (10th - 15th Centuries), in XIV International Congress of Historical Sciences, Sanfrancisco, August, 22—29, 1975, pp. 1—16.

مع التقديم له والتعليق عليه .

كلمة المترجم

عنوان هذه الدراسة الجادة القيمة هو :

«نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ — ١٥م) » . وقد ألقيت باللغة الانجليزية فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للعلوم التاريخية والذى عقد بمدينة سان فرنسيسكو فى الفترة الواقعة من ٢٢ إلى ٢٩ أغسطس ١٩٧٥ . وقام بأعدادها العالمان التشيكوسلوفاكيان ياروسلاف سيزار وجوزيف فوزار . أما الفترة الزمنية التى تتناولها فهى العصور الوسطى الحقيقية التى تشغل القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر الميلاديــة ، وأخريات العصور الوسطى التى تشغل القرون الثلاثة التالية لها .

والبحث يتناول ثلاثة عناصر رئيسية :

أولها مدى معرفة كل من أوروبا العصور الوسطى والشرق بالطرف الآخر خلال تلك الفترة من الزمن. ويمهد له الكاتبان بتعريف واضح لمفهوم «الشرق» « Orient » ومدلوله فى الحقبة الوسيطة من التاريخ من وجهة نظر الغرب الاوروبى ، ومن خلال مصادر العصور الوسطى الأوروبية ، فى وقت لم يكن قد تبلور فيه بعد هذا التميز الدقيق بين كل من الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى . ويخلصان إلى أن «الشرق» بالنسبة للغرب اللاتينى آنذاك أنما يمثل البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط ، إلى جانب البلاد الموغلة فيما وراء ذلك شرقا . وكان البحر المتوسط هو همزة الوصل بين أوروبا والشرق ، وإن كانت معرفة كل منهما بالآخر قد تباينت وأختلفت الظروف والزمان والمكان . وقد هيأت الدولة البيزنطية والمدن البحرية الايطالية وبعض جزر البحر المتوسط ، المناخ الملائم لتعرف كل منهما بالآخر .

ويشير الكاتبان فى العنصر الثانى إلى طرق المواصلات الرئيسية بين أوروبا والشرق آنذاك ، وفى مقدمتها البحر المتوسط والبحر الاسود ، بأعتبارهما من الشرايين الحيوية للمواصلات والاتصالات بين شتى العالم فى فترات السلم والحرب على السواء . هذا ، إلى جانب البحر الاحمر و المحيط الهندى وطرق التجارة البرية المعروفة داخل القارة الاوروبية وخارجها .

والعنصر الثالث والأخير من هذه الدراسة يعالج حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا والشرق خلال تلك القرون الستة التى ينتهى بنهايتها العصر الوسيط بكل أفكاره ومثله وفلسفته ، ويبدأ عصر جديد فى تاريخ البشرية بمفاهيم واوضاع جديدة مغايرة . ويصل الكاتبان إلى حقيقة تاريخية ، وهى أنه وجد نوع من توازن القوى بين العالمين الاسلامى والمسيحى ابان تلك الاعوام الستمائة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر للميلاد (من القرن الرابع إلى القرن التاسع للهجرة) ، وأن هذا التوازن فى القوى لم يسمح لأى منهما بتفوق مطلق على الطرف الآخر ، بحيث كان مركز الثقل يتأرجح بين كليهما وفقا لمقتضيات — الظروف والاحوال فى كلا العالمين من سياسة واجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها .

ولقد اقتضى الأمر نقل البحث إلى اللغة العربية اضافة عدد قليل جدا من العبارات الموجزة إلى المتن بقصد الايضاح أو التعريف . وتمييزا لها عن الأصل الانجليزى المترجم فقد وضعنا كل أضافة منها بين حاصرتين . كذلك ضمنا الترجمة فهرسا بعناصر البحث ومحتوياته ، وذيلناها ببعض التعليقات التى رأينا أن طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها .

* مدى معرفة كل من أوروبا العصور الوسطى والشرق بالطرف الآخر :

أن مفهوم الشرق «Orient» فى حد ذاته : مفهوم يفسر نفسه بنفسه إلى حد ما ويمكن تعريفه من وجهة نظر الفرد الاوروبى فقط . وبخاصة الأوروبى الغربى ، بأنه مايقع فى اتجاه الشرق . ولم يكن مألوفا بعد فى مصادر العصور الوسطى الأوروبية ذلك التمييز العميق الجذور الذى جاء فيما بعد بين كل من الشرق الادنى والشرق الاوسط والشرق الاقصى . والمقصود بالشرق الادنى حوض الليفانت : وهو الحوض الشرقى للبحر المتوسط والبلاد الاخرى الواقعة إلى الشرق منه . بينما يقصد بالشرق الاوسط الأراضى الممتدة من وادى نهرى دجلة والفرات : فضلا عن المنطقة الممتدة من الهند إلى بورما وسيلان . أما الشرق الاقصى فيقصد به قبل كل شىء الصين واليابان ، كما يدخل فى نطاقه شرق سيبريا وجنوب شرق آسيا . ولايرجع ذلك : اطلاقا ، إلى نقص فى المعرفة الجغرافية . لقد كان الشرق بالنسبة لاوروبا العصور الوسطى يمثل تلك البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط ، كما يمثل كل البلاد المتغلغلة فى اتجاه الشرق . ولم يقصد بهذا المصطلح ، فى معظم الاحوال ، العالم الاسلامى . فلم تدخل فى نطاقه ، عادة : كل من أسبانيا الاسلامية وشمال أفريقية : وذلك باستثناء مصر .

ولقد جرت الصلات المتبادلة بين اوروبا والشرق عبر البحر المتوسط فى العصور الوسطى على تقليد قديم ظل باقيا لم يتغير البتة . إذ حدد اتساع نطاق التجارة وازدياد كثافتها من ناحية ، ونمو العلاقات الشخصية من ناحية اخرى ، فى الحقيقة ، درجة المعرفة بالشرق . تلك المعرفة التى كانت شديدة التباين والاختلاف فى مختلف البلدان الاوروبية فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر الميلاديين (من القرن الرابع حتى القرن التاسع الهجرى) .

وكان لدى بيزنطة « Byzantium » ، إلى حد بعيد ، أفضل المعلومات فى هذا الخصوص ذلك أن الدولة البيزنطية كانت قد انغمست لقرون عديدة فى كفاح أو تعايش سلمى مع جيرانها العرب وغيرهم من المسلمين (١) .

كذلك كانت المدن الإيطالية ، وقليل غيرها من مدن البحر المتوسط ، قبل قيام الحركة الصليبية ، على معرفة تامة بأحوال الشرق الادنى من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية . وكان هذا امرا عاديا ومألوفا آنذاك . هذا ، بينما انتشرت الاساطير والروايات المحرفة عن الشرق فى اماكن اخرى فى غرب أوروبا ووسطها ، وبصفة خاصة ، مايتعلق بالثقافة والمسائل العقائدية . وقد ذاع فى بقية البلاد الأوروبية ، أيضا ، قدر لابأس به من المعرفة عن اقرب البلاد الاسلامية منها ، نتيجة الخبرات الشخصية التى اكتسبها عشرات الآلاف من الصليبيين من شرق البحر المتوسط .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كانت معرفة البلاد الاسلامية بالشعوب والبلاد الاوروبية تتميز ببعض السمات المشابهة . ذلك أن احسن المعلومات كانت ميسورة من اقرب الجيران ، والمقصود بذلك الامبراطورية البيزنطية وجزر البحر المتوسط . وكان يطلق (فى المصادر العربية القديمة) على معظم أهل الغرب الاوروبى مصطلح «الفرنج» أو «الفرنجة» (٢) بوجه عام . ونجد

---

(١) حول العلاقات بين الدولة البيزنطية والعالم الاسلامى ، أنظر مقال أ. أ. فاز يليـف A. A. Vasiljev المعنون «بيزنطة والاسلام» Byzantium and Islam والمنشور فى كتاب: Baynes, N.H. and Moss, H.St. L.B. (eds.), Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1953, 308 ff.

(٢) الفرنجة ، أصلا ، أحد الاجناس الجرمانية التى كانت تعيش فى أواسط آسيا قبل انهيار الامبراطورية الرومانية . وعندما اشتد الضغط عليهم من الشرق، عبروا نهر الراين =

ايضا (فى تلك المنابع والاصول) بعض المعرفة بتاريخ أوروبا والاجناس التى عاشت فيها ، ونضرب مثلا لذلك بالبابوات (١) . وكان العرب فيما بين القرنين

=واستقروا فى غالة ، ونجحوا فى أواخر القرن الخامس فى تأسيس ملكية ثابتة الدعائم استقروا فى ظلها . وأخذوا فى مد نفوذهم حتى أصبحت غالة بأكلها تحت سيطرتهم. ومن أهم ملوكهم كلوفيس Clovis (٤٨١ - ٥١١) الذى يعتبر فى الواقع مؤسس دولتهم التى أستمرت حتى سنة ٧٥١ م أيام آخر ملوكهم الضعاف وهو شيلدريك الثالث Childeric . وكان هذا بداية دولة جديدة عرفت باسم الدولة الكارولنجية نسبة إلى مؤسسها شارلمان أو شارل العظيم . أنظر عن ذلك :

LaMonte, J.L., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 46 f. ; Painter, S., A History of the Middle Ages, London, 1966, 20 ff.

وجدير بالذكر أن المصادر العربية التى ترجع إلى الفترة الوسيطة من التاريخ ، والشرقية منها على وجه الخصوص ، تطلق على اللاتين الغربيين بصفة عامة لفظ «الفرنج» أو «طائفة الفرنج» سواء كانوا من الفرنجة أو من غيرهم من العناصر المتبربرة . كما تطلق على عناصرهم واجناسهم المختلفة عبارة «أمم الفرنج» أو «ممالك الفرنج» وعلى حكامهم «ملوك الفرنج» . أنظر على سبيل المثال : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ١٣٦ و ١٦٤ و ١٦٥ الخ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبى (مصر ١٣١٧ هـ) ص ١٥١ و ١٥٣ و ١٦٩ الخ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا جـ٣ (القاهرة ١٩١٤) ص ٤٣٧ ، جـ٥ (القاهرة ١٩١٥) ص ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٤٠٩ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤٨٥ وجـ٨ (القاهرة ١٩١٥) ص ٣٤ و ٣٦ و ٣٨ وجـ٩ (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٥٠ وجـ١٤ (القاهرة ١٩١٨) ص ٢٤ . وهذا يعنى أن مفهوم كلمة «الفرنج» فى تلك المصادر ينسحب على جميع أهل الغرب اللاتينى ، وأن كان هذا لايمنع أن تلك المصادر كانت فى بعض الاحيان تحدد العنصر الذى تتحدث عنه . أنظر بهذا الخصوص :

Joinville & Villehardouin, Chronicles of the Crusades, trans. with an introduction by M.R.B. Shaw, London, 1963, 360.

(١) تزودنا وثائق «صبح الاعشى» للقلقشندى بمعلومات طيبة عن روما فى العصور الوسطى وموقفها واهلها ، والبابا الرومانى وتسميته والقابه ورسم المكاتبة إليه عن الديار المصرية . فهو «البابا الجليل ، القديس ، الرومانى ، الخاشع ، العامل ، بابا رومية ، عظيم الملة المسيحية ، قدوة الطائفة العيسوية ، ملك ملوك النصرانية الخ» صبح الاعشى=

التاسع والحادى عشر الميلاديين (فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين) على معرفة اوسع بالجزء الشرقى من أوروبا ، حيث ميزوا بين كل من الروس والسلاف القاطنين فى وسط أوروبا وبين غيرهم من الشعوب . وكيفما كان الامر ، فقد كانت معلوماتهم عن شبه جزيرة البلقان اقل من ذلك ، باستثناء البلغار الذين شكلوا هم وبيزنطة بالنسبة للعرب عدوا مشتركا . ومن المؤكد أنه بدا واضحا أن العالم الاسلامى اعتبر البيزنطيين ، دون سواهم ، شركاء يقفون معه على قدم المساواة فيما يتعلق بالمستوى الثقافى ، على أنهم برابرة . ولم يطرأ على هذا التقييم تغيير يذكر حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية (فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى / أواخر القرن السابع الهجرى) (١).

ولكن الذى تغير فعلا هو حجم ومقدار المعرفة التى حصل عليها المسلمون

=جـ٨ ص ٤٢.وهو «قائم فى النصارى مقام الخليفة ، بل به عندهم يناط التحليل والتحريم ، وإليه مرجعهم فى أمر دياناتهم» جـ٥ ص ٤٧٢ . راجع أيضا نفس الجزء ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ و جـ٦ (القاهرة ١٩١٥) ص ١٣ ، ٧٣ ، ٧٩ وجـ١٤ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(١) وذلك عندما استولى الاشرف خليل ابن السلطان المملوكى المنصور قلاوون على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة على الساحل الشامى . وجدير بالذكر أن الفكرة الصليبية عاشت فى أذهان أهل الغرب بعد ذلك التاريخ نحو قرن من الزمان ؛ ولم تفقد صفاتها الحقيقية إلا بعد القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) . وفى خلال هذه الفترة وضعت المشروعات الضخمة ، والمؤلفات العديدة لغزو الشرق وحصار مصر اقتصاديا . كما قامت عدة حملات صليبية كانت آخرها وأوسعها نطاقا هى حملة نيكوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م التى قامت بها أوروبا بأسرها لا لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب امبراطورية المماليك أيضا . وانتهت الحملة بهزيمة الصليبيين امام قوات السلطات بايزيد الأول حتى انه لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة . انظر .

Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934; Idem, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 435 ff., 480.

المثقفون عن غرب اوروبا وشرقها اعتبارا من القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) فصاعدا. وان تضاؤل معلوماتهم عن شعوب شرق اوروبا عندما كانت تحت سيطرة المغول ، قابله من الجانب الاخر قدر لابأس به من المعلومات الطبية من الاجزاء الاخرى من القارة الاوروبية ، لاسيما المدن البحرية الواقعة فى غرب وجنوب أوروبا ، بما يفوق فى أهميته معلوماتهم عن الشرق الاوروبى وفى بواكير القرن الرابع عشر الميلادى (بدايات القرن الثامن الهجرى) وضع المؤرخ الفارسى رشيد الدين (١) مؤلفا ، ضمن مؤلفاته

(١) هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة ابى الخير بن موفق الدولة على المتطبب الهمذانى ، والمعروف بالرشيد الطبيب . ولد حوالى سنة ١٢٤٧ ومات مقتولا سنة ١٣١٨ وقد ناهز السبعين من عمره . وهو من أشهر مؤرخى الفرس . وعلى الرغم من معرفته الطبية الواسعة ، فقد اشتهر بكونه رجل دولة ممتاز . وقد تقلد ارفع المناصب فى العهد الايلخانى المغولى فى أوائل القرن الثامن الهجرى (أوائل القرن الرابع عشر الميلادى) ، وأصبح مؤرخا للبلاط فىعهدغازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤(. ولرشيد الدين عدة مؤلفات أشهرها على الاطلاق كتابه «جامع التواريخ» . وهو أساسا عبارة عن تاريخ للمغول بدأ فى تدوينه استجابة لطلب غازان محمود خان ، ولذا يعرف الكتاب أيضا باسم «تاريخى غازانى» . وبعد موت غازان أمر خليفته أو لجايتو المعروف باسم محمد خدابنده باستكماله ليصبح تاريخا عاما للعالم الاسلامى . ووفقا للخطة الأصلية كان المفروض أن يتكون الكتا من قسمين رئيسيين : الأول عن تاريخ المغول والثانى عن التاريخ العام بالاضافة إلى عدة ملاحق . ولكن عندما فرغ من كتابته عام ١٣١٠/١٣١١ م ، كان يشتمل على جزئين: الأول وقد تناول فيه تاريخ القبائل التركية والمغولية مع الاشارة إلى الاساطير المتعلقة بهم . وكذلك عصر جنكيز خان مع الاشارة إلى اسلافه وخلفائه حتى غازان خان . أما الجزء الثانى فيحتوى على مقدمة منذ بداية الخليقة ، ثم ملوك القدامى والاسرات الحاكمة فى فارس ، وتاريخ العالم الاسلامى حتى سنة ١٢٥٨ . كذلك تكلم عند الهند والصين وتناول تاريخ الفرنجة فى غرب أوروبا . للمزيد من المعلومات أنظر : دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية فى أربعة أجزاء - طبع ليدن ولندن ١٩١٣ - ١٩٣٤) جـ ٣ مادة : رشيد الدين - طبيب . وعن سيرته ومصنفاته ومنهجه التاريخى واقوال المؤرخين فيه والنقد الموجه إليه ، أنظر عباس العزاوى : التعريف بالمؤرخين - جـ ١ : فى عهد المغول وأكثر كان - بغداد ١٩٥٧ - ص ١٣٨ - ١٥٧ .

الاخرى ، عن تاريخ الفرنجة ، أو بالأحرى عن غرب أوروبا ؛ وذلك على غرر «حولية العالم» التى كتبها مارتينوس بولونوس Martinus Polonus هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت أوروبا فى ذلك الوقت على معرفة بأعمال الاطباء والعلماء والفلاسفة العرب عن طريق الترجمات اللاتينية لها (١) ولكنها لم تكن تعرف إلا القليل عن تاريخ العرب أنفسهم . كذلك أطلع الاوروبيون على العديد من كتب التصوف والقصص الاسلامى . مثال ذلك الترجمات المتعلقة بالاسراء والمعراج فى النسخة الايطالية المترجمة لرسالة

---

(١) أثر المدنية العربية على الحضارة الاوروبية واضح لا يمكن انكاره ، والمؤثرات التى تركها العرب فى حضارة الغرب كثيرة متعددة متنوعة شملت الآداب والعلوم والفنون وشتى نواحى العلم والمعرفة كالفلسفة والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب . ومن المراجع الحديثة التى عالجت هذه النواحى ما يلى : عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الاوروبية – ط. رابعة – القاهرة ١٩٦٥ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المدنية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الاوروبية – القاهرة ١٩٦٣ ؛ قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب – القاهرة ١٩٦٠ ؛ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوروبية فى العصر الوسيط – القاهرة ١٩٥٧ . ومن المراجع المعربة : ميتز (آدم) : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى – جزءان – ترجمة محمد عبد الهادى ابو ريده ؛ ارنولد (توماس) وجيوم (ألفرد) : تراث الاسلام – ترجمة دكتور يعقوب أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى – ترجمة فؤاد حسنين على – القاهرة ١٩٤٦ ؛ جرونيباوم (جوستاف) : حضارة الاسلام – ترجمة عبد العزيز جاويد – القاهرة ١٩٥٦ ؛ لوبون (جوستاف) : حضارة العرب – نقلة إلى العربية محمد عادل زعيتر – القاهرة ١٩٤٥ . ومن المراجع الاجنبية :

Ball, W.R., A Short Account of the History of Mathematics, London, 1927; Browne, E.G. Arabian Medicine, Cambridge, (1921 Dampier, W. C., A Short History of Science, Cambridge, 1949; Delambre, M., Historie de l'Astronomie du Moyen Age, Paris, 1819; Draper, J.W., A History of the Intellectual Development of Europe, 2 vols., London, 1864; Taylor, H.O,. The Mediaeval Mind, 2 vols., London, 1930.

الغفران Libro della Scala (لأبى العلاء المعرى) التى يعتقد أن دانتى اليجيرى (١) Dante Alighieri قد تأثر بها . ولم يكن ثمة حد فاصل بين ثقافة اوروبا المسيحية والثقافية الاسلامية ، بالرغم من اوجه الخلاف الدينية والثقافية بينهما ، وبالرغم من وجهات النظر المشوشة من كلا الجانبين . وكانت الخلفية التى تقبلها الجانبان ، وعلى الأخص فيما يتعلق بعلم الجدل ، ذات أساس واحد مشترك بينهما ، هو الهيلينية (٢) والتوحيد بالله . ولقد نشأت بين الثقافتين علاقة

---

(١) دانتى اليجييرى (١٢٦٥ - ١٣٢١) شاعر فلونسى توفى ابواه وهو ما يزال صغيرا . ولسنا نعرف الكثير عن سنى حياته الاولى . وكل ما نعرفه ان وطأة الحرمان التى قاساها فى الصغر تركت أثرها فى مؤلفاته ومنها كتابه «الحياة الجديدة» الذى خلد فيه قصة حبه لبياتريس . وقد لازمه الحزن منذ وفاتها سنة ١٢٩٠ م ، فانكب على الدراسة والاطلاع ، وتشبع بفلسفة توما الاكوينى وتاريخ اوروسيوس وملاحم فرجيل وستاتيوس . وتعتبر «الكوميديا الالهية» هى أروع ما خلد دانتى ، تلك الملحمة التى وضعها شعرا باللغة الايطالية المعاصرة بدلا من اللاتينية ، والتى لخص فيها ما وصل اليه خيال العصر الوسيط ، كما بذر فيها أيضا بذور الفكر الحديث . لذا يعتبره البعض بداية لحركة النهضة العلمية التى كانت بشيرا بنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . انظر عن ذلك :

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance, trans. by S.G.C. Middlemore, London, 1944, 49f.; Coulton, G.G., Medieval Panorama, New York, 1955, 207 ff.; Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background, Cambridge, 1961, 55 ff., 74 ff.

وحول التأثير الاسلامى فى الكوميديا الالهية ، انظر :

Palacios, M.A., La escatologia musulmana en la Divina Comedia, Madrid, 1919; English trans by Sunderland, London, 1926.

(٢) نسبة إلى العالم الهلينى ، وهو اصطلاح يطلق على العالم اليونانى وحضارته منذ الغزو الدورى حتى الاسكندر الاكبر ، اى اعتبارا من القرن التاسع قبل الميلاد حتى سنة ٣٣٦ ق.م. اما ما بعد الاسكندر فيطلق عليه العالم الهلينسى الذى شمل بلاد اليونان والممالك الشرقية بعد فتح الاسكندر لها . انظر عن ذلك كتاب :

Toynbee, A., Helleniam; The History of Civilization, London ,1959.

وله ترجمة بالعربية تحت عنوان توينبى (أ.) : تاريخ الحضارة الهلينية – ترجمة رمزى عبده جرجس – مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجه – القاهرة ١٩٦٣ .

اوثق من تلك العلاقة التى كانت قائمة ، مثلا ، بين الاسلام وبين كل من الثقافة الهندية والثقافة الصينية .

واستمدت اوروبا العصور الوسطى معرفتها بتلك الاقاليم والامبراطوريات الشاسعة الواقعة شرق العالم الاسلامى ، اى فيما وراء نهر السند ، منذ الأزمنة القديمة بصفة عامة . وعلى أية حال ، كانت اى معلومات محددة عن شبه القارة الهندية تستقى من روايات الكتاب الاغريق والرومان القدامى ، التى تناقلها المصنفون المتعاقبون زمن انهيار الامبراطورية الرومانية (اعتبارمن القرن الثالث وحتى أواخر القرن الخامس الميلادى) ، واخذها عنهم كتاب العصور الوسطى وبامتزاج خبرات شهود العيان بالروايات التى يصعب تصديقها الموجودة فى الكتابات القديمة ، كانت الحصيلة أن عناصر الخرافة والغموض ظلت سائدة أكثر من غيرها حتى زمن متأخر فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) . وقد تضمنت مؤلفات العرب عن الهند ، هى الأخرى كثيرا من القصص الخرافية والحكايات العجيبة . وكان الانجيل مصدرا آخر أستقت منه اوروبا العصور الوسطى معرفتها عن بلاد الهند ، وبصفة خاصة قصة المجوس الثلاثة ، فضلا عن بعض الاساطير التى تعتمد على ماجاء فى «العهدالجديد» ، والتى تروى تجارب واحد او اكثر من الرسل فى الهند : وفى هذا المناخ انبثقت اسطورة تعتبر من اكثر اساطير العصور الوسطى غموضا وابهاما ، الا وهى اسطورة امبراطورية الكاهن يوحنا (١) Prester John

---

(١) ترتبط باسم الكاهن يوحنا والمملكة التى كان يحكمها كثير من اساطير القرون الوسطى التى جعلت الغرب اللاتينى يعتقد أن التتار كانوا يدينون بالمسيحية بينما كان الواقع خلاف ذلك . وقد أشار إلى شخصيته كثير من المؤرخين الغربيين القدامى الذين عاشوا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشرللميلاد ،من بينهم وليم الصورى . Guillaume de Tyr ،والبريكوس Albericus وفنسان دى بوفيه Vincent de Beauvais وماربنو سناوتو Marino Sanuto وجان دى =

المسيحية التى ذاعت طوال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) واستمرت بعد ذلك فترة طويلة من الزمن . وكم كانت رغبة الملوك المسيحيين (فى الغرب) فى التودد إلى امبراطورية الكاهن يوحنا واكتسابها كحليف لهم فى صراعهم ضد العرب والاتراك .

واما عن شرق اوروبا ، وفى المقام الاول : الاراضى الروسية الشاسعة فقد اتخذ حيال الشرق موقفا يختلف عن ذلك الذى اتخذه كل من الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية . فعلى النقيض من نمو وتطور الصلات الحية المباشرة بين العالم العربى وبين كل من بيزنطة ودولة كييف فى القرن العاشر وبواكير القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى) ، حدث تغيير مفاجىء يعزى إلى اغارات عناصر متنوعة من الأتراك الرحل وإلى الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى)

=جوانفيل .Jean de Joinville. ومن الأخطاء الشائعة تلك التى تذهب بأن امبراطورية الكاهن يوحنا هى بعينها امبراطورية الحبشة فى افريقية ، والحقيقة أن مملكته كانت فى آسيا . وكيفما كان الامر ، ليس من السهل أن نحدد بصفة قاطعة حقيقة هذا الشخص والمقاطعات الاسيوية التى كان يحكمها والوقت الذى عاش فيه . انظر التفاصيل فى : ارنولد (ت .): الدعوة إلى الاسلام — ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين (القاهرة ١٩٤٧)ص ١٩٢ ؛ حسن ابراهيم حسن (دكتور) انتشار الاسلام بين المغول والتتار (القاهرة ١٩٣٣) ص ٢٨ ؛ لويس شيخو : النصرانية بين قدماء الاتراك والمغول — انظر مجلة المشرق — السنة ١٦ العدد ١٠ (بيروت ١٩١٣) ص ٧٦٣ . راجع أيضا :

Joinville, J. de, Histoire de Saint Louis. Texte original de XIVe siécle, accompagné d'une traduction en Françai, moderne par M. Natàlis de Wàilly, Paris, 1874, 260, n. 474-1; idem Memior of Louis IX king of France An English translation by Johnes of Hafod, London, 1848, 477—8, n. 3; Joinville & Villeharduin, Chroniéles of the Crusàdes (trans. Shaw), 284 ff. ; Ross, E., Prester John and the Empire of Ethiopia, in "Travel and Travellers of the Middle Ages, ed. by A. Newton, London, 1930, 174-194.

لذا بدأ الشرق بالنسبة للروس وغيرهم من شعوب شرق اوروبا ، قبل اى شيء آخر ، بمثابة خطر دائم يهدد مجتمعهم وثقافتهم ، بسبب القوة العسكرية المدمرة لأولئك الغزاة الرحل . وعندما هاجم المغول الاراضى الروسية لاول مرة فى عام ١٢٢٠ م ، لم يكن أحد تقريبا يعرف من هم ولا من اين اتوا ؛ وعلى اية حال ، لم يمض عشرون عاما حتى اصبحوا معروفين تماما فى روسيا وبولندا وهنغاريا وفى غيرها من البلاد الاوروبية وقتذاك . أما عن المغول فقد حاول قادة جيشهم التعرف على البلاد والشعوب التى كانت هدفا لحملاتهم وكانت «القبيلة الذهبية» (١) Golden Horde التى تكونت فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) نتيجة الغزو المغولى التتارى (٢) ، عبارة عن تشكيل واهن مفكك أضطرت فيه العناصر المتنافرة غير المتجانسة ان تعيش سويا وان يؤثر كل عنصر منها على الآخر .

---

(١) القبيلة الذهبية فرع من المغول اتجه إلى روسيا وبلغاريا وأسس امبراطورية استمرت حتى أوائل القرن العاشر الهجرى (بدايات القرن السادس عشر الميلادى) . انظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية فى أربعة أجزاء – طبع ليدن ولندن ١٩١٣ – ١٩٣٤) مادة قبجاك ومادة مغول .

(٢) اختلفت آراء المؤرخين فيما يتعلق بأصل كل من المغول والتتار ، والفرق بين اللفظين ، والتطورات التى داخلت كلا منهما . ويكاد يجمع الباحثون على أن المغول قد تسلطوا على البلادقبل التتار بفتوحات خانهم الاعظم المسمى جنكيز . ولكن عندما دخل التتار بكثرة جيوش هذا الخان وأصبحت لهم اليد الطولى فى الفتوحات التالية ، تسلطوا بدورهم على المغول واشتهروا دونهم . للمزيد من المعلومات انظر : اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار – ج ١ – القاهرة ١٣١٢ هـ – ص ٢٤١ – ٢٤٢ ح ١ ؛ الرمزى : تلفين الاخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار – ج ١ – أورنبرغ ١٩٠٨ – ص ٣٥٢ راجع أيضا :

Lane-Poole, St., The Mohammâdan Dynasties, Paris, 1925, 200.

لقد كان الغزو المغولى (١) لشرق اوروبا ووسطها ، فى كثير من النواحى ، نقطة تحول فى العلاقات بين اوروبا العصور الوسطى والشرق الاقصى الآسيوى . ولم تستطع الاساطير والخرافات ان تقف على قدم المساواة امام الاصول الموثوق بها . ففيما بين عامى ١٢٤٥ و ١٢٥٠ أرسل البابا الرومانى (أنوسنت الرابع) والملك الفرنسى (لويس التاسع) (٢) إلى خان المغول وفودا دبلوماسية عديدة ، منها بعثة جيوفانى دى بيان كاربينو— Giovan ni de Pain Carpino. وبعثة وليم أوف روبروك William of Rubruquis or Ruysbroek. وكان واضحا ، مرة اخرى ، ان جمع المعلومات عن امبراطورية الكاهن يوحنا المسيحية المزعومة فى آسيا كان من بين دوافع قيامهم برحلاتهم تلك

(١) عرفوا فى المصادر الاوروبية التى ترجع إلى تلك الفترة من الزمن ، من لاتينية وفرنسية قديمة ، باسم "Tartarius". انظر عن ذلك :

Joinville, Histoire de Saint Louis (ed. de Wailly), 74, 258—270; Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ed. R.H.C. - H. Occ., t. II, Paris, 1859, 441; Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscript de Rothelin, ed. R.H.C. - H. Occ., t. II, 569 624; Nangis, G, de, Vita Sancti Ludovici regis franciae, ed. R. H.G.F., t. XX, 362; Beauvàis, V. de, Selecta especulo Histuriali Bellovacensis, ed. R.H.G.F., t. XX, 75.

(٢) جلس البابا انوسنت الرابع على الكرسى البابوى فيما بين عامى ١٢٤٣ و ١٢٥٤ م ، بينما تربع لويس التاسع على عرش فرنسا من سنة ١٢٢٦ إلى سنة ١٧٢٠ م . وقد تناولت فى شىء من التفصيل والتحليل السفارات المتبادلة بينها وبين المغول فى الشرق الأقصى فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى «أواسط القرن السابع الهجرى» والنتائج التى ترتبت عليها ، فى كتابى :

العدوان الصليبى على مصر – الاسكندرية ١٩٦٩ – ص ٦٨ – ٧٢ ؛ العدوان الصليبى على بلاد الشام – الاسكندرية ١٩٨١ – ص ٢٥٣ – ٢٨٨ . ومن المؤرخين الغربيين الحديثين الذين تخصصوا فى الكتابة فى هذا الموضوع :

C. L. Deñuignes, C.d'Ohsson, M. Dfl?eux, M. Vàlmont, p. Pelliot, H. Howor'h.

وقد نجح آل بولو البنادقة ، وعلى رأسهم ماركو بولو (١) ، بعد ذلك بعشرات السنين فى التوغل إلى مسافات ابعد داخل الصين ، كما عرفوا الهند وأندونيسيا وترك الرحالة المذكورون الذين قاموا برحلاتهم إلى الشرق الأقصى مذكرات مكتوبة سجلوا فيها التجارب التى مروا بها . وإلى جانب هؤلاء عاش أيضا العديد من التجار والمرسلين الاوروبيين فى بلاد الصين عشرات السنوات بموافقة الخان .

وكانت بعض العروض السياسية التى تقدم بها المبعوثون الاوروبيون إلى الحاكم المغولى غير عملية وسطحية وكان ذلك نتيجة قصور معرفة اوروبا عن مدى حجم القارة الآسيوية وكيفية تكوينها ، فضلا عن اسباب اخرى عديدة. ومع ذلك فإن الروايات المدونة التى خلفها الرحالة الدبلوماسيون والتجار فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى) رغم ماتضمنته من بعض المبالغات والاخطاء ، إلا أنها زودت أوروبا بفيض من المعلومات الهامة القيمة عن آسيا وقتذاك ، ولو أن المعاصرين وقتها قد شكوا فى صحتها . وكانت المسافة الشاسعة بين أوروبا وشرق آسيا فى ظل وسائل النقل المعروفة انذاك ، أمرا لايمكن التغلب عليه تقريبا سواء عن طريق البر او البحر ، حتى ان

---

(١) حول مغامرات آل بولو فى الشرق فى اخريات القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) ، انظر كولتون (ج.ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف - ط. ثانية - الاسكندرية ١٩٦٧ - ص ٢١٠ وما يليها راجع أيضا كتاب ايلين بور :

Power, E., Medieval People, London, 1954, 34—70.

هذا ، وقد ترجمت رحلات ماركوبولو إلى اللغات الاوروبية الحديثة ، ومن افضل طبعاتها :

Yule, H. (ed. & tr), The Book of Ser Marco Polo, the Venetian, 3rd ed. revised by H. Cordier, London, 1903; Komroff, M. (ed.), The Travels of Marco Polo, New York, 1926.

حتى أن الاتصالات بينهما ظلت لقرون عديدة تالية ، تتم فى أغلب الاحيان ، بشكل عفوى غير منتظم

طرق المواصلات الرئيسية بين اوروبا العصور الوسطى والشرق :

يعتبر الاستقرار الملحوظ فى طرق التجارة الرئيسية الذى ساعد على تبادل السلع والبضائع مثلما ساعد على تحركات الرحالة والجنود ، من أبرز سمات الاتصال بين كل من أوروبا وآسيا وأفريقية قبل عصر الاستكشافات الهائلة (فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى/أخريات القرن التاسع عشر الهجرى) (١) وكانت الطرق التقليدية البعيدة المسافات التى استخدمت فى العصور الوسطى ترجع ، فى معظم الاحيان ، إلى العصر القديم . ثم انها كانت تعبر عن تجارب وخبرات متراكمة لاجيال عديدة فى سبيل التغلب على الجبال والصحارى والأنهار والبحار . واعتمد مدى استخدام طرق التجارة المختلفة على امنها ، بالإضافة إلى ظروف أخرى عديدة تتعلق بتحسن الاوضاع السياسية فى الداخل والخارج . ومع ذلك ، لم يكن امرا عفويا ان ظلت الطرق الاساسية كما هى دون تغيير ، أو بعد ان طرأ عليها تغيير طفيف فحسب ، رغم العديد من العقبات والعراقيل التى لم تدم طويلا .

وكان البحر المتوسط وسواحله ، إلى حد بعيد ، اهم منطقة لمظاهر

---

(١) المقصود الاستكشافات الجغرافية ، ومن ابرزها اكتشاف كريستوفر كولومبس لامريكا سنة ١٤٩٢ ، ونجاح فاسكودى جاما البرتغالى سنة ١٤٩٨ فى تطويق رأس الرجاء الصالح بالالتفاف حول طرف افريقية الجنوبى فى الطريق إلى الهند وما ترتب على ذلك من آثار خطيرة على الاقتصاد العالمى – انظر عن ذلك :

Brinton, C. & others, A. History of Civilization, vol. I, New York, 1967, 542, 550 ff.

الاتصال والصراع المتبادل (بين أوروبا والشرق) . فلقد ظل قرونا طويلة سوقا للعالم المعروف وقتذاك ، ومركز الاتصال الرئيسى بين كل من اوروبا آوسيا وافريقية ، كذلك بدأ حوالى القرن العاشر الميلادى (حوالى القرن الرابع الهجرى) اخر عصر مزدهر للرخاء الاقتصادى والتجارى الهائل فى البحر المتوسط . وكانت هذه الفترة تتميز ، قبل اى شىء آخر ، بقيام الجمهوريات الايطالية فى البندقية وجنوة التى كان لها أعمق الأثر (على مجريات الامور والاحوال وقتها) . وكانت قد ظهرت قبلها بيزا وأمالفى وكثير غيرهما . وبدأت البندقية تزدهر ، على وجه الخصوص ، تحت رعاية بيزنطية ، وحصلت تدريجيا على أمتيازات هائلة اصطدمت اصطداما خطيرا بجوهر الاقتصاد البيزنطى . وكانت هناك بعض الموانىء أقل منها شأنا فى أسبانيا وفى بروفانس (جنوب فرنسا) ، وفى وقت لاحق أيضا فى دبروفنيك Dubrovnik (راجوزا Ragusa) على البحر الادرياتى والتى شاركت فى هذا المد التجارى : ولكن البنادقة احتلوا المركز الاول دون منافسة فى الفترة الواقعة بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر الميلاديين (فيما بين القرنين السادس والثامن للهجرة) فقد تركز فى ايديهم ابان تلك الفترة من الزمن ، الجزء الاكبر من تجارة اوروبا فى السلع والبضائع الشرقية . كما اصبحت البندقية وهى المدن الايطالية الاخرى ، الوسيط الرئيسى للتجارة البعيدة المسافات بالنسبة لجميع الدول الاوروبية وكانت هذه الوساطة تمثل ، بالنسبة لهم ، المصدر الاكبر لتكديس رأس المال الناتج عن الاشتغال بالتجارة .

وعلى الساحل المقابل للبحر المتوسط عمل التجار العرب فى بداية الامر كوسطاء للتجارة طويلة المسافات مع اوروبا . وامتدت بعض طرق التجارة الرئيسية عبر مصر وميناء الاسكندرية حيث تنتهى بالوسائل التقليدية(للنقل)

فى نهر النيل واستخدام طريق القوافل من البحر الاحمر . والبعض الآخر من هذه الطرق يمر عبر موانىء الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، المعروف بحوض الليفانت ، عندما كانت هذه الموانىء فى قبضة العرب وذلك حتى قيام الحروب الصليبية (فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / أخريات القرن الخامس الهجرى) وكان حوض الليفانت لعدة قرون ملتقى هاما لطرق القوافل الآتية من الخليج الفارسى وشبه الجزيرة العربية والمناطق الواقعة عبر جبال القوقاز حيث تصب كلها هناك . وبعد ان سيطر الصليبيون سيطرة مؤقتة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، انتعشت تجارة البندقية فى البضائع الشرقية انتعاشا هائلا . ويرجع ذلك ، فى بعض الاحيان ، إلى انخفاض تكاليف النقل لرحلات العودة للسفن التى كانت تحمل الصليبيين ومؤنهم من أوروبا (إلى الشرق) . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تحول جزء من تجارة العرب عبر البحر الأحمر ومصر : وسيطر التجار العرب على قدر كبير من التجارة مع البلاد الواقعة إلى الشرق من العالم الاسلامى ، وبخاصة عبر المحيط الهندى . كما استفادوا عن طريق الوساطة فى بيع التوابل الهندية وغيرها من الكماليات إلى اوروبا .

اما البحر الاسود فقد كان طوال العصور الوسطى تقريبا يستخدم كشريان حيوى للمواصلات . كما كانت القسطنطينية الواقعة على مدخله مركزا تجاريا من الدرجة الاولى ومحطة لشحن مختلف البضائع الشرقية عبره وحتى عام ١٢٠٤ م عندما تسببت الحملة الصليبية الرابعة فى انهيار السلطة السياسية والوضع الاقتصادى للامبراطورية البيزنطية لم تكن الامتيازات الممنوحة للبنادقة قد غطت منطقة البحر الاسود . وكانت بيزنطة تحتفظ اصلا فى هذه المنطقة بصلات تجارية حية مع كل من حكومة كييف وبلاد الخزر على نهر الفولجا والشعوب الاسلامية . وعلى أية حال ، فمنذ النصف الثانى من

القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى) فصاعدا سيطر الجنوبيون على تجارة البحر الاسود . وهم الذين انشأوا تحت السيادة الرسمية للقبيلة الذهبية مستعمرات تجارية ذات نفوذ على الساحل الشمالى للبحر الاسود . وقد احتلت المستعمرتان الجنوبيتان كافا Caffa وتانا Tana على وجه الخصوص ؛ منذ نهاية القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى (من اواخر القرن الثامن حتى اواسط القرن التاسع الهجرى) مركزا حاسما فى تجارة البحر الاسود . وشاركتا مشاركة فعالة فى عملية تبادل سلع وعبيد الشرق مع خانات التتار (١) وسلاطين الاتراك ، وكذلك مع بلدان آسيا الاخرى . وبالمثل فان التجارة مع الساحل الجنوبى الغربى للبحر الاسود التى كانت قد تاثرت تاثرا بالغا بغزو الأتراك السلاجقة انتعشت مرة اخرى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (القرنان السابع والثامن الهجريان) بسبب احياء طريق التجارة عبر إيران واذربيجان .

واما بالنسبة للبلدان الاوروبية الواقعة إلى الشمال من جبال الالب ؛ لم يكن الطريق إلى الموانىء الايطالية هو وسيلة الاتصال الوحيدة بالشرق والجنوب الشرقى فحسب . فبعد أن قطعت أغارات المجريين والبجاناكية (٢) خلال

---

(١) ورد ذكر التتار فى المصادر الاسلامية الوسيطة تحت الاسماء التالية : «التتر» و «التتار» و «التاتار» . انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ٢ – القاهرة ١٩٣٦ – ص ٢٧٩ و ٣٨٣ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار – ج ٢ – القاهرة ١٢٧٠ هـ – ص ٢٣٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر – ج ٢ – القاهرة ١٨٦٨ – ص ١٣٧ ، ١٩٥ و ٢٠٢ و ٢٠٦ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر – ج ٥ – القاهرة ١٢٨٤ هـ – ص ٣٧٩ و ٣٨٠ ؛ ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع – القاهرة ١٩٤٧ – ص ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٨ و ١٧٣ .

(١) البجاناكية أو البتشينج من العناصر التركية التى عبرت الدانوب إلى جوف الامبراطورية البيزنطية . انظر =

القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (القرنان الثالث والرابع الهجريان) الطريق الرئيسي للتجارة البرية الذي يربط اوروبا بالعالم الاسلامي مارا بليون وفردان وماينز وريجنز بورج فاقليم الدانوب والبحر الاسود إلى ان يصل إلى اسواق بلاد الخزر — بعد ان قطعت اغارات المجريين والبجاناكية هذا الطريق تغير أتجاهه خلال القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) إلى شمال جبال الكربات Carpathians ، واتجه من ريجنزبورج مارا ببراغ فسيليزيا فكراكاو Cracow وجاليكيا Galicia ومنها إلى كييف . ومن هناك واصل خط سيره إلى الشرق العربى . وكان التجار اليهود هم اول من استخدم هذا الطريق ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود امام منافسة الموانىء الايطالية فى تجارة حوض البحر المتوسط . اما الطريق الكرباتى الفرعى إلى البحر الاسود المار بكراكاو ، فقد احتفظ باهميته الفائقة فيما يتعلق بالتجارة النامية مع الشرق حتى بعد ان ساد مرة اخرى الطريق التجارى على امتداد نهر الدانوب ، وبعد ان فقد الطريق الممتد من ريجنزبورج إلى براغ اهميته السابقة . ولاشك أن طريق الدانوب كان اكثر اهمية بالرغم من الحقيقة المعروفة وهى ان الملاحة فيه سواء فى اتجاه المصب او المنبع كانت تعترضها عوائق طبيعية علاوة على المكوس الجمركية والقلاقل السياسية فى حوض الدانوب الأدنى . ومتأخرا فى سنة ١٤١٨ م قام امبراطور وملك المجر المسمى سيجسموند Sigismund بمحاولة للتقليل من شأن الأعتماد على البندقية وحدها فيما يتعلق بتجارة وسط

=Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I: The First Hundred Years, ed. by M.W. Baldwin, Philadelphia, 1958, 181 n. 3; Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford 1956, 227, 245, 259, 295, 303, 306.

أوروبا ، وذلك عندما اشار باستكشاف طريق الدانوب الممتد إلى المستعمرات الجنوبية على البحر الأسود من جديد . وعندما غزا الأتراك مدينة كيليا Kilia الواقعة على نهر الدانوب فى عام ١٤٢٠ م ، توقف استخدام هذا الطريق مرة اخرى .

وكان ثمة طريق نشط للتجارة استخدم طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد (القرنان السابع والثامن للهجرة) ، وهو يمتد من البحر الأسود وبحر زوف Azov إلى الشرق مارا بسراى Sarai عاصمة القبيلة الذهبية على نهر الفولجا . ومن هناك يعبر بحر قزوين إلى نهر اورال Ural ، ثم يتخذ الطريق البرى مرة اخرى إلى بحر آرال Aral ، ثم إلى جنوب بحيرة بلخاش Balkhash على امتداد جبال تيان شان Tian - Shan داخل بلاد الصين . وقد عمل حكام المغول على أن تكون التجارة آمنة تماما عبر اراضى امبراطوريتهم الشاسعة ، حتى ان كلا من الهند والصين لم تعد مضطرة فى اتصالاتها بالغرب إلى استخدام الطرق البحرية المارة بالخليج الفارسى او مصر ، تجنبا لتلك ، الطرق التى لم تكن آمنة فيما مضى . وكان هذا الطريق الحيوى الذى تم احياؤه هو طريق الحرير العظيم الذى كان قد استخدم فى الازمنة القديمة ، للتجارة بين الصين والامبراطورية الرومانية . وكان هذا الطريق الذى يمتد إلى شمال آسيا ، فى الحقيقة ، بمثابة البديل الوحيد الموصل إلى الطريق البحرى على المحيط الهندى . ومع ذلك ، فقد كانت المسافات الشاسعة عبر قارة آسيا ، مرة أخرى هى العقبة الكأداء فى سبيل الاتصالات التجارية . فلم تكن البضائع الثقيلة الوزن او الكبيرة الحجم تستحق تكاليف النقل الباهظة فوق ظهور الحيوانات عبر مثل هذه المسافات الطويلة الممتدة .

ولقد كانت طرق التجارة الرئيسية ذات اهمية بالغة فيما يتعلق باى لقاء

اوصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق . فلم يكن من قبيل المصادفة ان نفذ الصليبيون إلى شرق البحر المتوسط متبعين فى اغلب الاحيان نفس الطرق التى استخدمها التجار من قبل لفترة طويلة من الزمن . ولم يكن طريق الحرير العظيم ذا فائدة بالنسبة لغزوات جيوش المغول لشرق اوروبا فحسب ، بل افاد ايضا . فى الاتجاه العكسى ، رحلات المبعوثين والتجار الاوروبيين إلى قلب امبراطورية المغول . وإذا كانت اصول الحرب الصليبية تتعلق بظروف عديدة خاصة بتطور البلاد الاوروبية داخليا وخارجيا فى الفترة الواقعة فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين (فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين) ، فلم تكن الجهود التى بذلتها اوروبا لاختراق الحاجز الاسلامى الذى سد الطريق أمامها للحصول على سلع وبضائع الشرق هى آخر هذه العوامل (١) وكانت هناك محاولة لاقامة تحالف سياسى بين غرب أوروبا وخان المغول (فى الشرق الاقصى) لتحقيق نفس الغرض ، ولكن هذا التحالف كان وهميا منذ البداية (٢) . ومن بين العوامل الاخرى (فى هذا الصدد) أن الاوروبيين

---

(١) حول العوامل المختلفة المعقدة المتشابكة التى ادت إلى احتكاك الغرب اللاتينى بالشرق الادنى الاسلامى أثناء الحروب الصليبية ، انظر كتابى : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى – ط. ثانية – الاسكندرية ١٩٦٧ – ص ٥١ – ١١٠ ، كذلك مقالى : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية – مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية – العدد ١٦ – الاسكندرية ١٩٦٣ ص ١٨٣ – ٢٠٧ .

(٢) لقد اتجه الغرب اللاتينى بأنظاره إلى الشرق الأقصى انذاك وهو موطن المغول آملا اكتساب هذا العنصر إلى المسيحية على المذهب الرومانى الكاثوليكى فتقوى به جبهته ، ثم العمل على ابعاد خطره عن الغرب ، واخيرا تكوين كتلة لاتينية مغولية مشتركة ضد الاسلام . وفى سبيل ذلك بعث الجهاز الكنسى البابوى ايام انوسنت الرابع واحد ملوك الغرب هو لويس التاسع فى اواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) عدة سفارات لتحقيق هذه السياسة التى تعتبر الشرق الاسلامى فى فترة الحروب الصليبية . ولكن هذه المجهودات التبشيرية والسياسية والدبلوماسية لم تسفر عن أية نتيجة إيجابية حاسمة فى هذا المجال سوى ابعاد خطر المغول عن الغرب . انظر عن ذلك المصادر الغربية التالية : ... =

كانوا قد استهانوا بقوة الاسلام التى نفذت إلى الجزء الغربى من اراضى المغول ولم تتحقق فكرة الاتصال البحرى المباشر بين غرب أوروبا وشرق آسيا إلا تدريجيا بعد ان تهيأت الظروف التكنولوجية والاقتصادية ، التى كانت سابقة لاوانها ، والتى سادت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد (القرنين التاسع والعاشر للهجرة) .

حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق

لقد تغير (ميزان القوى(فيما يتعلق بالسيادة الاقليمية لكل من أوروبا المسيحية والعالم الاسلامى مرارا فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر للميلاد فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة((١) . فى القرن الحادى عشر ،

Joinville, Histoire de Saint Louis (ed.) de Wailly 74, 258 ff.; Rothelin,= Continuation de Guillaume de Tyr, cf. R.H.C.-H.Occ., t.II, 569 ff. ; Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273. trans. from the Latin by J.A. Giles Vol. II, London, 1853, 319.

(١) حول موازين القوى فى الصراع الصليبى الاسلامى فى فترة الحروب الصليبية وما يرتبط بها من مفاهيم مثل الافعال وردود الافعال ومراكز الثقل والاسباب والمسببات والنتائج والخواتيم انظر عزيز سوريال عطية (دكتور) : نقد مؤلفات جروسيه عن الحرب الصليبية وعن فلسفة التاريخ — المجلة التاريخية المصرية — المجلد الأول — القاهرة ١٩٤٨ — ص ٣١٦ — ٣٢٧ . ومما يذكر أن المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه قسم الحروب الصليبية إلى ثلاثة أدوار رئيسية ، وهى التى جعلها أساسا لمؤلفه الكبير عن تلك الحروب . الدور الاول وهو الذى رجحت فيه كفة الصليبيين على العرب ، والدور الثانى وهو التوازن بين الفريقين المتحاربين أو ما يعرف بتعادل كفتى الميزان والدور الثالث والاخير وهو دور انتصار العرب على الصليبيين الذى انتهى باجلائهم عن الاراضى المقدسة باستخلاص عكا آخر معاقل الصليبيين الحصينة على الساحل الشامى سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م . واتبع المؤرخ الانجليزى سفين رانسيمان نفس هذا المنهج فى كتابه عن الحروب الصليبية انظر :

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1954—1955.

وقد تعرضت لهذه الفكرة فى مقال لى تحت عنوان :

Joseph N. Youssef, „Arab Awakening during the Crusades," Buletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. XXIII (1969), Alexandria 1971, 11—26.

الميلادى ((القرن الخامس الهجرى) غزا النورمان صقلية التى كانت خاضعة للنفوذ العربى ، ولكن الاتراك السلاجقة طردوا البيزنطيين من آسيا الصغرى (حوالى نفس الوقت) ، وفى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) أضطر العرب فى اسبانيا إلى التراجع تدريجيا إلى الجنوب ، فى حين ثبت السلاجقة اقدامهم فى الاناضول . وكانت الحروب الصليبية بمثابة فاصل مسرحى قصير الامد للتفوق الاوروبى فى شرق البحر المتوسط ، هذا التفوق الذى يفوقه فى الاهمية العجز والضعف المستمرين للامبراطورية البيزنطية وظهور قوة عسكرية اقل تسامحا بين المسلمين . ذلك ان القبائل التركية التى اخترقت أواسط آسيا إلى الاقاليم العربية كانت ، من الجانب الاسلامى تتميز بقوة عسكرية متقدمة . فكان ثمة سلاح للفرسان ، وفيما بعد سلاح منظم للمشاة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (القرنين الثامن والتاسع الهجريين) ، نتيجة النمو المضطرد لسلطة العثمانيين فى البلقان وآسيا الصغرى . هذا ، بينما كانت البقية الباقية من السيادة العربية فى شبه الجزيرة الايبيرية قد تم القضاء عليها حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (اواخر القرن التاسع الهجرى) .ويمكن القول ، من وجهة النظر العالمية ، انه وجد نوع من التوازن بين اوروبا العصور الوسطى والعالم الاسلامى منذ القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر الميلادى (من القرن الرابع إلى القرن التاسع الهجرى) وعلى الرغم من المكاسب والخسائر الاقليمية لكل من الجانبين ، إلا ان كلا منهما لم يكن باستطاعته تجاوز حدوده مدة اطول من الطرف الاخر ولم تحدث بينهما اى قطيعة حقيقية إلا بعد انقضاء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين (بعد القرنين التاسع والعاشر الهجريين) عندما تقدمت اوروبا على القارات الأخرى .

ولم يكن اى صراع عسكرى خلال الفترة المذكورة عن القوة بحيث يقضى على استقرار التجارة بين اوروبا ومختلف الاقاليم الآسيوية . فلم يؤد نجاح الجيوش الصليبية أو فشلها ، كما لم يؤد نجاح الامارات التى اقاموها فى الشرق او فشلها ، إلى احداث اى تغيير جوهرى فى طابع تلك الاتصالات وماهيتها . وحتى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (القرنان السادس والسابع الهجريان) : لم يتم أهم تبادل للسلع والبضائع واوفره ربحا بين الشرق والغرب عن طريق الموانىء الصليبية (على الساحل الشامى) ، بل كان عن طريق المدن البيزنطية فى الشمال ودلتا النيل فى الجنوب . ولقد قدر للتجارة الاوروبية مع كل من مصر وسورية واواسط آسيا الاستمرار بعد سقوط آخر معقل للصليبيين فى شرق البحر المتوسط عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) دون ان تواجه هزة عميقة الأثر ، لكان ذلك دليلا آخر على أن الحروب الصليبية لم تؤثر تأثيرا بالغا على التطور الاقتصادى لحوض شرقى البحر المتوسط أو على التجارة النائية . إذ كانت معظم السلع مثل الحرير والتوابل ومواد الصباغة وغيرها من الكماليات التى قام التجار الاوروبيون بشحنها على ظهور السفن فى حوض الليفانت ، تأتى أصلا من الشرق الاسلامى . أى من بلاد الرافدين وسورية ، كما كانت تأتى من ايران واواسط آسيا . ولم تتوقف معظم وسائل الاتصال التجارى التقليدية ، أن لم يكن كلها ، إلا بعد أن بسط الاتراك العثمانيون سيطرتهم حول البحر الاسود وفى جنوب البحر المتوسط (فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى / أواسط القرن التاسع الهجرى) .

ومع ذلك ، فان حدود التبادل التجارى بين اوروبا العصور الوسطى والشرق كانت فى الاصل ، ذات طابع اقتصادى . وكان يستحيل على التجار الاوربيين ، وبخاصة التجار الايطاليين ، استيراد بضائع شرقية من المناطق

العربية اكثر مما كان باستطاعتهم بيعه فى الاسواق الاوروبيـة . وبالمثـل لم يطلب العرب من البضائع الاوروبيةا كثر مما تحتاج إليه بلادهم . واصبحت المدن الايطالية همزة الوصل فى هذه التجارة (١) ، بصرف النظر عن العلاقة المباشرة بين وسط وشرق اوروبا من جانب وبين منطقـة البحر الاسود من جانب آخر ، وهى التى ساد فيها ايضـا النفوذ الايطـالى فيما بعد . واما عـن الاتصالات بين بلدان وسط اوروبا والشرق ، فيما يختص بامـداد البضـائـع واسعارها وحجـم التبادل التجارى ثم القيم الثقافية فى نهاية الامر ، فقد بدأت تعتمد على منطقة البحر المتوسط ، و فى المقام الاول على الايطاليين الذين كيفوا هذه الاتصالات وفقا لمصالحهم الخاصة . وتأكدت هذه الحقيقة ، على سبيل المثال ، فى عمليـات استغلال المعادن الثمينة وبصفة خاصة الفضة ، التى كان معظمها يستخرج من ممالك وسط اوروبا ، وخصوصا من المجر وبوهيميا ومارك الميسن . وقد حقق الاوروبيون بتصدير الفضة التى كان الطلب عليها شديدا فى العالم العربى منذ بواكير القرن الثالث عشر الميلادى (بدايات القرن السابع الهجرى) فصاعدا ، تعادلا فى كفتى الميزان فيما يتعلق بتجارتهم مـع الشرق ، هذا التعادل الذى لم يكن فى صالحهم ولفترة طويلة من الزمن تمتد إلى وقت متأخر حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) . وقد تم تصدير الفضة ليس فقط غير المسكوكة (اى بحالتها الخام) وليس فقط على شكل عملات اوروبية عادية ، وانما ايضا فى هيئة عملات مسكوكة فى ايطاليا او جنوب فرنسا تحمل نقوشا وكتابات عربية معدة

(١) انظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : «علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية فى ضوء وثائق صبح الاعشى» — مقال فى مجلد عن ابى العباس القلقشندى وكتابه «صبح الاعشى» تأليف نخبة من الاساتذة — تقديم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — القاهرة ١٩٧٣ — ص ١٤٥ — ٢٠٠ .

للتصدير مباشرة . وقد اسهمت بيوت المال والتجارة فى البندقية وجنوة وفلورنسا وسيينا بكميات ضخمة من المال استثمرتها فى استخراج وشراء الفضة من وسط اوروبا وبصفة خاصة من الاقليم الذى يطلق عليه الآن أسم سلوفاكيا

وفيما بين القرنين العاشر والثالث عشر للميلاد (فيما بين القرنين الرابع والسابع للهجرة) عانى غرب ووسط اوروبا من ركود فى المجالات الاقتصادية والتكنولوجية والعملية والثقافية ، الامر الذى جعلهما دون ادنى شك ، اقل تقدما من العالم الاسلامى او بعض مناطق من الشرق كالصين مثلا . ومع ذلك فقد كان المجتمع الاوروبى بنيانا اجتماعيا اكثر حركة وديناميكية . وقد طرأت عليه تغيرات جوهرية فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، تمثلت قبل كل شيء فى قيام المدن وعقد الاسواق المحلية وتنظيم الاقتصاد النقدى ، وفى النهاية تكوين العلاقات الرأسمالية المبكرة ولايجب فصل هذا الغليان الداخلى للمجتمع الاوربى فى (أخريات) العصور الوسطى عن نظام الاقطاع الارضى الذى كان، من حيث المبدأ ، يختلف عما كان سائدا فى الشرق (١) .

وبسبب اختلاف الانظمة الاجتماعية ظلت اجزاء كبيرة من اوروبا ، كانت فى الاصل اشد تخلفا ، متخلفة فى تطورها عن الشرق الاسلامى المليء بالثروة ، والذى كان يعتبر تقريبا فى الفترة الوسيطة من التاريخ بمثابة حلقة

---

(١) حول الاقتصاد الطبيعى الذى ساد الغرب الاوربى فى ظل الاقطاع فى العصر الوسيط ، واوجه الخلاف بينه وبين الاقتصادالنقدىالذى حل محله بعد انهيار الاقطاع فى الغرب وظهور المدينة بسكانها الاحرار وحركتها النشطة فى التجارة والصناعة وحضارتها المدنية ، انظر هارتمان (ل.م.) وباراكلاف (ج.) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى – ترجمة وتقديم الدكتور جوزيف نسيم يوسف–ط.ثانيةالاسكندرية١٩٧٠–ص ٢ وما يليها و ٩١ وما يليها و ١٠٧ وما يليها .
ومن المؤرخين الاوربيين الحديثين الذين وجهوا اهتماما خاصا إلى هذه الناحية فى كتبهم وتآليفهم :
R.S. Lopez, I.W. Raymond, A. Dopsch, I. Thompson, H. Pirenne, M. Bloch, M. Postman.

الوصل التى بوسعها القيام بعملية الامداد المباشر للسلع والبضائع من اوروبا وافريقية ووسط آسيا والهند والشرق اذ قصى .

هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى فإن الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) : فضلا عن توسع الاتراك العثمانيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (القرنان الثامن والتاسع الهجريان) ، قد أديا إلى بسط نفوذ كل من المغول والاتراك على اقاليم شاسعة فى شرق اوروبا. هذا ، فى نفس الوقت الذى جنت فيه الاقطار الاوروبية الاخرى (اى دول الغرب) نتائج طيبة فيما يتعلق بالتغيير الجوهرى الذى حدث فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى . بينما كان على دول وشعوب شرق وجنوب شرق اوروبا ان تستنفد معظم قواها فى كفاح ضد الطغاة . وبعبارة أخرى ، كان على هذه الدول والشعوب ان تدفع ثمنا باهظا لانها اوقفت تقدم المغول والأتراك قبل ان يصلوا إلى وسط أوروبا . ويعتمد ذلك على الحقيقة الواقعة ، ومفادها ان الاتصال المفروض عليها بالطبقات الحاكمة المغولية والتركية لم يؤد إلى نتائج ملموسة إيجابية يمكن ان تحدث أى تغيير جوهرى ، حتى إذا صح القول بأن المغول عملوا على قمع القلاقل والاضطرابات فى أراضيهم ، أو أن الاتراك وضعوا دعائم ادارة منظمة فى البلاد المفتوحة .

١

البحث الخامس

أحد مصنفي الموسوعات السكندريين
فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى)
دراسة نقدية تحليلية
لكتاب «الإلمام» للنويرى الاسكندرانى

تأليف

عزيز سوريال عطية

ترجمة وتقديم

جوزيف نسيم يوسف

هذا البحث تحت الطبع بمجلة «عالم الفكر» فى الكويت

هذه ترجمة المقال التالى :

Atiya, A.S., «A Fourteenth Century Encyclopedist from Alexandria : A Critical and Analytical Study of Al-NUWAIRY AL-ISKANDARANI'S KITAB AL-ILMAM, «Research Monograph No. 7, Middle East Center, University of Utah, Salt Lake City, Utah, 1977, pp. 1—39.

مع التقديم لها :

المحتويـــــات

كلمة المترجـم

فى عام ١٩٧٦ ، وبعد عمل مضن جاد ومتواصل امتد قرابة نصف قرن اتم الدكتور عزيز سوريال عطية نشر وتحقيق كتاب «الإلمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية فى وقعة الاسكندرية» للنويرى الاسكندرانى ، وهويقع فى سبعة أجزاء ، تتضمن الاجزاء الستة الاولى النص بلغته العربيـة ، بينما يشتمل الجزء السابع والاخير على الفهارس . وفى عام ١٩٧٧ ظهر مقال الدكتور عطية باللغة الانجليزية المعنون «أحد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) : دراسـة نقـدية تحليلية لكتاب الالمام للنويرى الاسكندرانى » ، وذلك ضمن سلسلة بحـوث مركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا بالولايات المتحدة الامريكية . وبنشر كتاب الإلمام وظهور المقال ، يمكن القـول اننا اصبحنا اليوم نلم ألماما تاما صحيحا ليس فقط بالموسوعة ومحتوياتها على تنوع وتعدد وتشعب موضوعاتها ، وانما أيضاً بمؤلفها ومكانه بين مؤرخى القرن الرابع عشر الميلادى .

والدكتور عطية ، المحقق والمؤلف ، ليس بحاجة إلى ان نقدمه إلى عالم العلـم والمعرفة . فسيادته يشغل الآن وظيفة «كبير اساتذة التاريخ» بمركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا الامريكية . كان قد حصل على اولى دبلوماته العالية من مصر وهو دبلوم المعلمين العليـا عام ١٩٢٧ . ثم اوفد فى بعثـة دراسية إلى الخارج حيث تخصص فى حقل تاريخ العصور الوسطى . ومـن جامعة ليفربول بانجلترا حصل على درجة البكالوريوس فى الآداب عام ١٩٣١ وعلى درجة الماجستير فى الآداب عام ١٩٣٣ ؛ وعلى درجة الدكتوراه فى الآداب عام ١٩٣٨ . وقد تدرج فى وظائف التدريس بالجامعات المصريـة ،

فعين عام ١٩٣٩ استاذا مساعدا فى تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وفى عام ١٩٤٢ عين فى وظيفة استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وقد شغل هذه الوظيفة حتى اواخر عام ١٩٥٣ حينما سافر إلى الولايات المتحدة الامريكية ليواصل جهاده العلمى فى العديد من جامعاتها ، نذكر من بينها جامعات متشيجان وكولومبيا وبرنستون وانديانا ، إلى ان استقر به المطاف بجامعة يوتا بسولت ليك سيتى . والدكتور عطية هو مؤسس مركز دراسات الشق الاوسط بالجامعة المذكورة ومديره الاسبق.وهو ،فى نفس الوقت ،مؤسس مكتبته الضخمة الشهيرة التى تحمل اسمه.

وليس من السهل ان نحصر فى هذه العجالة المؤتمرات والمهام العلمية التى شارك فيها سيادته ، او ان نعدد أعماله التى اثرى بها مكتبة الدراسات الانسانية بصفة عامة ، والدراسات العربية والتاريخية على وجه الخصوص ، من كتب وبحوث ومقالات بمختلف اللغات . ولكن ما يهمنا منها فيما نحن بصدده ، هى مؤلفاته بالانجليزية فى تاريخ الحركة الصليبية أو أحد فصولها . ومنها « حملة نيقوبوليس الصليبية» الذى طبع فى لندن عام ١٩٣١ ، و«الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى» وقد صدرت طبعته الاولى فى لندن عام ١٩٣٨ وطبعته الثانية فى نيويورك عام ١٩٦٣ ، و«مصر وارغونة» وقد طبع فى ليبزيج عام ١٩٣٨ ، و«الحروب الصليبية والتجارة والثقافة» وقد طبع فى بلومنجتون عام ١٩٦٢ . فضلا عن مؤلفه المعنون «الحروب الصليبية : تاريخها ومراجعها طبع بلومنجتون عام ١٩٦٢ . وقد ترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغات الاوروبية الاخرى الحديثة كالالمانية والفرنسية ، بينما نقل البعض الآخر إلى اللغة العربية . هذا ، بالإضافة إلى العديد من البحوث والدراسات التى ظهرت لسيادته فى مختلف الدوريات العلمية العالمية .

إذن ، نحن أمام عالم وهب فكره وحياته لتاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب فى العصور الوسطى بعامة ،وتاريخ الحركة الصليبية على وجه الخصوص وله فيها آراء ونظريات هامة معترف بها فى عالم البحث . ولهذا ، ليس مستغربا أن يمضى السنوات الطوال فى نشر وتحقيق كتاب الإلمام للنويرى الاسكندرانى الذى يدور اساسا حول حملة بطرس الاول لوزجنان مـلك قبرص اللاتينى على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥م / ٧٦٧ هـ . وليس ، مستغربا أن يتنقل سيادته بين مصر والمانيا والهند جريا وراء نسخه الخطيـة الباقية . وكان طبيعيا بعد نشر الكتاب كاملا ، ان يتوج هذا العمل الكبير بمقال بالانجليزية عن الكتاب ومؤلفه . وهو ، فى الحقيقة ، عصارة عمل دام السنوات الطوال ، سجل فيه بحيدة ودقة وامانة وموضوعية ، وكما قال - - الاستاذ خسرو مصطفى المدير الحالى لمركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا ، ماتضمنته هذه الموسوعة الهائلة من معلومات وفيرة واصيلة فى العديد مـن الموضوعات الهامة المتنوعة .

وهذا المقال الذى ننقله إلى قراء العربية للمرة الاولى ، يشتمل على مقدمة بقلـم الاستاذ خسرو مصطفى وفصول خمسة ، اولها تمهيدى وآخرها ختامى. وفيما بينهما ثلاثة فصول خصصها المؤلف للنويرى وكتابه ، والنويرى كمؤرخ وحملة القبارصة على الاسكندرية ، على التوالى :

وقد أشار الدكتور عطية فى الفصل الاول التمهيدى إلى اسباب اهتمامـه بكتاب الإلمام للنويرى الذى تضمن ضمن ماتضمنه حملة القبارصة عـلى الاسكندرية . كذلك اشار إلى النسختين الخطيتين للإلمام المعروفتين وقتهـا وهما نسخة كل من برلين والقاهرة، ومراحل العمل فيهما إلى ان تبين وجود نسخة ثالثة كاملة فى بانكى بور بالهند ، وماستتبع ذلك من قيامه بنشر وتحقيق

الموسوعة كاملة بلغتها الاصلية العربية ، فى ضوء هذه النسخ الخطيــةالثلاث. وقد ظهرت فى سبعة أجزاء فى السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند (١) .

وفى الفصل الثانى وعنوانه «المؤلف وكتابه» عرفنا الاستاذ عطية بالنويرى الاسكندرانى وسبب تسميته بالاسكندرانى التى ترجع إلى اقامته الطويلــة بالاسكندرية التى عشقها . كما حلــل شخصيته ، وأشار إلى من تسموا بنفس الاسم من معاصريه من المؤرخين ، كما حقق نسبة كتاب الإلمام إليه واكدهـا وأوضح الفترة الزمنية التى شغلها فى جمع مادتا الكتاب واعداده ، كما أشار إلى مهنة النويرى كناسخ للمخطوطات ، واهميتها فى اتساع دائرة معارفــه ومعلوماته من ناحية ، وفى تلك المادتا الغزيرة الاصيلة التى اختزنها وافاد منها فى الوقت المناسب من ناحية اخرى . وذكر كيف تبلور كل هذا فى كتاب الإلمام . فعلى الرغم من أنه وضعه اساسا بهدف تسجيل كارثة هجوم القبارصة على الاسكندرية ، إلا انه تضمن بين ثنايا سرده لأحداث الحملة الصليبية معلومات ومعارف متنوعة متعددة متشبعة تطرق فيها تقريبا إلى كل المجالات والميادين ، وقد أضفى هذا على الكتاب اهمية مضاعفة ، وان جعل التعامــل معه فى نفس الوقت أمرا صعبا للغاية ، بسبب عدم ترتيب المؤلف لهذا القدر الهائل من المادة البالغة الاهمية . وقد عالج الدكتور عطية هذه الناحية فى الجزء السابع الاخير من الكتاب والمعنون «فهارس كتاب الإلمام» ، والذى تضمــن اربعة عشر فهرسا مصنفة تصنيفا موضوعيا ، ومرتبة ترتيبا ابجديا . فهناك ،

(١) النويرى الاسكندرانى : كتاب الإلمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية فى وقعة الاسكندرية — نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية — ٧ جـ — الهند (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيد آباد الدكن) ١٩٦٨ — ١٩٧٦ م/١٣٨٨ — ١٣٩٦ هـ .

مثلا ، فهرس للاعلام ، وآخر خاص بالاماكن والبقاع ، وثالث للأمم والقبائل والاجناس ،ورابع خاص بالاسكندرية ومبانيها وشوراعها ، وخامس يتعلق بالسفن ، وسادس بالمصطلحات الحربية . إلى جانب فهارس تتعلق بالنواحى الادبية ، والجغرافية ، والفلكية ، وعلمى الحيوان والنبات. ولاشك أن هذا الفهارس سوف تيح للباحثين المتخصصين الافادة الكاملة من كتاب الإلمام ، وأستخراج الدرر التى يشتمل عليهابسهولة ودون عناء .

لقد أضاف الاستاذ عطية الجديد إلى ما كنا نعرفه من قبل عن النويرى وكتابه ، كما عدل وصحح بعض الآراء والافكار التى كانت سائدة من قبل والتى وردت فى كتب المؤرخين الحديثيين المعنيين مثل كارل بروكلمان C. Brockelmann ، والوراد Ahlwardt وشارل ريو Ch. Rieu . ونخص بالذكر جهوده اسم النويرى ، وشخصيته ، وتاريخ وفاته ، وتقدير اهمية كتابه ، والمآخذ عليه ،واسلوبه ، وهذه وغيرها من القضايا إما تضيف جديدا أو تغير رأيا كان سائدا .

وفى الفصل الثالث وعنوانه «النويرى كمؤرخ» ، حدد الاستاذ عطيه دور النويرى الاسكندرانى فى الاسهام التاريخى ومكانته بين كل من معاصريه من ناحية والسابقين عليه واللاحقين له من ناحية اخرى . وطرح عدة تساؤلات هامة لها دلالتها . هل يعتبر النويرى مؤرخا بالمعنى الدقيق من هذا الاصطلاح ؟ وإذا كان الامر كذلك ، هل مؤرخ محترف ؟ وإذا لم يكن ، هل يجوز ان نعتبره مؤرخا ؟ هل يمكن ان نضعه فى مصاف معاصريه مثل العمرى وسميه النويرى الكندى ؟ او حتى المتأخرين عنه زمنيا امثال الذهبى ، والصفدى ، وابن الفرات ، وابن خلدون ، ومن جاء بعدهم ؟ ثم ماهى مصادر معلوماته الوفيرة التى ضمنها كتابه ؟ وإلى اى حد يمكن الوثوق بها ؟ وبكلمة مختصرة ،

ماوزن النويرى كمؤرخ ، وماهى مكانته بين غيره من مؤرخى العصر الاسلامى الوسيط ، فى ضوء التراث الذى خلفه لنا ؟

تساؤلات عديدة طرحها الاستاذ عطية على بساط البحث ، واجاب عنها اجابات صريحة محددة واضحة ، وقد خلص من ذلك انه ثمة عدة ركائز اساسية تحدد مكانة النويرى فى مجال الدراسات التاريخية ، وتكشف عن قيمة كتاب الإلمام . فهو ، أولا ، اديب وشاعر مرهف الحس يمتاز بروحه المرحة ثم انه ، ثانيا ، عاش فى الاسكندرية معظم سنى عمره ، وعشقها ، واصبح حبه لها يجرى فى دمائه . وهو ، ثالثا ، بحكم مهنته كناسخ للمخطوطات التى تناولت شتى افرع العلم والمعرفة ، قد قام بنسخ الآلاف منها وأستوعب مافيها من معلومات غزيرة فى كمها فريدة فى نوعيتها . واخيرا ، فإن النويرى كان شاهد عيان لفاجعة الهجوم القبرصى على الاسكندرية ، وشاهد بعينيه آثار الدمار الذى حل بالمدينة فور نزول الصليبيين إلى الشاطىء . ثم تركها مذعورا إلى قريته النويرة ، وعاد ثانية إليها بعد رحيل القبارصة عنها ليرى آثار المحن التى نزلت بها ، وأعمال السلب والنهب التى أصابتها . وقد اثارت فيه الفاجعة كوامن النفس ، وحركت بداخله حبه الطويل القديم للاسكندرية ، وأمتزجت بهذا وذاك تلك المعلومات الغنية التى أختزنها كناسخ للمخطوطات ، والتى تتميز بالتنوع والتشعب والتداخل ، وتتناول العديد من الموضوعات . وقد تبلور كل هذا فى كتاب الإلمام ، تلك الموسوعة العالمية الهائلة الفريدة فى نوعها وبابها . وكان خطها الاساسى هو حملة القبارصة الصليبية على الاسكندرية ، وقد نسج حوله كل مااختزنه واكتسبه من معارف ومعلومات لاأول لها ولاآخر . وعلى هذا فمحور الكتاب هو الحملة . وحول هذا الموضوع الرئيسى وبين ثناياه امدنا بمعلومات وتفاصيل هامة عن امبراطوريات

الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الاسلام . ووجه اهتماما خاصاً إلى الفتوحات الاسلامية ، وإلى الدول الاسلامية فى العصر الوسيط . فتحدث عن الخلفاء الراشدين ، والامويين ، والعباسيين ، والطولونيين ، والاخشيديين ، والمغاربة ، والفاطميين . كما أشار بالتفصيل إلى شخصيات عصره من المماليك فى مصر . وزودنا ، أحيانا ، بمعلومات جديدة غير معروفة فى المصادر التاريخية التقليدية . وبحكم تنوع مادته وتداخلها فى بعضها ، تطرق إلى الحديث فى العديد من الموضوعات مثل الحروب الاسلامية فى العصر ، الوسيط وفن الحرب والقتال عند المسلمين ، وطبوغرافية الاسكندرية وجغرافيتها ومبانيها ومنشآتها وكل مايتعلق بها ، إلى جانب النواحى الادبية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . ولذلك جاءت موسوعته حاوية لنقاط عديدة شتى تجعلها اشبه بدائرة معارف يمكن أن يفيد منها الباحثون المتخصصون فى شتى أفرع المعرفة . ولكن يجب ألا ننسى ، بعد هذا كله ، ان النويرى السكندرى يعتبر حجة فيما يتعلق بحملة القبارصة على الاسكندرية .

اما الفصل الرابع وعنوانه «الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥م/ ٧٦٧ ه» ، فقد خصصه الدكتور عطيه لتاريخ تلك الحملة من واقع كتاب الإلمام للنويرى . وسيادته يعتبر حجة رائدة فى هذا الميدان الذى كرس له وقته وجهده ، وكانت الثمرة إثراء مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بالعديد من بحوثه ومؤلفاته التى لها وزنها وشهرتها العالمية .

وقد سبق أن تناول تاريخ حملة القبارصة على الاسكندرية فى كتابه الضخم «الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى» (١) ، والذى توصل

---

(١) Cf. Atiya, A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, London (Methuen & Co.), 1938, pp. 345—378.

فيه إلى نظرية جديدة اصبح معترف بها فى مجال الدر سات التاريخية ، ومفادها ان الحروب الصليبية التى تعرض لها العالم لاسلامى، فى مشرقه ومغربه ، لم تنته حسبما هو معروف فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) عندما تمكن السلطان المملوكى الاشرف خليل من اجلاء الصليبيين عن عكا آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠ هـ ، وانما استمرت خلال القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) فيما يعرف باسم «الحروب الصليبية المتأخرة» ، حينما تعرض العالم الاسلامى لحملات صليبية كبيرة لاتقل ضراوة عن الحملات المبكرة ، وتتفق معها فى مفهومها وخصائصها وطبيعتها وهدفها . نذكر منها ، على سبيل المثال حملة القبارصة على الاسكندرية موضوع هذا الفصل ؛ وحملة لويس الثانى دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠ م/ ٧٩٢ هـ ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م / ٧٩٨ هـ التى قامت بها أوروبا بأسرها لالإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب امبراطورية المماليك أيضا (١) .

وهنا لايعيد الاستاذ عطية ماسبق أن ذكره عن الهجوم القبرصى على الاسكندرية ، فى كتابه سالف الذكر ، وانما يحلل تحليلا دقيقا رائعا روايات النويرى عن تلك الفاجعة ، وقيمتها التاريخية فيما يتعلق بالجديد الذى اضافته إلى معلوماتنا عنها ، والتفاصيل التى زودتنا بها ولم ترد فى المصادر الغربية

---

(١) للدكتور عزيز سوريال عطية مؤلف عن تلك الحملة هو :

Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

المعاصرة له مثل كتاب كل من جويوم دى ماشــو Cuillaume de Machaut وليونتيوس ماخايراس Leonties Makhairas (١) .

والجديد فى هذا الفصل ، ايضا ، ان الاستاذ عطية قام بتنسيق روايــات النويرى الخاصة بتلك الحملة والمبعثرة والمشتتة على امتداد الكتاب بين غيرها من المعلومات التى لا تربطها بها اى رابطة ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا مسلسلا بحيث تبدو وحدة واحدة متكاملة تسجل تاريــخ الهجوم من بدايته إلى نهايته لحظة بلحظة .

وإذا استعرضنا مشاهد الحملة ، باختصار ، نجد انها تبدأ بتحذيرات وجهها بعض المسلمين الاتقياء فى العالم الاسلامى إلى أولى الأمر فى مصر مــن المماليك بما سوف يحل بمدينة الاسكندرية ، وكان ذلك قبل الحملة ببضــع سنوات . وهنا تتداخل الحقائق والاساطير حينما يروى النويرى بعض المنامات التى تراءت لعدد من الناس بهذا الخصوص . وبعد ذلك يحلل صاحب الإلمام تحليلا دقيقا الاسباب التى ادت إلى الكارثة ، ويحددها بسبعة مابــين مباشرة وغير مباشرة ،ورئيسية وثانوية ،وداخلية وخارجية ، مبينا كيف أنها مجتمعة متكاتفة هيأت الجو لها . ثم يتحدث عن أستعدادات الجانبين المصرى والقبرصى ويشير إلى نظام التجسس والاستطلاع لدى كل منهما وأثره . وهنا يحلل الموقف تحليلا دقيقا ، مع ذكر امكانيات النجاح أو الفشل فيما يتعلق بقدرة المماليك فى مصر على صد هذا الهجوم المرتقب .

وابتداء من هذه النقطة يزودنا النويرى بصورة حية نابضة عن الهجــوم

(١) Cf. Makhairas, L., Recital concerning the Sweet Land of Cyprus entitled Chronicle, 2Vols., Greek text with English trans. and notes by R.M. Dawkins, Oxford, 1932.

كشاهد عيان له ، منذ نزول الفرنج إلى الشاطىء ، وتسلقهم للاسوار ، وفرار الجماهير المذعورة ، وحالة اليأس التى استولت على الجميع . ثم فراره هو مع الفارين ، وعودته ثانية إلى المدينة بعد انسحاب الفرنج منها ليسرد ، مرة أخرى ، مارآه من الخراب والدمار اللذين حلا بها . اما فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين تركة المدينة وعودت إليها ، فقد جمع معلوماته عنها من شهود عيان آخرين بقوا داخل أسوارها وقصوا عليها ما حدث بكل دقائقه وتفاصيله.

وكانت الحصيلة ان النويرى — بعد جمع الدكتور عطية لهذا الشتات من المعلومات وتنسيقه وترتيبه — امدنا بصورة متكاملة نابضة بالحركة والحياة عن تاريخ هذه الحملة . والكوارث التى حلت بالثغر السكندرى على ايدى الغزاه ، وهى صورة تزود الباحث المتخصص باتم واوفى وادق تسجيل لهذا الهجوم الوحشى المدمر الذى دام ثمانية ايام منذ لحظة نزول الفرنج إلى الشاطىء وحتى مغادرتهم المدينة وهى فى حالة يرثى لها . وهنا نجد أنفسنا أمام مشاهد وأمثلة متباينة مثيرة للدهشة والعجب . امثله نادرة للشجاعة الفردية اليائسة المستميتة لبعض أهالى المدينة ، إلى جانب نماذج من الغدر والخيانة والجبن التى اتسم بها بعض المسئولين من المماليك ، إلى جانب اعمال القسوة والوحشية التى فوق حد الوصف والتى مارسها الغزاة ضد الاهالى دون شفقة او رحمة او هوادة ودون تفرقة او تمييز للسن او الجنس بل دون تفرقة او تمييز بين الاهالى من مسلمين ومسيحيين ويهود . هذا ، إلى جانب اعمال السلب والنهب التى ارتكبها الفرنج ، والاسلاب التى وضعوا ايديهم عليها وحملوها والحرائق التى اشعلوها فى منشآت المدينة ومبانيها حتى اضحت خرابا . ويزودنا النويرى ، ايضا ، بصور عديدة تكشف عن تداخل المصالح الاقتصادية فى المسائل السياسية ، وذلك فيما يتعلق بموقف الجاليات الايطالية التجارية ،

وبخاصة البنادقة ، الذين رأوا فى هذا الهجوم اضرار بهم وبمصالحهم ، فوقفوا منه موقف المعارضة والعداء إرضاء السلطات المملوكية من ناحية ، وحفاظا على امتيازاتهم ومكاسبهم فى مصر من ناحية أخرى .

صور ومشاهد عديدة تترى وتتتابع ، سجلها النويرى بإسهاب وتفصيل كبيرين . ومنها نعرف ان مدينة الاسكندرية اضحت بعد مغادرة الفرنج لها قبرا مفتوحا ، بينما جثث الضحايا تملأ شوارعها وأزقاتها ولاتجد من يقوم بدفنها . وقد ترك هذا جراحا عميقة فى مصر لم تندمل، رغم محاولات السلطات القبرصية أعادة السلام بين البلدين وتناسى الماضى المزعج . وكان طبيعيا ان تتدهور العلاقات بين مصر وقبرص بقية حكم بطرس الاول لوزجنان قائد الحملة المشئومة ، وفى عهد خليفته بطرس الثانى وجانوس الثانى . وأثناء حكم الاخير ، انتقمت مصر تماما لما حـل بعاصمتها الثانية ، عندما وجهت ثلاث حملات كبيرة ضد قبرص خلال أعوام ١٤٢٤ و١٤٢٥ و١٤٢٦ على التوالى وفى الحملة الثالثة الحقت بتلك الجزيرة ضربة قاضية ، وانزلت بها هزيمـة ساحقة ، واخذت معها إلى القاهرة ملكها جانوس وكبار رجال حاشيته اسرى مكبلين بالاغلال .

وهكذا كان الثمن الذى دفعته قبرص غاليا ، وكانت الضربة التى الحقتها سلطنة المماليك فى مصر بالجزيرة قاضية ، تكشف بما لايدع مجالا للشك ان كفة الميزان فى الصراع الطويل المرير بين الصليبيين والمسلمين كانت قـد رجحت وبشكل نهائى وحاسم لمصلحتها ، واصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبها . وكل هذا يتصل بموازين القوى ومراكز الثقل فى الصراع بين شقى العالم وقتها ، ويرتبط أيضا بالافعال وردود الافعال ، وبالاسباب والمسببات التى ادت إلى ذلك الصراع والنتائج والخواتيم التى ترتبت عليه (١) .

(١) اشرت إلى ذلك بالتفصيل فى مقالى بالانجليزية :

وخلاصة ماسبق انه إذا اردنا ان نؤرخ لحملة القبارصة على الاسكندرية لايمكن بحال أن نتجاهل أو أن نتغاضى عما سجله النويرى السكندرى عنها فى كتابه الإلمام . وان هذا التجاهل او التغاضى يجعل دراستنا عن تلك الحملة قصة مبتورة غير مستوفاة .

وفى الفصل الخامس الختامى والأخير ، قدم الدكتور عطية تقيما دقيقا لهذا التراث الهائل المتنوع الذى خلفه لنا النويرى ، والذى اثرى به الدراسات الانسانية فى مختلف الميادين والمجالات ، وفى شتى نواحى العلم والمعرفة . ولاريب ان فهارس الدكتور عطيه الموضوعية المصنفة التى يشتمل عليها الجزء السابع والاخير من كتاب الإلمام ، سوف تلقى الضوء على هذا التراث وتعين الباحث المتخصص على الاغتراف منه .

وبعد ، فقد أقتضى نقل مقال الدكتور عزيز سوريال عطية إلى اللغة العربية ، الرجوع إلى كتاب الإلمام بأجزائه السبعة لتحقيق أسماء الاعلام ، والاماكن والمصطلحات كما ذكرها النويرى . كذلك اقتضى ترجمة النص ترجمة دقيقة تتمشى مع روح اللغة العربية . أضافة القليل جدا من العبارات الموجزة إلى المتن بقصد الايضاح او التعريف بالنسبة للقارىء العربى . وتمييزا لها عن الاصل الانجليزى ، فقد وضعنا كل اضافة منها بين حاصرتين كذلك زودنا الترجمة العربية ببعض التعليقات فى الهوامش السفلية رأينا ان طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها . وقد أضفنا كلمة «المترجم» بعد كل حاشية منها تمييزا لها عن حواشى المؤلف ، وتحقيقا للفائدة المرجوة من تعريب هذا البحث القيم العظيم .

جوزيف نسيم يوسف

Youssef,J.N., «Arab Awakening during the Crusades,»Bulletin of the= Alexandria Faculty of Arts, Vol, XXIII, 1969, Alexandria, 1971, pp. 11-26.

مقدمة الاصل الانجليزى

بقلم

خسرو مصطفى

تولى عزيز سوريال عطية ، مؤسس مركز الشرق الاوسط ومكتبته الرائعة بجامعة يوتا ، نشر مخطوطة «كتاب الإلمام» فى سبعة أجزاء ، والتى وضعها أحد مصنفى الموسوعات المصريين من الاسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» ، وهو محمد بن قاسم بن محمد النويرى المالكى الاسكندرانى . ويتضمن هذا العمل قدرا غير عادى من المعلومات فى موضوعات شتى متنوعة . وقد خصص جانبا كبيرا منه لروايات أصيلة تتعلق بنهب القبارصة لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥ م «٧٦٧ ﻫ» .

ووفقا لقول الناشر فإن النويرى «قد أتخم النص بالمعلومات والتفاصيل متنقلا من موضوع إلى آخر دون تمييز»... ورغما عن افتقار النص إلى التنسيق فان يصعب تقدير قيمة المخطوطة كمصدر للمعلومات «التى تلقى ضوءا» على فصل من فصول التاريخ الطويل للحركة الصليبية . ويعتبر الدكتور عطية عالما حجة فى هذا الميدان ، إذ كتب فيه بغزارة . وأصبح النص الكامل لكتاب النويرى ، بفضل الجهود التى كرسها فى هذا السبيل ، فى متناول طلاب العلم بعد طبعه ونشره فى سته مجلدات . اما المجلد السابع الذى اعده الدكتور عطية فسوف يسهل إلى اقصى حد عملية البحث بالنسبة لأى دارس ، إذ يزوده بعدد كبير من الفهارس التى تتضمن مختلف الموضوعات ، كأسماء الاماكن والاعلام ، والقبائل ، وادوات الحرب ، والحيوانات ، والسفن ، والفلك ، والقوافى ، وما إلى ذلك . وسوف تنير هذه الفهارس الطريق امام الباحث فى خضم «المعلومات المشوشة التى يعوزها التنسيق والترتيب» والتى زودنا بها

النويرى حسب قول «عزيز سوريال عطية» . وربما كان هذا هو اعظم ماقدمه فيما يتعلق بعملية نشر الكتاب .

ويرجع اهتمام الدكتور عطية بـ «كتاب الإلمام» للنويرى إلى مايزيد عن اربعين عاما مضت ، عندما عمل مع المغفور له الاستاذ أتين كومب Etienne Combe ، الذى كان فى ذلك الوقت ينشر نصا يعتمد على مخطوطتى برلين والقاهرة . وبعد وفاة كومب عام ١٩٦٢ ، تابع الدكتور عطية المشروع بمفرده ، مضيفا إلى مصادره مخطوطة بانكى بور ، وهى اوفى من المخطوطتين الاخريين. وكانت الخطة الاصلية تهدف نشر طبعة مختصرة «للكتاب». ولحسن الحظ ، قرر الدكتور عطية بعد تفكير طويل خلاف ذلك . وكانت النتيجة صدور النص الكامل مطبوعا بلغته الاصلية وهى العربية . ولاشك انه ستظهر له ترجمة باللغة الانجليزية فى الوقت المناسب .

ولقد تحمل الدكتور عطية تضحية شخصية هائلة فى سبيل نشر الكتاب . وإذا راعينا العناية الفائقة التى بذلها فى العمل فى المشروع قرابة نصف قرن ، إلى جانب الوقت الذى اضطر لقضائه فى حيدر آباد «الدكن» للاشراف على نشر كل جزء من أجزائه ، لتذكرنا تعليق أحد الباحثين كان يعمل مساعدا للمغفور له أدوارد/ج. براون Edward G. Browne بجامعة كامبريدج لقد شكا من أن براون كان قد اوفده ذات مرة فى اربع رحلات مختلفة إلى باريس للتأكد من صحة تهجئة كلمة واحدة فى اربع نسخ خطية ، كانت قد استرعت انتباه براون الواحدة تلو الاخرى . ولسوء الحظ فإن هذا النوع من العلم فى طريقه إلى الزوال ، لاننا نعيش اليوم فى عصر السرعة والدراسة المتعجلة ، وفى عصر يهمل التفاصيل التى هى بمثابة العلامات الدامغة للصناعات الدقيقة .

وسوف يتيح هذا المقال للقارىء الذى يتكلم الانجليزية الفرصة للتعرف على مادة «كتاب الإلمام» للنويرى ، وبخاصة وصفه الدقيق المفصل للاحداث المفجعة التى صاحبت حملة عام ١٣٦٥ م الصليبية. وان مركز الشرق الأوسط ليفخر بان يضم إلى سلسلة بحوثه ومقالاته ، ملخص الدكتور عطية الوافى لهذه الموسوعة .

خسرو مصطفى
مدير مركز الشرق الاوسط
بجامعة يوتا

الفصل الاول

تمهيد

ترجع معرفتي بـ «كتاب الإلمام» للنويرى الاسكندرانى إلى عام ١٩٣٦ م وكان ذلك اثناء اعدادى لدراسة مستفيضة لتاريخ «الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى» (١) وباستعراض الحملات الصليبية فى شرق البحر المتوسط ، اصبح لزاما تخصيص مساحة كبيرة وتوجيه اهتمام بالغ إلى كارثة نهب القبارصة وحلفائهم من غرب أوروبا لمدينة الاسكندرية عـام ١٣٦٥م. فقد حظيت تلك المغامرة الصليبية بقدر كبير من الدراسة والتمحيص من جانب طلاب العلم الاوروبيين غير المستشرقين ، من واقع المصادر والاصول الغربية ، وبخاصة قصيدة جوييوم دى ماشو Guillaume de Machaut الشهيرة تحت عنوان «غزو الاسكندرية» La Prise d'Alexandrie (٢) . وكان دى ماشو بالفعل احد المشتركين فى هذا الحادث المؤسف . وعلى هذا فقد كتب كشاهد عيان ، ولو ان روايته كانت بطبيعة الحال من الزاوية المسيحية «الغربية» . ولهذا السبب بدا لى «رأى دى ماشو» رأيا من وجهة نظر واحدة يشوبه بالضرورة الخطأ ، مالم نعثر على الرأى الآخر من الجانب الاسلامى ولما كان دى ماشو قد كتب من الخارج * ، فإنه من المستحسن من الوجهة التاريخية البحث عن مواطن كتب من الداخل حتى يتسنى تقديم قصة حية

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى فى لندن ، طبع (.Methuen & Co) عام ١٩٣٨ ، وصدرت الطبعة الثانية فى نيويورك وتولت نشرها (Kraus Reprints) عام ١٩٦٣ .

(٢) العنوان الكامل للكتاب هو :

La Prise d'Alexandrie ou chronique du roi Pierre Ier de Lusignan, ed. Mas-Latrie (Geneva : Société de l'Orient Latin, 1877).

* أى من خارج مصر (المترجم) .

نابضة للصدام بين الشرق والغرب «بعامة» وبين قبرص ومصر على وجـــه الخصوص . وقد عثرنا على بغيتنا فى الكتاب الهائل الذى الفه النويرى الاسكندرانى ، وقد حفزه على تأليفه رد الفعل الذى تملكه من مسالك الغزاة فى مدينته الزاهره الاسكندرية .

وعندما رحلت من لندن إلى جامعة بون بالمانيا خلال عام ١٩٣٦ ، تمكنت من الانتفاع بمخطوطة برلين لـ «كتاب الإلمام» لتقييم احداث عام ١٣٦٥ م تقييما متوازنا . وقد تبلورت حصيلة بحوثى المستفيضة فى العديد من المصادر الشرقية والغربية على السواء ، فى سردى تاريخ الحروب الصليبية المتأخرة الذى رأى النور «فى شكل كتاب مطبوع» عام ١٩٣٨ . وقادنى هذا على الفور إلى اتصال مباشر بباحث آخر كان يعمل فى «كتاب الإلمام» لهدف آخر ألا وهو دراسة الآثار الاسلامية فى الاسكندرية فى العصور الوسطى . وكان هذا الباحث هو المغفور له أتين كومب Étienne Combe ، وهو مستشرق سويسرى كان يقيم فى الاسكندرية . وكان قد قدم اصلا إلى مصر ليعمل مثقفا لفاروق الصغير الذى كان آنذاك اميرا متوجا على عرش مصر . وعندما أعتزل كومب تلك الوظيفة ، عين مديرا للمكتبة العامة لمدينة الاسكندرية * وعندما التقيت به الفيته وقد ركز «جهوده» لبضع سنوات على الطابع الأسلامى لتاريخ وآثار تلك المدينة ذات العمر المديد . وقد دفعه هذا بالضرورة إلى الخوض فى المصادر الاسلامية التى ترجع إلى تلك الفترة من الزمن ، ومــن ابرزها كتاب النويرى . ومن الواضح أن طابع ذلك النص الزاخر بالمعلومات المتشابكة المتشعبة فى العديد من المجالات ، قد حصر جهود كومب فى اعداد

---

* كانت تعرف آنذاك باسم مكتبة بلدية الاسكندرية (المترجم) .

اقتباسات مناسبة «من الكتاب» فحسب مصحوبة بترجمة فرنسية لها فى مجلد واحد .

ثم مالبث ان توقف الامر عند هذا الحد عندما اصبح كومب بعد ذلك مديرا للمعهد السويسرى للآثار بالقاهرة . فقررنا حينئذ تنسيق جهودنا على امل نشر تلك المادة فى مشروع مشترك يحمل اسمينا . وبالفعل انهيت الجزء الخاص بى من هذا الكتاب ، وسلمت النص لشريكى لمراجعة الترجمة الفرنسية غير المصقولة قبل النشر . ثم استدعتنى جامعة متشيجان بآن آربور عام ١٩٥٥ لشغل وظيفة استاذ زائر للدراسات الاسلامية بأكاديمية العصور الوسطى التى انشئت حديثا ، وذلك لمدة عام جامعى . ومالبث ان تبعت هذه الدعوة دعوات اخرى من جامعات كولومبيا وبرنستون وانديانا ومعهد الدراسات المتطورة . وشغلنى عملى هذا لبضع سنوات فى مجال الدراسات العليا الامريكية. وفى تلك الاثناء توفى الاستاذ كومب فى ٩ يوليو عام ١٩٦٢ عن ٨٢ عاما ، تاركا كل مادة مشروعنا المشترك فى المعهد السويسرى . فلجأت على الفور إلى السفارة السويسرية فى القاهرة لاستعادة تلك المادة من مخلفات كومب . وقد امكننا الحصول على كل المخطوطات والصور الفوتوغرافية والمتعلقات الاخرى الخاصة بالكتاب ، وذلك بفضل وحسن تدبير الادرات التابعة للملحق الثقافى السويسرى وقتها ، المغفور له الدكتور روبرت ران Dr. Robert Rahn كما وافقت السيدة زوجة كومب على الفور على انقاذ هذه المادة .

وتضمنت المادة أيضا ، بالإضافة إلى النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة للمقتطفات المذيلة بالشروح والتعليقات ومسودة الترجمة الفرنسية التى اعدها كومب بقلمه البارع ، صورا فوتوغرافية لنص برلين(١) . ، والنسخة الناقصة

(١) تتألف مخطوطة برلين من قسمين فى مجلد واحد تحت رقم ٣٥٩ Wetzstein =

لمخطوطة القاهرة (١).وتعتبر المخطوطتان مكملتان لبعضهما . ويبدو انهما فعلا عن نفس النسخة الاصلية المصورة المفقودة . ثم نما إلى علمنا فى تاريخ لاحق وجود النسخة الوحيدة الكاملة للنص فى الهند (٢) . وقد نسبت هذه المخطوطة عن طريق الخطأ إلى ابن عبد الله محمد بن عمر زين الدين الواقدى . كما توجد مخطوطة رابعة فى المتحف البريطانى (٣) ، ولكنها ليست سوى نبذة مقتضبة مبتورة مبنية بكل تأكيد على الاصل الهندى ، وتحمل اسم النويرى . اما فيما يتعلق بعملية النشر والتحرير والمقابلة «بين مختلف النسخ» ، فإن تلك التى يمكن الافادة منها هى مخطوطات برلين والقاهرة وبانكى بور . ومع ذلك ، فإن كل هذه المخطوطات توجد بها فجوات واجزاء مختصرة ، امكن ملؤهـــا وتقويمها عن طريق المقارنة بين مختلف النصوص . وفى رأينا انه من المناسب اتخاذ مخطوطتى القاهرة وبرلين اساسا لنصنا النهائى ، طالما انهما نسختان عـن النسخة الاصلية للمؤلف . كما ساعدت النسخة الهندية غير المنشورة على ايضاح بعض الاجزاء الغامضة وسد العديد من الثغرات الموجوده فى المخطوطات الاخرى .

= (ص١-١٣٩) ورقم ٣٦٠ (ص ١٤٠ – ٢٧٠) . انظر :

Ahlwardt, Vergeichniss der Arabischen Hand-schriften der Koniglichen Bibliothek zu Berlin, 10 vols, (Berlin, 1887—99), IX, 304—6.

هذا ، ولا تتضمن صفحة العنوان الأولى للمخطوطة اسم المؤلف . ولذلك ينسبها الوارد إلى مجهول ويأخذ بهذا الرأى بروكلمان فى مؤلفه :

C. Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, 2 Vols. (Berlin, 1898—1902), II, 35—36.

ولو أنه صحح ذلك فيما بعد فى الملحق الثانى ، ص ٣٤ .

(١) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٤ – ٤٩ تاريخ .

(٢) بانكى بور ، الجزء ١٥ ، ١٠٦٦ .

(٣) Ch. Rieu, Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the British Museum (London, 1894), No. 606, Fol. 50-70.

واثناء انغماسى فى مراجعة مشروع كومب — عطية توطئة لنشره ، تلقيت دعوة رسمية من المغفور له الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، للقيام بنشر النص بأكمله لحساب مؤسسته ، كجزء من سلسلتها الشهيرة عن التراث العربى . وفى الحقيقة ، نظرا لاهميه الكتاب ووجود نسخته الوحيدة الكاملة فى بانكى بور ، فقد نجح المسئولون فى الدائرة اقناع الحكومة الهندية لتمويل المشروع والتكفل بنشره فى «السلسلةالجديدة من مطبوعات» دائرة المعارف العثمانية . وكان اعداد النص قائما على قدم وساق فى الدائرة عام ١٩٣٨ (١) ، ومبينا على المخطوطة الهندية التى اتضح انها ناقصة وغير وافية بالغرض (٢) .

وبدا واضحا أن المقصود من دعوة الدكتور عبد المعيد خان هو نشر النص كاملا دون حذف او الاكتفاء بانتقاء أجزاء منه . ولذلك بدا مشروع كومب — عطية الاصلى ياخذ اتجاها مغايرا . ولاسباب عديدة رحبنا فى نفس الوقت باقتراح نشر الكتاب كله دون أختصار . أولا ، لان مبدأ نشر التراث القديم غير منقوص قد اصبح لفترة طويلة مقبولا كنموذج مثالى لما يجب ان تكون عليه عملية النشر ، وبصفة خاصة عندما يطبع المخطوط لاول مرة . وثانيا ، أن وضع الترجمة الفرنسية على الرف والتركيز على النص العربى ، أطلق يدى المحرر تلقائيا من القيد الذى كان يحصر جهوده فى جزء خاص او اكثر من الكتاب . لذلك فان مشروع كومب — عطية القديم الخاص باستبعاد جميع

---

(١) كانت مسألة اعداد نص بانكى بور ، فى الواقع ، موضع اعتبار فى حيدر آباد فى عام ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م ، كما ذكر برو كلمان فى الملحق الثانى ، ص ٣٤ .

(٢) يتضح هذا من النسخة طبق الاصل التى بعثت بها إلى الدائرة عن طريق الدكتور عبد المعيد خان .

الاجزاء التى لاعلاقة لها بالاسكندرية وتاريخها وآثارها ، كان لامن مراجعته مراجعة تامة مع اثبات جميع الاجزاء المحذوفة . ولم يكن هذا عملا سهلا ، وان كان باعثا على الرضاء التام . وهكذا ظهر النص باكمله فى الاجزاء الستة الاولى . ونظرا للطابع الذى يتميز به هذا الكتاب المتنوع المعلومات ، والذى يعوزه التخطيط الواضح المفصل ، فقد اصبح لزاما تخصيص مجلد سابع واخير للفهارس العديدة التى قد تساعد القارىء على تحديد مكان معلومة ماورد ذكرها وسط خضم النقاط المختلفة أو بين ثنايا حشو النص المسهب .

وبينما كان الجزء الوحيد الذى اغرانا بالحذف «من الكتاب» هو البذاءات التى تمس الانبياء (١) فى مواضع منه ، أو تلك التى تدخل فى مناقشة صريحة حول الجنس فى مواضع اخرى . ومع ذلك ، فقد تقرر فى النهاية ، بعد تقديم الاعتذار ، تضمين الكتاب حتى هذه الاجزاء دون المساس بها ، وذلك ، لاسباب عدة . أولا ، لانها تمثل مظهرا من مظاهر ادب العصر الذى لم يرفضه أو يتعفف عنه العقل العربى فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» باعتباره امرا مشينا . وبعبارة أخرى ، يجب ان ينظر إلى كل ماأورده النويرى فى هذا المجال كتعبير عادي لاخلاقيات العصر . ثم ان التفاصيل التى كشف النقاب صراحة فى هذا الخصوص ، انما تصلح اساسا من اسس دراسة فسيولوجية الجنس . وفى الحقيقة ، تارجحت شخصية النويرى التى تميزت بروحه المرحة بين الزهد الزائد عن الحد وبين الفجور المبتذل . وفيما بين هذين الطرفين «المتناقضين» كتب تقريبا بحرية فى كل موضوع يمكن تصوره ومألوف

---

(١) محمد بن قاسم النويرى الاسكندرانى : كتاب الإلمام — نشر عزيز سوريال عطية فى سبعة أجزاء (حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٨ — ١٩٧٦) . وسوف يرد ذكره فيما بعد تحت اسم «الإلمام» . انظر بصفة خاصة ج ٦ ص ٢٧٩ وما يليها و ص ٢٩٠ وما يليها .

لمعاصريه مما جعل كتابه موسوعة عالمية للعصر «الذى عاش فيه» . وبالرغم من الخلط والارتباك الناتجين عن خروجه عن جوهر الموضوع ، الا ان المادة التى جمعها تضم كثيرا من الدرر الغالية الكامنة فى ثنايا نصه المسهب ورواياتـه غير المرتبطة . ونأمل ان تقدم الصفحات التالية للقراء تحليلا منسقا لهذا النص العظيم ، وتهيىء السبل اللازمة لتحديد مكان اى موضوع هام ومحدد عـــن طريق الفهارس «التى اعددنا ها لهذا الغرض» .

الفصل الثانـــــى

المؤلف وكتابـــه

الاسم الكامل لمؤلف «كتاب الإلمام» هو محمد بن قاسم بن محمد النويرى(١) المالكى الاسكندرانى . والاسم غير مدون على صفحة العنوان فى كل من مخطوطة برلين ومخطوطة القاهرة، الامر الذى ضلل الوارد Ahlwardt حتى انه نسب مخطوطة برلين لشخص مجهول . وتبعه فى ذلك بروكلمان Brockelmann فى النسخة الاصلية لكتابه المعنون « تاريخ الادب العربى » ، ولو انه صحح الخطأ بعد ذلك فى ملاحقـه (٢) . هذا من جهة ،ومن جهة اخرى نجد ان مخطوطة بانكى بور تذكر المؤلف تحت اسم ابو عبد الله محمد بن عمر زيـن الدين بن الواقدى . وهذا بالطبع غير صحيح، وغير معروف مصدر هذا الخطأ الذى يظهر مرة أخرى فى مخطوطة المتحف البريطانى الموجزة . ومع ذلك ، يظهر اسم المؤلف ونسبة الكتاب إليه فى شعره فى عدة مناسبات بين ثنايا النص ذاته (٣) ، وبذا لايترك لنا مجالا للشك فى شخصيته . وعلينا ، فى ذات الوقت ان نتذكر ان «كتاب الإلمام» لم يكن مجهولا لدى عدد كبير من المؤرخين القدامى ، ومن بينهم ابن حجر العسقلانى (٤) (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والسخاوى (٥) (ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ م) . وللاخير بعض الكلمات التى ينتقد فيها عملية تأليف الكتاب واسلوبه . وتتضمن مصنفات السير والتراجم المتأخرة

---

(١) التهجئة الواردة هنا هى التى حددتها دائرة المعارف العثمانية .

(٢) انظر الفصل الأول ، حاشية رقم ٣ .

(٣) الإلمام ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ ، جـ ٣ ص ٨٠ ، جـ ٤ ص ٤٤ و ٤٥ ، جـ ٥ ص ٢٩٧ . ويشير النويرى فى الجزء الثانى ص ٥٢ إلى قريته الاصلية النويرة التى عاد إليها بعد هروبه من الاسكندرية سنه ١٣٦٥

(٤) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (القاهرة ١٩٦٦) ، جـ ١٤ ، ص ١٤٢ .

(٥) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٢٢ .

«زمنيا عن عصر النويرى» مثل «معجم» حاجى خليفه (١) و كتاب عمر رضا كحالة (٢) ، اسم «كتاب الالمام» بين قوائمها كاملا مع اسم مؤلفه .

وان وصف النويرى لنفسه كسكندرى (الاسكندرانى) يعزى إلى إقامته الطويلة فى تلك المدينة . وهذا يساعد على تمييزه عن الآخرين الذين يحملون نفس اللقب . ومن اشهرهم احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) وهو المؤلف الذائع الصيت لكتاب «نهاية الارب» (٣) ، ووجيه الدين عبد الرحمن (٤) الذى توفى عام ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م * وهو يقاتل فى صفوف الجيوش الايوبية ضد الفرنجة ، وربما كان ذلك فى دمياط . ومن الواضح ان الثلاثة قدموا اصلا من قرية النويرة من اعمال مديرية البوصرية — محافظة بنى سويف الآن — فى مصر الوسطى .

ووفقا لروايات محمد بن قاسم نعرف انه قدم إلى الاسكندرية فى شهر ذى الحجة ٧٣٧ هـ / يوليو ١٣٣٧ م (٥) بهدف زيارة المزرات الاسلامية المقدسة واضرحة مشايخها الابرار . وعندما احس بما تتمتع به المدينة من جمال

(١) كشف الظنون (اسطنبول ١٩٤١ — ١٩٤٥) ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) معجم المؤلفين (دمشق ١٩٥٩ — ١٩٦١) ، جـ ١١ ، ص ١٤٧ .

(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وهو موسوعة أدبية ضخمة صنفها شهاب الدين بن عبد الوهاب البكرى الكندى الشافعى المعروف بالنويرى . والموسوعة فى عشرين مجلدا (طبع القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٧٥) .

(٤) الإلمام ، جـ ٥ ، ص ٩٠ — ٩٢ . هذا ، وقد اورد المؤلف اسطورة مفادها انه بعد وفاة وجيه الدين استجاب لنداء مهين من قبل احد الفرنجة فى ساحة القتال ، ومن ثم فان الفرنجى الذى اعترته الدهشة صبر جثمان الشيخ وحمله معه إلى عكا حيث يرقد الفرنجى فى مدفن الشيخ بعد اعتناقه للاسلام .

* التاريخ فى الاصل الانجليزى ١٢١٩ م ، ولعله خطأ مطبعى ، وصحته ١٣١٩ م (المترجم) .

(٥) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

ووجد ان المعيشة فيها مستساغة إلى حد بعيد ، قرر الاقامة فيها . ثم تزوج فيما بعد من اهلها الذين اعجب بهم ، وبذلك كون عائلة داخل اسوارها إلى ان تركها مع سيل المهاجرين عن طريق البوابة البرية هربا من الغزاة الفرنجة اثناء الايام العشرة الاخيرة من شهر محرم ٧٦٧ هـ / أكتوبر ١٣٦٥ م ، وكان النويرى قد اتم فى هذا التاريخ قرابة ثلاثين عاما امضاها فى هذه المدينة التى عاد إليها بعد ذلك .

وعند عودته إلى الاسكندرية ، بعد انسحاب القبارصة المشين منهـا ، ومشاهدته الكوارث التى حلت بها اثناء احتلالهم القصير لها ، والتى أثارت الرعب والهلع فى نفسه ، قرر ان يؤلف كتابا عن تلك الاحداث الحقيرة . وبدأ بالفعل فى جمع نصه فى جمادى الثانى ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م ، وأتمه فى ذى الحجة ٧٧٥ هـ / مايو ١٣٧٤ م (١) . ويمكن القول ، بناء على ذلك أنه أمضى نحو ثمانى سنوات للفراغ من اعداد كتابه .

ومن الصعب تحديد تاريخ وفاة النويرى تحديدا دقيقا . ولكن طالما انه عاش حتى اتم كتابه فى السنة سالفة الذكر ، فلابد اذن انه قد توفى بعد عام ١٣٧٤ م . ويحتمل انه كان على قيد الحياة فى عام ١٣٧٥ أو ١٣٧٦ م . فهو يروى فى ثناياه كتابه حادثة ضياع جزيرة صقلية من ايدى المسلمين ووقوعها فى قبضة النورمان الذين وصفهم بالفرنجة عام ٧٧٧ هـ (يونيو ١٣٧٥ — مايو ١٣٧٦ م) (٢) .

ويتحدث النويرى عن مهنته كناسخ للمخطوطات لتجار الاسكندريـة

---

(١) على صفحة عنوان الجزء الاول تبدو السنة ١٣٧٢ ، وهو خطأ مطبعى وقع سهوا فى الاجزاء الاخرى. وعلى أية حال ، فان هذا لا يغير من تاريخ وفاة النويرى الذى وقع بعد كلا العامين

(٢) الإلمام ، جـ ٣ ، ص ١٠٢ .

المسلمين الاثرياء ، و ذلك اثناء اقامته الطويلة فى تلك المدينة التى ناهزت اربعة عقود . ومن المؤكد انه نسخ عددا هائلا من المخطوطات طوال تلك السنين . وبحصر الكتب التى كان على معرفة بها ، والتى جمعناعناوينهافى فهرس خاص(١) ، يتضح أن مكتبته قد زخرت بمجموعة لابأس بها من المؤلفات الهامة لقدامى الاساتذة فى مجالات عديدة فى الدراسات الاسلامية . وبذا يمكن ان نستنتج انه استطاع كناسخ أن ينقذ او يستظهر اجزاء عديدة هامة من المادة التى قام بنسخها ، واستخدمها فى تأليف كتابه الخاص الذى قدر أن يكون «كتاب الإلمام» . ويدل عنوان الكتاب على تلك الحقيقة ، فكلمة «إلمام» تعنى نتف وشذرات «من مختلف مصادر المعرفة» ، وهى واضحة من بناء الكتاب. ويفسر هذا ، ايضا ، احدى سمات الكتاب المثيرة للحيرة . إذ يبدو انه كان يهدف إلى حشد تلك الشذرات المتراكمة فوق بعضها فى النص دون خطة واضحة ، مما جعل اسلوبه غير مترابط إلى حد ما فى بعض الاحيان .وليس من المستغرب لناسخ امضى حياته فى نسخ امهات الكتب المعنية بالدراسات الاسلامية ان يجمع قدرا هائلا من المادة التى يتميز باهميتها البالغة من اصول معروفة او مفقودة ومجهولة بالنسبة لنا . فعلينا ، اذن ، ان نعتبر كتاب النويرى بمثابة خزانة ، وربما كانت خزانة غير مرتبة لكنز ثمين متراكم حول واقعة رئيسية ، ألا وهى واقعة نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وفى الحقيقة ،لايعتبر افتقاد النويرى لمسألة تنسيق وترتيب مادته هو العيب الوحيد فى كتابه . فيكاد يكون من المستحيل بالنسبة لرجل حصل على مثل هذا العلم الغزير والاطلاع الواسعة ، ان نجد تفسيرا لخواص ولمسات معينة فى اسلوبه . اذ يخونه الجهل ببعض القواعد التى تعتبر من ابسط قواعد

(١) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ١٢ .

النحو العربى . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس من الانصاف ان ننسب هنات الكتاب اليه كأمر محقق ، طالما انه لاتوجد تحت ايدينا نسخة المؤلف الاصلية . وعلى هذا ، فمن المحتمل ان يكون الذين نقلوا عن نسخته الخطية الاصلية هم المخطئون . ولكن ، لماذا تظهر فى جميع المخطوطات التى تحت ايدينا نفس التراكيب النحوية المخالفة لابسط القواعد ؟ واما بالنسبة للاخطاء النحوية واللغوية الفاضحة والتعبيرات العامية لاحداث الحياة اليومية فى مصر «الواردة فى كتابه» ، فاننا نرى من المناسب إجراء حد ادنى من التصحيح والتهذيب اللذين لابد منهما فى اسلوب الكاتب مما يجعل النص صالحا للنشر فى سلسلة من سلاسل التراث العظيم . ومن الصعوبة بمكان ان يوفق الفرد بين مثل هذه المتناقضات فى انجازات النويرى الشعرية . فقد كان شاعرا قديرا . وان قصائده المتناثرة فى الاجزاء الاخيرة «من الكتاب» لدليل كاف على سيطرته على علم العروض العربى ، وعلى مهارته الادبية فى تناول موضوعاته ويمكن اعتبار قصائده بمثابة وثائق تاريخية ، طالما انها تعالج الاحداث الخاصة بالقرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» والشخصيات المرموقة المعاصره له .

وترجع قيمة «كتاب الإلمام» كمصدر ثقة إلى مصادره «التى اعتمدعليها» من جهة ، وإلى ملاحظات النويرى نفسه كشاهد عيان «لاحداث ذلك الزمان» من جهة اخرى . ففى المقام الاول . جمع مادة وفيرة استقاها من مؤلفات اصلية واقدم زمنيا من كتابه . ومع ذلك ، بوسعنا ان نعتبر طريقة عرضه طريقة لابأس بها . فهو بكل بساطة حشا مادتهفى صلب النص ، متنقلا من موضوع إلى آخر دون تفرقة او تمييز . ومع ذلك فمن الخطأ الجسيم ان نلفظ كتابه على هذا الاساس ، لانه وسط متاهات رواياته غير المترابطة لحد ما

والمكتوبة بأسلوب سجعى متكلف ، يستطيع الفرد ان يعثر على تفاصيل غير عادية تتميز باهميتها القصوى مبعثرة بطريقة عشوائية هنا وهناك «فى ثناياالنص» وقد حاولنا علاج فوضى المؤلف وشططه الذى لامبرر له ، بجمع مادة هذا النص الضخم للموضوع فى اربعة عشر فهرسا تضمنها الجزء السابع والاخير «من الكتاب» . وفى رأينا ان هذه الفهارس قد تعين القارىء على تحديد مكان المعلومة التى يبحث عنها دون الخوض فى «متاهات» النص المربك بأكمله .

وفى المقام الثانى ، شب النويرى ليكون مواطنا صميما من مواطنى الاسكندرية . وأصبح على دراية تامة بمنشآتها وازقتها وحواريها واسوارها وابراجها وفنادقها «اى نزلها» وبواباتها وشواطئها والشخصيات المعروفة من اهلها . كما كان شاهد عيان للاحداث التى كانت المدينة مسرحا لها . اما مالم يشاهده ، فقد سجله عن روايات بلغته بطريق مباشر أو عن مصادر اصلية . وانعكست هذه الامور فى التفاصيل الدقيقة التى زودنا بها والتى تتميز بطابعها الفريد فيما يتعلق بطبوغرافية الاسكندرية وآثارها فى العصور الوسطى . ورأينا انه من المناسب جمع كافة الاشارات الخاصة بالمدينة فى فهرس خاص على شكل جدول (١) يبين انه مصدر ثقتنا عن الاسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» .

ثالثا ، خصص المؤلف الجانب الاكبر من كتابه لأوفى معلومات معروفة «لدينا» باللغة العربية عن حملة القبارصة «على الاسكندرية» عام ١٣٦٥م . وهو فى ذلك يعتبر شاهد عيان من جهة ، ومن جهة اخرى مراسل انباء خرج لجمع كل المعلومات من شهود عيان آخرين ، وهى التى تتناول التفاصيل الخاصة بالاحداث التى

(١) نفس المرجع ، جـ ٧ الفهرس رقم ٦ .

لم يشترك فيها شخصيا . ثم هو يقدم لنا اسماء مسئولة لاشخاص جمع منهم قصصه ورواياته ليؤكد صدق أقواله .

رابعا ، لقد ظل النويرى . باعتباره مواطنا يعيش فى ميناء من أهم موانى حوض البحر المتوسط ، لعشرات السنين يشاهد باستمرار مختلف السفن التى ارتادت مياهه . وهنا نجد سجله المفصل عن السفن ، واوصافها الخاصة ، واستخداماتها ، وبنائها ، وحمولتها . ومسمياتها الفنية ، سجلا مذهلا حقا ليس له مثيل فى مصادر العصور الوسطى العربية . وقد أفردنا فهرسا خاصا(١) لهذا الجانب من الكتاب الذى سيثبت عند القاء نظرة خاطفة عليه ضخامة الجهد الذى بذله «النويرى» فى مجال نادر يتعلق بعلم الملاحة العربى والسفن العابرة فى كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى ، واحواض انهار العالم القديم العظيمة . ويعتبر كتابه مصدرا هاما فى هذه الناحية ، حتى ان القاموس الوحيد للملاحة العربية الذى جمعه كندرمان Kindermann (٢) يكاد يرتكز كلية على المعلومات الواردة فى «كتاب الإلمام» .

خامسا ، يزخر الكتاب بمسائل محددة واضحة تتعلق بالعلوم الجغرافية كما افرد المؤلف قسما شيقا يتعلق بالمعلومات الفلكية . هذا ، فضلا عن ان جانبا كبيرا من محتوياته خاص بالعديد من المدن والانهار والجزر والبلدان فى عالم العصور الوسطى . وتتميز بعض روايات المؤلف بقيمتها النادرة بالنسبة لكل من العالم الجغرافى والعالم الفلكى . فالنويرى على سبيل المثال ، كان على دراية بكروية الارض قبل كوبر نيكوس Copernicus وجاليليو Galileo

(١) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس السابع .

(٢) H.Kindermann, «Schiff» in Arabischen, Untersuchung uber Vorkommen und Bedeutung der Termini (Zivickau 1 Sa. 1934).

بوقت طويل ، حينما كان العالم الغربى يعتقد من وجهة نظر الكنيسة « «اللاتينية»أن الارض مسطحة يحيط بها محيط من الظلمات عامر بالرعب والاخطار والتنانين الضخمة . ومما يثير الاهتمام ان نقرأ احيانا بين ثنايا المعلومات التى يحتوى عليها النص ، اقتباسات تتناول خصائص بعض المدن والبلدان الكبيرة فى اوروبا فى العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والمنشآت الاسطورية فى بعض العواصم والتى لاتزال بحاجة إلى شرح الشراح وتفسير المفسرين الحديثين(١) . وأن المرء لتعتريه الدهشة عندقراءة الفصول المتعلقة بمجموعات النباتات والحيوانات ومع أنها قد تبدو مقتضية ، الا ان رواياته فى هذا الصدد يمكن أن تكون ذات فائدة لطلبة كل من علم النبات وعلم الحيوان . كما انها تفيد مؤرخى التجارة المتعلقة باحتياجات الشرق وحاصلاته . فبالاضافة إلى تجارة الفلفل والتوابل الواردة من الهند ، يعدد النويرى البناتات الجذرية والحاصلات وأشجار الفاكهة والاخشاب الثمينة وغيرها من المواد التى لها أهميتها فى عمليات تبادل الصادرات والورادات وعقد الصفقات التجارية فى العصور الوسطى (٢) .

سادسا ، يلاحظ أثناء سرد النويرى للمعارك والعمليات الحربية التى تتعلق بالفتح العربى والورادة فى الحوليات المبكرة ، وكذلك مايرتبط بالحروب التالية المتقطعة التى نشبت بين المسلمين فى الشرق الاوسط وبين المسيحيين فى الغرب — ان المؤلف امد القارىء بقدر هائل من الحقائق والمعلومات الخاصة بفن الحرب والقتال لدى المسلمين فى تلك العصور . ونجد بين محتويات الكتاب معلومات عن معدات الحرب العربية ، والخطط التكتيكية للقتال ، والاستراتيجية

---

(١) الإلمام ، ج ٧ ، الفهرسان الثانى والحادى عشر .

(٢) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرسان التاسع والعاشر .

وعمليات الحصار وآلاتها ، والاساطيل ، والمعارك البحرية . وحاجة المؤرخين «المعنيين بفن الحرب والقتال» ماسة لهذه المعلومات النادرة إلى حد ما ، للاسهام فى توضيح الجوانب الغامضة التى اكتنفت فن الحرب عند العرب فى العصور الوسطى . وهنا نجد ان لدينا فيضا من المعلومات الجديدة نسبيا التى تثرى معرفتنا الضئيلة فى هذا الموضوع بالذات ، وقد قمنا بمحاولة لتحديد وتفسر المصطلحات التى استخدمها النويرى فى هدا المجال ، ولم يحالفنا التوفيق فى عدد منها . وعلى ذلك فاننا نسجل المصطلحات كما وجدت فى المخطوطات الاصلية ، تاركين عملية تفسير المسائل التى لاتزال بدون حل للمؤرخين العسكريين مستقبلا (١) .

ثامنا ، علينا ان نتذكر أن النويرى يعتبر انسانيا بحكم مهنته اذ تبدو نواحى اهتماماته بجلاء فى استخدامه المتواصل للشعر وفى دراساته الادبية (٢) وكان النويرى نفسه ، حسبما ذكرنا من قبل ، شاعرا من نوع معين . وان استخدامه للشعر الاصيل القديم الذى يرجع إلى العصر الذهبى للادب العربى ، قد وصل بينه وبين سرد شعره عصره المنثور الدنيوى . وبناء على ذلك : يمكن القول ان هذا القدر الهائل من المقتطفات الشعرية المتنوعة فى «كتاب الإلمام» قد استمد ابتداء بالمعلقات — وهى ملاحم الشعر الجاهلى الخالدة — ومن مشاهير الفترة الاسلامية المبكرة امثال ابى نواس والفرزدق ، وحتى تلك الاسماء المجهولة نسبيا امثال التكريتى وابن ابى حجلة وابى الفضل قاسم القصار وابى العباس المرسى ، وحتى النويرى نفسه الذى كان من بين شعراء

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٢) يصعب أن نجد فصلا فى مختلف أجزاء الكتاب لا يتضمن اقتباسات شعرية ترجع إلى الفترة المبكرة . انظر الفهرس رقم ١٤ فى الجزء السابع عن الشعر والشعراء .

أواخر العصور الوسطى . وكان المؤلف فى بعض الحالات يقتبس دواوين باكملها او مجموعات من القصائد والاشعار.وآية ذلك ربما يكون شعر مجنون ليلى (١) ، حيث جمع النويرى قصائد كافية للاسهام فى اعادة نظم ديوانه بإضافة اشعار اخرى إليه لم يحالفنا التوفيق فى تحديد مكانها فى الطبعات الاقدم التى لاتزال موجودة للشاعر الغنائى الشهير . وتمشيا مع الروح الدينية التى يتميز بها النويرى نجده يقتبس فى نفس الوقت اقتباسا مكثفا من الشعر الدينى مثل القصيدة العظيمة التائية « للشاعر ابن الفارض (٢) . فقد جمع فعلا كل المراثى التى نظمها شعراء عصره يتباكون فيها على سقوط ونهب مدينة الاسكندرية الغنية الباهرة ، وبخاصة القصيدة التى نظمها ابن ابى حجلة والتى ستوجه إليها عناية خاصة فى الفصل التالى .ومع انه اقتبس بعض الرجز(٣) إلى جانب الالغاز والاحاجى الشعرية لمجرد التسلية ، إلا انه ادى ذلك بطريقة سطحية عابرة دون إمعان او تدقيق ، وهى لاتتطلب معالجة فاحصة . اما شعره الشخصى فهو ، اساسا خاص بمدح الشخصيات التاريخية او التباكى على المصير الرهيب لمدينته العظيمة (٤) .

تاسعا ، يحتل النويرى مكانته كروائى أو قصاص . ويمكن تصنيف قصصه إلى نوعين :

---

(١) يدعى قيس بن معاذ . انظر الإلمام ، جـ ٦ ، ص ٣٣٩ . ووردت أشعار له فى جـ ١ ص ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، جـ ٦ ، ص ٢٣٢ و ٣٣٩ وما يليها و ٣٦١ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، جـ ١ ، ٦٣ و ٨٢ و ٨٨ و ١٤٥ و ١٩٨ و ٢٢٣ و جـ ٢ ، ص ١٨٩ وما يليها و ١٩٥ وما يليها و جـ ٣ ، ص ١٤٠ – ١٤١ و ١٧٢ و ٢٣٢ و جـ ٤ ، ص ٢٢٩ و ٢٣٨ وما يليها و جـ ٥ ص ٣٥٩ – ٣٦٠ و جـ ٦ ، ص ٣٦٦ وما يليها .

(٣) شعر شعبى مفعولى الوزن . نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ١٤ .

احدهما يشتمل على قائمة طويلة من الحكايات القصيرة ، وهى عبارة عن احداث كان يسردها أهالى الاسكندرية الذين بقوا داخل أسوارها * تتضمن ماقاسوه على ايدى الفرنجة الغزاة (١) . هذا ، وتوجد فى الحقيقة حكايات او روايات تاريخية عن احداث ووقائع معينة اثناء غزو الاسكندرية . ويعتبر الفصل التالى الخاص بتاريخ الحملة الصليبية هو المكان المناسب لتحليل تلك الوقائع والاحداث . «هذا عن النوع الاول من قصصه» ، أما النوع الثانى فهو يتضمن قصصا اطول هى من وحى خيال النويرى . وهى تتناول قصصا خيالية تتعلق بملوك وممالك وجن وشياطين (٢) ومعارك باسلة مع الاسود المفترسة والارواح الخفية والظواهر الخارقة للطبيعة ، وكل مايتعلق بالسحر والمعجزات . ويمكن هنا ان نلمس مدى تأثير قصص «ألف ليلة وليلة» التى كان «النويرى» على معرفة بأصولها . ولو ان هذا لايظهر فى قائمة كتبه لسبب جلى هو ان هذا العصر هو العصر الذى بدأ فيه فن القصص الخيالى الخالد يأخذ شكله النهائى . ومن الصعوبة بمكان حقا تتبع مصادره فى هذا المجال بالذات ، تاركين الامر لمجرد الحدس والتخمين . فمن اعجب قصصه قصة سردها بإسهاب فى مطلع «كتاب الإلمام» ، وهى افضل مما جاء فى نهاية الكتاب الذى خصصه للقصص الخيالى البحت . وهذه القصة تدور حول فيلسوف معين يدعى سكندس Secoundus (٣) هو ووالدته . وهى القصة الوحيدة التى ترجع إلى اصل اغريقى ، وهى تتفق إلى حد بعيد مع المأساة الاغريقية الشهيرة «الملك أوديب» Oedipus Rex . وعلى العموم ، يبدو

* أى لم يغادروها أثناء حملة القبارصة عليها (المترجم) .

(١) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٧٩ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٣١٨ وما يليها .

(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٨ وما يليها.

ان النويرى كقصصى هدفه الكتابة من أجل المتعة والتسلية ، قد قام بهذه المهمة بفصاحة وبلاغة (١) .

وقد يكون من غير المناسب ان نختتم هذا العرض دون أن نسجل أحدى صفحات النويرى البارزة على امتداد كتابه باكمله . فهو مسلم شديد التقوى والتدين ، ويجعله ايمانه الشديد اقرب التى التزمت . فاقتباساته من القرآن الكريم وأستخدامه للاحاديث النبوية ظاهر فى كل فصل من فصول كتابه . حقيقة انه اخذ ايضا عن الكتب المقدسة الاخرى ، وتزخر كتاباته باسماء الانبياء خارج دولة الاسلام ، ولكنه كان يسترشد فى كل احكامه ورواياته بآيات من القرآن الكريم وماجاء فى الحديث الشريف. ولوانه من الصعب قبول صحة كل ماسجله من أقوال عن الرسول (ص) . ومع ذلك ، فإنه من الاهمية بمكان ، فى ذات الوقت ، دراسة كل مانسب زورا وبهتانا إلى الرسول ، ومعرفة مصدر نسبتها إليه . فقد اصبحت هذه مع اقتباساته القرآنية واحالاته إلى الكتب الاخرى المنزلة ، جديرة بفهرس خاص (٢) .

ومع ذلك ، علينا ان نتذكر ان النويرى بدأ كتابه كسجل للكوارث والبلايا التى دمرت تقريبا المدينة العظيمة التى كان قد ولع بها . ولذا لانستطيع التغاضى ، بداءة ، عن علو قدره كمؤرخ لتلك الاحداث بالذات . وسنكرس الفصول التالية لدراسة تحليلية لـ «كتاب الإلمام» كمصدر عام لموضوعاته المختارة فى التاريخ الاسلامى ، ثم بعد ذلك كسجل لتلك الاحداث الخاصة بمدينة الاسكندرية مع التركيز على حملة عام ١٣٦٥ م المشئومة ، وذلك من وجهة النظر المصرية .

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٧ (فهرس الموضوعات) .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

الفصــل الثالــث

النويرى كمؤرخ

من الخطأ تعريف النويرى بالمؤرخ المحترف أو باعتباره واحدا من كتاب الحوليات ، اومحللى الاحداث فى عصره فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» . ومن الخطأ الجسيم ، فى ذات الوقت ، تجاهله كلية فى مجال التاريخ . فقد اسهم بالفعل اسهاما عظيما فى تحليل عدد من أحداث عصره ، وبصفة خاصة موضوع سلب القبارصة للاسكندرية ، حيث أمدنا بتفاصيل فريدة «فى نوعها» . وعلى اية حال ، إذا خرجنا عن هذه الدائرة ، يتضح انه كتب فى تمجيد الاسلام والامبراطورية الاسلامية عبر العصور . وجدير بالملاحظة انه سمح لنفسه اثناء جولاته واستطراداته بالخوض فى الحديث عن العديد من الامبراطوريات الاخرى التى ترجع إلى العصرين القديم والوسيط . وعلى العموم ، فإن أسلوبه فى عرض الحقائق هو أسلوب من يكتب لتسلية قرائه . إذ تناول الاحداث باسلوب اشبه بأسلوب الرواة الذى يركز على الناحية الدرامية والاسطورية اكثر من التركيز على الناحية الواقعية . ومن الصعب تتبع اصول المصادر التى استقى منها معلوماته بحرية مطلقة . ولكن من المؤكد انه اعتمد إلى حد بعيد على الكتابات الادبية العربية المتقدمة والتى كانت لاتزال موجودة «فى عصره» ، ثم اصبحت الآن فى حكم المفقودة .

اما عن كتاب الموسوعات الآخرين فى عصره ، ويحتمل أن يكون «صاحب الإلمام» » على معرفة بمؤلفاتهم ، فمن بينهم من يحمل نفس الاسم(١)

---

(١) شهاب الدين أحمد (بن عبد الوهاب بن محمد) صاحب كتاب «نهاية الارب» وقد توفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . انظر الفصل الثانى ، حاشية رقم ٨ .

وهناك ، أيضا العمرى (١) العظيم الذى توفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م .
ومن الصعوبة بمكان أن نضع مؤرخنا النويرى فى نفس مرتبة اى منها . وليس
باستطاعتنا ، كذلك ، ان نضعه فى مرتبة المؤرخين الآخرين المعاصرين له
تقريبا ، امثال الذهبي (٢) ، والصفدى (٣) ، وابن الفرات (٤) ، وأبن
خلدون (٥) ، وكثير غيرهم ممن خلفوا كتبا ومؤلفات تعتبر افضل من كتابه
كما انها نشرت قبل «كتاب الإلمام» بفترة طويلة . كذلك يجب ان نأخذ فى
الاعتبار ان النويرى كان على معرفة بمؤلفات الكتاب السابقين . . ثم ان معظم
الذين جاءوا بعده امثال ابن حجر (٦) ، والسخاوى (٧) ، كانوا فى نفس
الوقت على علم بكتابه ، ولو ان الاخير انتقده نقدا لاذعا .

وعلى اية حال ، يقف النويرى باعتباره حجة له ثقله فى حقل التاريخ

---

(١) اسمه بالكامل هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمرى القريشى الشافعى ، توفى سنة ظهور الوباء الاسود ، مخلفا العمل العظيم المعنون «مسالك الابصار فى ممالك الامصار» ، الجزء الاول ، نشر أحمد زكى باشا (القاهرة ١٩٢٤) . وثمة اجزاء منه تتعلق باليمن تولى نشرها ايمن فؤاد سيد (القاهرة ١٩٧٤) . وبه قسم عن المغول مصحوب بترجمة باللغة الالمانية بقلم كلاوس لخ Klaws Leck (طبع فيزبادن Wiesbaden سنة ١٩٦٨) .

(٢) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان قايماز بن عبد الله الذهبى التركانى الفارقى الشافعى (ت ٧ هـ/١٣٤٨ م) . له عدة مؤلفات فى التاريخ الاسلامى .

(٣) خليل بن ايبك بن عبد الله ابو الصفا (ت ٧٤٦ هـ/١٣٦٣ م) .

(٤) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م) . وقد نشر قسطنطين زريق جانبا من تاريخه (طبع بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وحسن الشماع (طبع البصرة ، ١٩٦٧ - ١٩٧٠) .

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) .

(٦) شهاب الدين بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) . انظر كتابه «الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة» ، ٤ جـ ، (حيدر آباد ١٩٢٩) ، جـ ٤ ، ص ١٠٤٢ .

(٧) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (ت ٩٠٢ هـ/١٤٩٦ م) . انظر كتابه «الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٢٢ .

على اساسين عـلى اقل تقدير . فإن ماسجله عن احداث حملة القبارصـة المشئومة على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م «٧٦٧ هـ» واحتلالهم القصير لهـا ، حسبما ذكرنا من قبل ، هو فى المقام الأول أو فى الروايات الاسلامية الموجودة وبسبب الاهمية البالغة التى تتمتع بها رواياته ، من ناحيتى الكم والكيف ، سوف نخصص الفصل التالى لدراسة تحليلية لمحتوياتها . هذا من ناحية ، ومـن ناحية اخرى يعد كتاب النويرى تكملة فريدة فى نوعها للدراسات الطبوغرافية الهائلة (أى الخطط) التى دونها اقدر استاذين فى اخريات العصور الوسطى وهما المقريزى (١) والسيوطى (٢) . وقد ركزا اهتمامهما على مدينة القاهرة ، بينما اختص النويرى بمدينة الاسكندرية . وفى هذا الخصوص ، سد الاخير فجوة فى المعلومات التى امكن الحصول عليها عن المدينة الثانية العظيمة فى مصر فى العصور الوسطى .

ومع انه لم يعد للكتابة المنسقة عن خطط الاسكندرية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ، إلا انه فى الواقع انجز مهمته تلك دون أن يوليها العنايـة الواجبة ، وذلك عند أستعراضه للاحداث المرتبطة بتاريخ المدينة فى القرن الرابع عشر . ولقد مكنته معرفته بجميع التفاصيل الطبوغرافية المتعلقة بالمدينة التى أتخذها موطنا له ، من أن يضمن دراسته معظم المعلومات والتفاصيـل ، أيا كانت ، عن بناء وتكوين مدينة الاسكندرية ، بما يعود بالفائدة على علماء الآثار المسلمين وعلى المشتغلين فى التاريخ الوسيط المتخصصين فى دراسة هذه

---

(١) تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) . وعنوان مؤلفه الذى يقع فى اربعة أجزاء (طبع القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨) هو «كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» .

(٢) ابو الفضل عبد الرحمن بن ابى بكر بن محمد جلال الدين السيوطى الشافعى (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) . وعنوان خططه هو «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» ، ٢ جـ . واحدث طبعاته تولاها محمد ابو الفضل ابراهيم (طبع القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٨) .

المنطقة . وفى حكم المستحيل أن نلم إلماما تاما فى مجرد مقال بكل العصور التاريخية والامبراطوريات التى تعرض لها النويرى . وكل مانستطيع حقا أن نفعله ، فى نطاق محاولتنا هذه ، هو تصنيف مادته وتقديمها للقارىء مزودة ببعض التوجيهات عن الخصائص الاساسية لنصوصه الضخمة والمتشابكة إلى حد ما . وجدير بالملاحظة انه كان يقطع تسلسل رواياته التاريخية ، بصفة عامة ، العديد من النكات والنوادر التى لها علاقة سطحية بالموضوع او التى لاتمت للموضوع بصلة . وثمة اقتباسات شعرية على امتداد الموسوعة تكشف عن اهتمام المؤلف الخاص بهذه الناحية الجذابة المشوقة ، وان كانت فى غير موضعها الطبيعى .

وفيما يتعلق بالتاريخ القديم ، ففضلا عن موضوع التراث الجاهلى فى شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام وهو الشىء الذى يتكرر على امتداد كتاب النويرى ، فإنه يبدأ بالحديث عن الامبراطورية الفارسية (١) . وهو يوجه عناية خاصة إلى كسرى انو شروان وابنه هرمزد نظرا لتقارب عهديهما من تاريخ ميلاد النبى محمد (ص) . ويتحدث بفصاحة عن الفتح العربى ، لامبراطورية «الفرس» الساسان . ولكنه يقلب فى الجزء الاخير من كتابه التسلسل الزمنى للوقائع والاحداث بالعودة إلى قصة الصراع بين دارا والاسكندر الاكبر (٢).

ويخصص النويرى ، بعد حديثه عن الامبراطورية الفارسية ، بضع صفحات عن الرومان مبتدئا بالحديث عن اغسطس (٣) ، ويزودنا بسرد مشوش عن

(١) الإلمام ، جـ ١ ، ص ٥١ و ٥٣ وما يليها .
(٢) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٤٣ وما يليها .
(٣) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٩٣ وما يليها .

حروبه مع انطونيوس وقلابطرة «كليوباترا» . وطبقا للمسميات العربية ينتقل إلى طباريوس «طيبريوس» وقلودس «كلوديوس» ثم بشبانس «فسبسيان» وطيطيس«طيطس» ثم طربان «تراجان» ودقيانوس «دقلديانوس» ، ثم يتعرض اثناء حديثه ، لمولد السيد المسيح ومعجزاته ، كما يشير إلى استشهاد القديس بطرس والقديس بولس وتشتت اليهود من اورشليم بين الامم .

ويشير النويرى باقتضاب إلى الاباطرة البيزنطيين (١) أبتداء بقسطنطين الكبير حتى ثيداسيس «ثيودوسيوس» وهرقل . وفى حديث موجز مشوش إلى حد مايستأنف كلامه عن الحروب البيزنطية مع الخلافة الاسلامية (٢) وثمة اشارات عارضة عن احداث هامة فى التاريخ البيزنطى مبعثرة فى مواضع متفرقة فى الاجزاء الاخرى «من الكتاب» ، وبصفة خاصة عندما ماخصص المؤلف حيزا ملحوظا للفتح العربى لبعض المقاطعات البيزنطية فى غرب آسيا وشمال أفريقية .

وفى موضع آخر من الكتاب ، يعود النويرى للحديث مرة اخرى عن قصص وحكايات ترجع إلى عهود قديمة عن ملوك فى العصور السحيقة الغابرة ويتحدث باسهاب عن الملوك الكفار الجبابرة من ذرية آدم (٣) ، ثم يخصص بعد ذلك فصلا مطولا عن تاريخ مصر القديم وآثارها (٤) . وهنا يتحدث النويرى عن الاهرامات والمعابد والتوابيت الحجرية والمقابر وعلم التنجيم والسحر وبعض الحفريات . ونجد فى النص أسماء ملوك مصر الذين يصعب

---

(١) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٩٧ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٥٧ وما يليها .

(٣) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٨٤ وما يليها .

التعرف على شخصياتهم (١) . ومن الواضح انه اعتمد على احد المصادر العربية المغمورة كتبه شخص يدعى الوصيفى (٢) . ثم يسرد محاولة الخليفة العباسى المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) حفر مدخل للهرم الاكبر بالجيزة اثناء زيارته لمصر بهدف اخماد ثورات القبط فى الدلتا . ولاتزال هذه الفتحة التى نحتها المأمون فى جانب الهرم تستخدم فعلا كمدخله الوحيد حتى يومنا هذا . وكان الهدف الاساسى لهذا الخليفة ومن تبعه من خلفاء هو البحث عن كنوز الذهب المخبأة بداخله . ونجد مثلا آخر بهذا الخصوص فى عهد الخليفة جعفر المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) الذى تابع واليه فى مصر المسمى ابن المدبر هذه الحفائر فى مكان آخر .

ثم تولت الدولة بعد ذلك ، فى عهد كل من الطولونيين(٨٦٨ — ٩٠٥م) والاخشيديين (٩٣٥ — ٩٦٩ م) ، اعمال الحفر المنظم ، وعثرت على كنوز طائلة وان كان معظمها عبارة عن تماثيل وتوابيت حجرية ومومياث . وبالرغم مما اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب من محتويات متنوعة غير مألوفة الا انه يقدم لعلماء الآثار المصرية معلومات قيمة لما وصلت إليه الدراسات الاثرية فى العصور الوسطى .

ان الاحداث التاريخية المختلفة المتباينة التى حاول النويرى تغطيتها دون خطة محددة ، لهى شديدة الوفرة والتنوع والتشعب والتداخل ، حتى اصبح من الصعوبة بمكان تقدير جهده فيها دون استخدام فهارسنا الشاملة . فهى ، أولا ، تدور حول الاحداث المشئومة لمدينة الاسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» . إذ انبرى لجميع النواحى ،

(١) انظر على سبيل المثال ، نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٣٣٢ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٩٠ .

مع التركيز على مسألة واحدة ألا وهى الانتصارات التى حققتها حركة الفتوحات المبكرة وانتشار الاسلام فى عالم مرهق منقسم على نفسه ، وقد تمزق بين المسيحية الغربية وثيوقراطية دولة الساسان الشرقية ، وكثيرا مايروى القصص والنوادر التى يمكن ان تكون ذات فائدة فى إلقاء الضوء على التاريخ الاجتماعى لتلك الفترات الغامضة . ومع أنه كان يستهدف المتعة والتسلية ، إلا انه حشد دون قصد قدرا هائلا من المعلومات عن الاسلام فى تلك الفترة المبكرة .

ويستعرض «كتاب الإلمام» ايضا ، اسماء العديد من الصحابة بما يطابق ماجاء فى معظم الحوليات المعروفة الاخرى. وبالاضافة إلى ذلك ، فإن المؤلف يعيد صقل هذه المعلومات بعد تضمينها تفاصيل شخصية شيقة أغفلتها كتب الحوليات والسير والتراجم والوفيات الهامة . وينطبق هذا الحكم العام تماما على الخلفاء الراشدين (١) ، والامويين (٢) ، والعباسيين (٣) . وكان النويرى فى بعض الاحيان يحيد عن طريقه ليعدد نقاطا معينة ذات طابع خاص ، والتى لابد وان يكون قد جمعها من مصادر متنوعة معروفة او مجهولة او مفقودة .وثمة مثال آخر غير عادى هو حصره لألقاب الخلفاء ، إلى جانب مظهرهم الشخصى والسمات التى تتميز بها شخصية كل واحد منهم (٤) .

ويتضح اهتمام النويرى بتاريخ وطنه مصر بالذات فيما سجله عن كل دولها وممالكها الاسلامية (٥) . فهو يحدثنا عن الحكم السنى فى عهد الاسرتين

(١) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ وما يليها و جـ ٥ ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٥٦ وما يليها و ٢٩٦ وما يليها و جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٣) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٣ وما يليها و ٣٤٩ وما يليها .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ وما يليها .

(٥) يتضح اهتمام النويرى بتاريخ مصر فى اطار علم السياسة الاسلامية فى الجزء الثالث من الكتاب ، حيث جمع ما ورد عن مصر فى القرآن الكريم (ص ٢٧٤ – ٢٧٨) ، وحصر الرسل و الانبياء والصحابة ورجال العلم من المسلمين و كذلك الشيوخ والابرار ومشاهير الأدباء الذين دخلوا مصر (ص ٢٨٠ وما يليها و ٢٨٨ وما يليها) .

الطولونية والاخشيدية تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية فى بغداد (١) قبل انتقال السلطة إلى الخلافة الفاطمية الشيعية بعد غزو القائد جوهر الصقلى مصر (وهو المواطن الصقلى الذى يدعوه النويرى بالرومى) عام ٩٦٩ م . وقد اعد ملخصا عن حياة الخلفاء فى ظل النظام الجديد حتى نهاية حكمهم فى عام ١١٦٩ م عندما قبضت الدولة الايوبية على زمام الحكم تحت زعامة السلطنة السنية لصلاح الدين . (٢)

وان اهتمام «كتاب الإلمام» بموضوع الفتح العربى لمصر يفوق اهتمامه بكل تلك الاسر الحاكمة «المشار إليها» . ويفرد له المؤلف حيزا كبيرا . ومن الواضح انه اعتمد إلى حد بعيد على مؤلفات الواقدى (٣) الذى تخصص فى سرد مغازى الرسول وفتوحات الخلفاء الراشدين . ومع ذلك ، فقد حصر النويرى معظم رواياته فى فتح دلتا النيل ، أكثر من اهتمامه بالتفاصيل المتعلقة باستيلاء عمرو «بن العاص» على حصن بابليون (عام ٦٤٠م) الذى أشار إليه بإيجاز فى بداية الكتاب . (٤) فقد استولى العرب المسلمون عنوة وهم فى طريقهم إلى الاسكندرية على مدينة ترنوط القبطية ، وذاك بمعاونة امرأة ما كانت تعمل فى قصر الحاكم تدعى رينى . وهى اخت مارية القبطية التى كان المقوقس صاحب مصر «من قبل

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ١٦ وما يليها . هذا ، وقد وردت الاشارة إلى احداث هامة معينة فى مواضع أخرى من الكتاب ، مثل قصة أحمد بن طولون والقاضى بكار بن قتيبة (جـ ٣ ، ص ٢٨٨ وما يليها) .

(٢) وردت الاشارة إلى الدولة الأيوبية فى الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٤٩ — ٥٠ ونجد معلومات أوفر فى نفس الجزء عن صلاح الدين والدولة الايوبية . انظر ص ٦٢ — ٧٤ .

(٣) ابو عبد الله بن عمر الواقدى ، المؤرخ المعروف للفتوحات العربية المبكرة . وقد عاش فيما بين القرنين الثامن والتاسع للميلاد (القرنان الثانى والثالث الهجريان) . نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

(٤) الإلمام ، جـ ٢ ، ص ٣٠ وما يليها .

بيزنطة» قد اهداها للنبي محمد ، واصبحت احدى زوجاته . وكانت ريني ترغب فى عدم ترك اختها ، وكانت تلك هى فرصتها عندما وعدها بذلك القائد المسلم خالد بن الوليد مقابل خدماتها فى سبيل الاستيلاء على المدينة . وهكذا فتح هذا النصر الطريق إلى الاسكندرية امام العرب الذين واجهوا أول كتائب للعدو وابادوها عند دير الزجاج (الهانطون اليونانية) (١) الذى يقع على مسافة نحو تسعة اميال جنوبى العاصمة «الاسكندرية » . وكان برفقة الكتيبة البيزنطية مجموعة من الرهائن العرب الذين قبض عليهم البيزنطيون اثناء غارة على طبرية والساحل السورى . ومالبث أن تولى حكم الاسكندرية رسطوليس الذى ذبح اباه المقوقس بسبب استسلامه لعمرو ، واعتقد ان باستطاعته استخدام اولئك الاسرى كرهائن فى المفاوضات الاخيرة مع العرب ولكن هؤلاء حصلوا على حريتهم فى مدينة الهانطون ،ولم يكن امام رسطوليس سوى خوض الحرب لانقاذ المدينة وقد أنعقدت آماله على وصول الامدادات من سيرنيكا . ولكن تبين ان هذه التعزيزات كانت بطيئة الحركة سريعة الارتباك لدرجة انه لم يكن بوسعها الانضمام إلى البيزنطيين اخوتها فى الدين دفاعا عن الاسكندرية . ويروى النويرى قصة انفتاح ثغرة فى تلك الاثناء فى الاسوار الحصينة بمعجزة عند صلاة شر حبيل (٢) ، وهو كاتب رسول الله ومن صحابته.وفى تلك اللحظة انسحب رسطوليس ورجاله إلى اعالى البحار ، بينما لاذت الجيوش القادمة من سيرنيكا بالفرار عائدة إلى ديارها عند سماعها خبر دخول العرب العاصمة تحت قيادة خالد «بن الوليد» .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، فرض المسلمون ضريبة جماعية على المواطنين

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) شرحبيل بن حسنة . نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٥٣ .

قدرها مائة ألف دينار . وفى تلك الاثناء عرضوا على المواطنين اما اعتناق الاسلام او دفع الجزية بواقع اربعة دنانير للفرد الواحد . وكلف احدالاقباط ويدعى أشعيا بن شامس (١) بجمع المبالغ تحت رقابة رفيق عربى يدعى قيس ابن سعد . ويختتم النويرى قصته بمأساة مواطن ثرى يدعى تولين (٢) اشتهر بالبخل ، واراد التهرب من دفع نصيبه بالتظاهر بالفقر . فلعنه قيس قائلا : «فوالله ! مامضى يومهم ذلك حتى جاء الخبر ان اغنامه هلكت جميعا ، وبساتينه قد يبست ودياره واملاكه قد تهدمت ، وامواله قد مضت» (٣) .

ثم مالبث أن توافدت الوفود من المدن الاخرى فى مصر السفلى لاعلان خضوعها للمنتصرين بمحض رغبتها ، ملتمسة الامان . وكانت رشيد وفوة والمحلة وكل مديرية البحيرة (٤) ممثلة فى تلك الوفود . وانحسرت المقاومة المتبقية فتمط فى ميناء دمياط البحرى الهام عند فم فرع النيل الشرقى . وكان يحكم هذه المنطقة الهاموك خال المقوقس المتوفى . فأرسل خالد فصيلة مكونة من اربعين فارسا بقيادة المقداد بن الاسود للتفاوض فى امر استسلام المدينة . ولكن الهاموك رفض النصيحة بالاستسلام التى كان قد أسداها له وزيره الدراجان (٥) الذى اعدمه . وبذلك اثار حنق ابن الدارجان الذى تآمر عن طريق المخادعة بالسماح للعرب بدخول المدينة عبر فتحة فى السور . ويمكن تلخيص مشاهد الاحداث التالية فى تلك الاعمال الاستطلاعية البسيطة بين جماعة الهاموك والمسلمين ، والتى تتضمن اعتناق عائلة الدارجان القوية الاسلام

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

وفى المرحلة التالية من الصراع سقط احب ابناء الهاموك إليه ويدعى شطا (١) من فوق ظهر جواده وفقد الوعى . وعندما ثاب إلى رشده روى رؤيا تراءت له من السماء شاهد فيها جنود العرب فى زى اخضر تحت قباب عجيبة ومعهم فتاة جميلة تدعوه إلى الاسلام . وبذلك عبر إلى الجانب الاسلامى ، ثم مالبث أن حذا الوالد المؤمن حذوا ابنه المؤمن . وهكذا اعتنقت دمياط الاسلام .

ثم اعقب ذلك بقصة اخرى روائية تدور حول مدينة تنيس (٢) عاصمة مصر القديمة والتى كان يحكمها عربى نصرانى يدعى ابو ثور من قبيلة بنى غسان الذين تحصنوا فى خنادق على جزر بحيرة المنزلة . فقرر المعتنقون للدين الجديد فى دمياط ارسال وفد تبشيرى لدعوة ابى ثور واتباعه للدخول فى دين جيرانهم وهو الاسلام . وتطوع شطا بن الهاموك بالقيام بهذه المخاطرة ، ورافقه يزيد ابن‌عامر ، ذلك العربى المقيم فى دمياط واحد رفاق الرسول . وانتهت هذه المهمة بالفشل بالرغم من المعجزات التى قام بها المبشرون المسلمون والتى عددها النويرى «فى كتابه» . وعندما فشلت الدعوة السلمية ، اصبح لزاما استخدام القوة لارغـام ابن ثور على دخول الاسلام. واثناء العمليات الحربية التى تلت ذلك ، ظهرت لشطا رؤيا تتعلق بالفردوس الاسلامى الذى وصفه النويرى وصفا حيا . ولكن فى النهاية ، قام ابو ثور بذبح شطا ، وطارد الهاموك وحلفاءه حتى بوابات مدينة دمياط ، حيث بدأت تلوح فى الافق التعزيزات العربية التى تستهدف ازعاج المنتصر واحباط جهوده . فانزلت الهزيمة بابى ثور واقتيد اسيرا ثم اطلق سراحه بعد اعتناقه الاسلام . وبذلك تم فتح الدلتا فى العام السادس والعشرين بعـد الهجرة ، اى فى عام ٦٤٧ ميلادية. ومن الأهمية بمكان ان نعرف ان شطا دفن فى نفس الموقع الذى سقط فيه ، واعتبرت

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٧٣ .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٧٥ وما يليها .

مقبرته من اقدس الأضرحة فى الاسلام . واستمر الحجاج الاتقياء من جميع الجهات يتوافدون عليه حتى وقت تأليف «كتاب الإلمام» (١) .

وان الاهتمام بتلك القصص التاريخية يتعدى ماوراء المعارك والانتصارات فيزودنا المؤلف فى ثنايا اقواله بالكثير من التفاصيل الطبوغرافية لبلاده . فثمة وصف نادر لأسوار وحصون دمياط واستحكاماتها وبواباتها العديدة المنيعة إلى جانب التفاصيل المتعلقة بعرش ابى ثور والايقونات المسيحية المحيطة به .

وجدير بالملاحظة ان النويرى كان يتنقل فى سرده للأحداث برفق وهدوء باحثا عن الفرص التى يتحدث فيها عن انتصارات الاسلام . ولو انه ، كان من آن لآخر ، يشذ عن تلك القاعدة بذكر نكسات اليمة احاقت بالاسلام . وربما كان اشد الفصول ايلاما فى هذا الصدد هو غارات القرامطة على الحجاز وسقوط مكة المدينة المقدسة فى قبضة ابى طاهر صاحب البحرين (٢) عام ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م . وليس هناك مثيل للاهوال التى صاحبت تلك الغزوة فى الحوليات الاسلامية . فقد ذبح الحجاج والمواطنون دون تميز ، والتى بجثثهم فى بئر زمزم المقدسة حتى امتلأت إلى آخرها بالموتى واجساد أولئك الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الاخيرة . ويقدر عدد الشهداء بثلاثين الف ، بخلاف النساء والاطفال الذين أقتيدوا كرقيق . وقد أعمل السلب والنهب فى الكعبة . وقطع الحجر الاسود من مكانه ، ونقل بعيدا لفترة اثنتين وعشرين سنة . وبذلك ترك الخوارج اطهر منطقة فى الاسلام فى حالة فوضى دامية ، لمدة ستة ايام .

وكانت الحادثة الاخرى التى طاولت مابلغه خطر أنتهاك القرامطة لحرمة

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩١ .
(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٢ وما يليها .

المقدسات هى غزو التتر لبغداد عام ١٢٥٨ م (١) تحت قيادة هلاكوخان «هولاكو خان». وقد وقع المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس تحت حوافر خيول التتار حتى تمزقت جثته اربا ، ولم يكن من السهل تجميع اشلائها . كما صودرت كنوزه وقتل اولاده الثلاثة مع ثمانمائة من اقاربه . وحمل الف من العذارى بعيدا عن قصره . واستمر هولاكو فى اعمال الذبح فى الاهالى لمدة اربعة عشر يوما بمعدل ٥٠,٠٠٠ فرد فى اليوم الواحد ، وبذلك أصبح مجموع القتلى فى النهاية ٧٠٠,٠٠٠ ملأت جثثهم الشوارع برائحتها الكريهة ، وتفشى وباء الطاعون فى المدينة ، بل تعدى انتشاره حدودها .

وفى مواجهة هذه المآسى الفظيعة التى كانت تقف على قدم المساواة مع سلب الاسكندرية عام ١٣٦٥ م ، جد النويرى فى البحث عن انتصارات اسلامية تكون بمثابة رد فعل لتلك الهزائم المنكرة بهدف رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . ويزخر كتابه بأشارات إلى الانتصارات الاولى فى صدر الاسلام فى منطقة الهلال الخصيب ضد الدولة البيزنطية وامبراطورية الفرس الساسان . وهكذا تناول بالمديح والثناء فتح العرب لمصر والتقدم فى شمال أفريقية كما اسلفنا . فهو يمجد دفاع المسلمين البطولى ضد استعادة المسيحيين لاراضيهم فى شبه الجزيرة الايبرية ، مع ان الحرب «بين الطرفين» بدأت بداية سيئة لحد ما بالنسبة للسلطان ابى الحسن المرينى (٢) ، الذى هزم هزيمة منكرة خارج مدينة طريف «بالاندلس» ويحتمل أن تكون هذه هى معركة ريوسالادو Rio Salado عام ١٣٤٠ م التى لم يرد ذكرها «فى الكتاب» عن عمد

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ وما يليها .

(٢) اسمه بالكامل حسبما ورد فى الوثائق هو «ابو الحسن بن على يعقوب بن العباس المرينى» . انظر نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٩٥ . وفيما يتعلق بالحرب كلها ، انظر جـ ٣ ، ص ١٨٣ وما يليها .

و كان المنتصر فى ذلك اليوم هو الفونس ملك النصارى (١) المعروف باسم الفونسو الرابع (١٣٢٥ — ١٣٥٧ م) بطل البرتغال الشجاع . وكان الملك البرتغالى متحالفا مع قشتالة التى حارب ملكها الفونسو الحادى عشر صراحة إلى جانبه والذى يحمل نفس الاسم . ومع ذلك سرعان ماانتقم السلطان ابن الاحمر (٢) لهذه الهزيمة ، فاخترق بلاد الاندلس واستولى على الجيسيراس Algeciras (٣) والجهات المحيطة بها عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م اى بعد مرور سنة واحدة على كارثة الاسكندرية . وبذلك عاد المسلمون الذين التى بهم خارج شبه الجزيرة للاستقرار مع ابى الحسن مرة اخرى فى ملكهم القديم بعد ذبح المسيحيين . وإذا اخذنا بما قاله ابن الاحمر وروايات النويرى لوجدنا ان فتوحات السلطان امتدت ، فيما بعد ، إلى مدن جيان Jaen (٤) «جنوب الاندلس» وأبده (٥) «شمال شرقى جيان» واطريره (٦) Utrera «جنوب الاندلس ، وإلى قرى وقلاع اخرى بلغ مجموعها ثمان وأربعين (٧) وبهذه المناسبة يقتبس النويرى دليلا من الوثائق يتضمن خطابين (٨) متبادلين

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ وحاشية رقم ٥ .

(٢) الاسم بالكامل هو : ابو عبد الله محمد بن يوسف الملقب ابن الاحمر . انظر نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٣١٨ . انظر أيضا جـ ٥ ، ٣١٧ ح ٥ حيث عرف باسم محمد الخامس الغنى بالله سلطان غرناطة .

(٣) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ وما يليها .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٩ وحاشية رقم ٥ .

(٥) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٢٥ وحاشية رقم ١ .

(٦) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٢٧ وحاشية رقم ١ .

(٧) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٣١ . هذا ، وغير معروف معظم تلك القلاع .

(٨) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ — ١٩٧ . وليس بوسعنا تتبع أصول تلك الخطابات فى المصادر المنشورة .

بين ابى الحسن المرينى وعدوه الفونس(الفونسو) ، كما يتضمن رسالة (١) تحوى المزيد من التفصيلات موجهة من ابن الاحمر إلى سلطان فاس المرينى فى شمال أفريقية ، يبلغه فيها بانتصاراته على«القند (٢) ملك النصارى .»

وأن ماسبق ذكره من روايات يمكن اعتباره بمثابة امثلة توضيحية تتعلق باهتمام النويرى بالحروب الاسلامية عبر العصور الوسطى . ويزخر «كتاب الإلمام» باشارات إلى معارك اخرى ، مابين صغيرة وكبيرة ، ومعروفة وغير معروفة ، والتى ربما يكون سردها امرا مملا عديم الفائدة . ومع ذلك ثمة امر واحد يبرز بوضوح فى خضم التكرار فى هذا الموضوع ، إلا وهو المادة الوفيرة التى حشدها المؤلف أثناء حديثه عن أدوات الحرب والقتال عند المسلمين ، وقد رأينا أنه جدير بفهرس خاص به (٣) . هذا ، بالاضافة إلى تكتيكات واستراتيجية المقاتلين المسلمين . وان هذا العرض الموجز للكتاب يتميز بقيمته التى يصعب تقديرها بالنسبة للطالب الذى يدرس الفنون الحربية الاسلامية فى العصور الوسطى (٤) .

وتبدو قدرة النويرى الحقيقية «كمؤرخ» (٥) بوضوح اكثر فى المواضيع

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٨ وما يليها . هذا ، والوثيقة مكتوبة باسلوب غريب، لم يتسن تتبعه فى المصادر المنشورة . وليس معروفا من اين حصل النويرى على تلك الخطابات .

(٢) أى «الكونت ملك المسيحيين» . ولقب «قند» مشتق من الكلمة الاسبانية Conde والفرنسية Comte . وربما يكون هذا الشخص هو احد اشراف مملكة قشتالة فى عصر بطرس الرهيب (١٣٥٠ — ١٣٦٩م) . انظر جـ ٥ ، ص ٣١٧ — ٣١٨ وحاشية رقم ٦ .

(٣) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٤) عند عقد المقارنة بين ما خلفه النويرى وبين الدراسات المتعلقة بفن الحرب والقتال فى الغرب ، ليس هناك ما هو أفضل من تآليف شارل اومان Charles Oman وج . كيهلر G.Kohler وم . دلبريك M.Delbruck وف . لوت F . Lot

(٥) تعنى علامات التنصيص حول وصف النويرى كمؤرخ .

التى يناقش فيها احداث وشخصيات عصره كشاهد عيان أولا وقبل أى شىء آخر . هذا ، وبدون التعمق والاسهاب فى موضوع الاسكندرية الذى أرجاناه للفصل التالى ، فإننا يجب ان نعتبر تناوله «لدولة» المماليك البحرية (١) اعتبارا من سلطنة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٦٧ م) تقريبا وحتى حكم السلطان المعاصر للنويرى نفسه وهو الاشرف شعبان (١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) . بمثابة اضافة مفيدة إلى مؤلفات المقريزى (٢) العظيمة وإلى مدرسته ، ولو أن ما اورده فى هذا الخصوص مختصر نسبيا . ويزيد من قيمة تلك التفاصيل الدقيقة والفترات التاريخية المحددة التى يرويها النويرى ، انها لاتظهر فى كتب الحوليات المعروفة . وهو فوق هذا وذاك ، يقدم لنا سجلا غنيا بكل الاعمال التى قام بها امراء المماليك (٣) فى عصره ، ومكانتهم فى الادارة سواء كانت اقليمية أو مركزية . وأن وصفه لموكب السلطان شعبان فى الاسكندرية (٤) ، الذى رآه كشاهد عيان ، لهو قطعة فنية تذكرنا بالعظمة الاسطورية للمواكب والاحتفالات البطلمية فى نفس المدينة قبل عصره بنحو سبعة عشر قرنا من الزمان .

ولم يدعم النويرى اقواله ، فى كثير من الاحيان ، بالوثائق الاصلية . وكانت المقتطفات الشعرية هى الامر المفضل عنده ، متمشيا فى ذلك مع ميوله الادبية . ورغما عن ذلك ، نجده فى احدى المناسبات يقتبس وثيقة أصلية

---

(١) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٨٦ وما يليها و ٢١٢ وما يليها و ج ٤ ، ص ٧٥ وما يليها و ج ٥ ص ٢٣٥ وما يليها و ٢٥٤ وما يليها و ٣٨٠ — ٣٨١ و ج ٦ ص ١ وما يليها و ١٦ وما يليها .

(٢) اهم مؤلفاته هو كتاب السلوك فى اربعة اجزاء تشتمل على عدة اقسام ، نشره محمد مصطفى زيادة وأتمه سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٧٣) .

(٣) الإلمام ، ج ٧ ، فهرس رقم ١ . انظر ايضا الحاشية التالية .

(٤) نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ، ج ٦ ، ص ١ — ٤ .

باكملها ، وهى تعتبر من اهم الفرمانات او المراسيم الرسمية (١) لمصر المملوكية . وقد أشار كبار كتاب الحوليات فى اخريات العصور الوسطى إلى هذا المرسوم بإيجاز (٢) . ولكننا لم نعثر عليه كاملا إلا فى «كتاب الإلمام» وكان النويرى يستهدف من هذا المرسوم وتاريخه سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ، توضيح ولاية السلطان الناصر بن محمد الثالثة (١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) الجديرة بالاهتمام . وهو يتميز بطابع دستورى شامل له اهميته القصوى ، لانه يعالج تقريبا كل ناحية من نواحى الاقتصاد والمجتمع المصرى . وقد صدر المرسوم بعد إجراء مسح عام للبلاد ، وبعد تقرير نظام جديد وعادل للضريبة على الارض فى سجل يعرف باسم «الروك الناصرى» (٣) ومع أن نص المرسوم كما هو موجود فى النسخ الخطية توجد به فجوات مفقودة ، إلا ان الوثيقة فى معظمها على حالتها الاصلية ، وتقدم قائمة تحليلية مفصلة ونادرة للمشاكل الوطنية التى سعى السلطان إلى حلها .

فبعد المقدمة او الافتتاحية التى يمجد فيها كتاب البراءة او المرسوم سلطنة الناصر ، يذكرون الدوافع الخيرة التى دفعت السلطان إلى منحه لرعاياه ، بهدف ازالة مساوىء تشريع سابق ، ومؤكدا لهم امنهم وامانهم . وكل مانستطيع [illegible] هنا لبيان قيمة تلك الوثيقة هو جدولة المواد التى اشتملت عليها جدولة تحليلية .

---

(١) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٤٦ — ١٥٤ .

(٢) انظر على سبيل المثال ، السلوك للمقريزى ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ — ١٥٢ ؛ ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص ٤٩ — ٥٠ ؛ ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٢٨٦ .

(٣) وكان هذا هو آخر مسح عام للأراضى بهدف ربط الضرائب على أساس عادل . وقد خصص المقريزى لهذه المسألة جانبا من خططه (طبعة القاهرة فى أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ) ، ج ١ ، ص ١٤١ — ١٤٧ . وجاء قبله روك صلاح الدين الذى جمعه ابن مماتى (كتاب قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .

١ - إسقاط الرسوم المفروضة سابقا على الغلال الواردة إلى سواحل القاهرة واعمالها ، ويمنع تكرار ازدواج ضريبة الدرهم الفرد عند تفريغ الغلة وبيعها .

٢ - ابطال نصف ضريبة السمسرة التي يؤديها جميع السماسرة والمنادين.

٣ - ابطال المقدمين ومقرراتهم ومايضم إلى ذلك من الاعلاف التي يطالبون بتقديمهـا لبغالهـم ودوابهـم .

٤ - أبطال رسل الدولة والمترددين عن البلاد ، مع ضمان الأمن للرعايا.

٥ - نواب الامراء الذين يقررونهم ببلادهم هم نواب عن مجلس الحرب ، ويجب على الوالى الذى يتمتع بكافة الصلاحيات التصدى لإزالة التعدى على حقوق الافراد .

٦ - المفسدون الهاربون والقتلة ومرتكبوا الجرائم الذين يهربون إلى بلد غير بلدهم ، يجب ان يلقى ولاة تلك الناحية ومشايخها وخفراؤها القبض عليهم ، واعادتهم إلى بلادهم الاصلية او تسليمهم إلى والى الحرب فى تلك الناحية . ويجب الا يمكن هؤلاء المفسدون والمعتدون من اقامتهم يوما واحدا او ساعة واحدة . ولأرباب الدولة سلطة استخدام «سيوفنا» ضدهم بالتوسيط والشنق والتسمير على نخيل تلك البلدة .

٧ - الفلاحون المنتجعون من بلدة إلى اخرى بسبب القحط ، والذين يأويهم الاهالى يستطيعون البقاء فى تلك البلدة حتى موسم الحصاد ، ثم يرجعون إلى بلادهم الأصلية .

٨ - لايمكن أحد من الولاة ولانوابهم ولاالمتحدثين عنهم ولاالكتبة ولاالجباة ، من جباية رسم استثنائى مياومة او مشاهرة ، ومحظور عليهم أيضا تناول جامكية اكثر من الدرهم الفرد .

٩ - ابطال حقوق السجون ومقرراتها وضمانها ، ومنع التعرض لأخذ الدرهم الفرد منها .

١٠ - لاتجبى اى مبالغ عن الجسور والترع والقنوات ، ولاتفرض أى رسوم على تسليف الادوات الزراعية ، او على القش والابقار والحولة والمهندسين . وعلى كل بلد ان يلتزم مقطعها بعمل مايجب عمله من غير رجوع إلى العوائد القديمة .

١١ - ابطال طرح الفراريج على البلاد ، أو أى شيء آخر (١) .

١٢ - ابطال مقرر الفرسان ومقرر الخيل الذى كان يستأدى وقت حركات الجيوش .

١٣ - لايؤخذ مقرر ملاهى لمن يعمل فرحا ومن أعرس أو كتب كتابه او كان عنده ختان . ولايطلب إلا من كان عنده أحد من الغوانى والملاهى .

١٤ - المسامحة بثمن العبى التى كانت تقررت على عامة الناس :

١٥ - ابطال المقرر من التبن والقش لمعاصر الأقصاب لمدة عام ، ويسمح بشراء التبن بثمنه ورضى أصحابه .

١٦ - ابطال حماية المراكب النهرية ، وان لايعود احدمن الامراء وارباب

---

(١) يبدو أن هذه الاشياء كانت تمنح عينا بدلا من الدفع النقدى للضرائب .

الجهات يحمى مركبا ولايستأدى من الحماية حقا (وهذا يعنى توفير الحماية بدون أجر) . ولايتعرض أحد إلى المراكب بغير حق يشهد به الديوان .

١٧ — لايطالب الحى عن الميت ، ولاالمقيم عن الخارج ، ولاالحاضر عن عن الغائب ، مالم يكن ضامنا او كفيلا او ملتزما .

١٨ — المسامحة بما انساق للامراء والمقطعين من البواقى فى بلادهم من الخراج والضمان وإلى آخر مغل سنة ٧١٤ هـ .

١٩ — اعفاء جماعة الفلاحين من ضيافة القدوم عند انتقالات الاقطاعات فى سنة الروك .

٢٠ — ابطال عداد النحل حسب مايشهد به الديوان .

٢١ — إبطال زكاة الرحالة المسلمين بالديار المصرية بالوجهين القبلى والبحرى . كما ينسحب هذا الامر على اليهود والنصارى ، إلا على حكم التصقيع .

٢٢ — إبطال جميع البدول من الولاة والنظار المستوفين وأرباب الوظائف جميعا أعتبارا من أستقبال شهر صفر سنة ٧١٦ هـ . *

وتنص الخاتمة على حتمية تنفيذ بنود هذا المرسوم فى القاهرة وجميع الاقاليم بدون استثناء وبدون ارضاء مدينة على حساب الاخرى . وتنص ايضا على ان جميع الولاة والامراء والحكام ورؤساء العمال ونظار الخاصة ومحصلى الضرائب وجميع سلطات الدولة ، ملزمون بتنفيذ نصوص هذا الفرمان حرفيا

---

* رأينا الالتزام ، قدر الاستطاعة ، بنص المرسوم وحرفيته كما ورد فى الإلمام (المترجم) .

دون تفسير أو تبديل. ويحمل الفرمان فى بدايته توقيع السلطان بما يتفق والتقاليد الدبلوماسية المتبعة فى العصور الوسطى . وينتهى بتاريخ اصداره فى ١٨ من ذى الحجة عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م .

ويحتمل أن يكون هذا المرسوم هو اكثر المراسيم المتعلقة بالحريات فى مصر إبان العصور الوسطى إثارة للدهشة . وهو اشبه مايكون بوثيقة «العهد الاعظم» Magna Carta ، مع فارق وهو ان السلطان منحه عن طيب خاطر ولم ينتزع قسرا من الملك . وبذلك يبدو أن« الميثاق المذكور» كبح جماح الادارة المركزية والحكومة المحلية واستبدادهم بعامة الشعب . وقد شاهدت الولاية الثالثة للسلطان الناصر محمد تغييرات عظمى فى اقتصاد مصر ، ولابد انها هيأت «فرص» العدالة الاجتماعية للرجل العادى . ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان كانت روح هذا الميثاق قد احتفظ بها خلفاء الناصر . ويمكن التثبت من ذلك مما كتبه مؤرخو مصر فى اواخر العصور الوسطى ، ومن بينهم النويرى الذى ندين له بمعرفتنا بكافة مواد هذه الوثيقة الدستورية العظيمة .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ

ليس فى نيتنا هنا ان نسرد من جديد القصة الكاملة للحملة الصليبية على الاسكندرية فقد سبق ان تناولناها ، اعتمادا على مختلف المصادر من شرقية وغربية ، فى دراستنا المستفيضة ، بعنوان «الحروب الصليبية فى اواخر العصور الوسطى»(١) وهدفنا هنا تحليل ذلك القدر الهائل من المعلومات الذى سجله النويرى كشاهد عيان ، او ذلك الذى جمعه بنفسه نقلا عن الروايات التى سمعها من شهود العيان الآخرين . ومعروف ان الحقائق التى قدمها المؤلف توجد مبعثرة متناثرة على امتداد كتابه ، وقد تقطعت اوصالها بسبب كتابته فى مجالات عديدة ليس هناك اى رابطة تجمع بينها . لذلك ، فإن رواياته تحتاج إلى جهد لتنسيقها ، وهو مانأمل تحقيقه فى هذا الفصل .

ان هذا الكتاب المطول ، كما يدل عنوانه ، بدأ اساسا بهدف تدوين الاحداث المشئومة «التى قدر» ان تحل بمدينة الاسكندرية . ومع ان المصنفات التاريخية العربية الاخرى التى ترجع إلى أواخر العصور الوسطى . قد افسحت مكانا مناسبا لتلك الاحداث ، إلا أن ايا منها لايستطيع مباراة «كتاب الإلمام» فيما يتعلق بحجم المعلومات التى قدمها خاصة بتفاصيل القصة . وسيظل النويرى هو مصدرنا الرئيسى الموثوق به فى هذا الموضوع من وجهة النظر المصرية .

---

(١) الكتاب طبع لندن(نشر (.Methuen & Co. Ltd)(سنة ١٩٣٨ . وفيه قائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ، ص ٣٤٥ – ٣٧٨ والحواشى . وعلى ذلك ليس ثمة ما يدعو إلى اجمالها هنا .

ووفقا لرواية المؤلف ، فإن قصة كارثة الاسكندرية تبدأ بمجموعة من التحذيرات التى وجهها عدد من الشيوخ الابرار فى ارجاء مختلفة من العالم الاسلامى (١) . ويرجع تاريخ تصريحاتهم التى تنبأوا بها إلى السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر الميلادى «أواخر القرن السابع الهجرى» فى بلاد مابين النهرين ، والتى سجلها شخص يدعى الباجربقى (٢) فى ملحمته التى نظمها عن الحروب الصليبية ضد كل من سورية والاسكندرية . وقبل سقوط المدينة بوقت قصير يروى النويرى اربعة منامات عن الكوارث الفادحة المنتظرة التى سوف تحل بها . وهى عبارة عن منامات تراءت لأربعة من مواطنى (٣) الاسكندرية ، بالاضافة إلى منام خامس يذكر أن مصدره دمشق (٤) . ومنذ

---

(١) Et. Combe, «Les présages annoncant la Croisade de Pierre de Lusignan et al cause de cette attaque, «Bulletin de la Société Royal d'Archéologie d'Alexandrie, année 1948, No. 37.

(٢) الإلمام ، جـ ١ ، ص ١٠٦ وما يليها «وقد اقتبس النويرى تسعة عشر بيتا من تلك الملحمة الشعرية القديمة والتى كان ابن خلدون على معرفة بها . وورد الباجربقى تحت اسم بجريق وبجربقه ولعله خطأ مطبعى . انظر كتاب العبر (طبعة بيروت ، سنة ١٩٦١) ، جـ ١ ، ص ٦٠٥ و ٦٠٨ انظر ايضا المقريزى : السلوك (القاهرة ١٩٤١) ، جـ ٢ ، قسم ١ ، ص ١٦٧ ح ٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، جـ ٩ ، ص ٢٦٢ . ويظهر اسم الباجربقى أيضا فى مؤلفى ابن كثير وابن شاكر . انظر الإلمام ، جـ ١ ، ص ١٠٧ ح ١ . والباجريقى من مواطنى قرية بجربقة ، وهى تقع بين البقعاء ونصيبين فيما بين النهرين ، وذلك وفقا لمعجم البلدان لياقوت ، جـ ١ ، ص ١١٥ . انظر الإلمام ، جـ ١ ، ص ١٠٦ — ١٠٧ ح ٦ .

(٣) الإلمام ، جـ ١ ، ص ١٠١ وما يليها . وهؤلاء هم ابو عبد الله محمد بن صالح التاجر المصرى ، وابو عبد الله محمد المؤدب ، وابو عبد الله محمد بن أحمد التاجر الرحالة ، وعلى بن راشد الحجازى المقيم بالاسكندرية .

(٤) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ هو ريحانى الحبشى الذى توجه إلى القاهرة بعد المنام الذى تراءى له وهو نائم بدمشق ودخل الاسكندرية بعد الغزوة . وهناك اختلط بالفرنجة الذين كان يتقن لغتهم ، وتمكن من الوصول إلى بطانة الملك بطرس وسرق مهمازه الذهبى وباعه فيما بعد بمبلغ ثلاثمائة دينار .

البداية يستبق المؤلف الاحداث قائلا أن سقوط مدينته العظيمة لايعزى إلى بسالة غزاتها ، ولكنه كان فقط قدرا محتوما انزله الله كعقاب لخطايا سكانها وآثامهم . ومع ذلك فهو لايجد من الكلمات مايكفى ليسب غازيها بطرس الاول لوزجنان الذى يصفه بأنه كلب لعين ولص (١) وجبان ، ركن إلى الفرار بما سلبه خوفا من مواجهه امدادات السلطان التى كانت فى طريقها إلى المدينة . ويقرر ان بطرس كان يحتل ادنى المراتب بين الملوك المسيحيين ، وان مكانه بينهم «كراعى قردة فى جزيرة» (٢) .

وحيث ان ارادة الله بترك المدينة للفرنجة كانت امرا لامرد له ولاسبيل إلى مقاومته ، إلا ان بعض الظروف هى التى مهدت الطريق لتنفيذه وتحقيقه . وهنا يشرع النويرى فى ذكر سبعة اسباب ادت إلى الكارثة ، يمكن ترتيبها زمنيا كالآتى : (٣)

السبب الاول : فى عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م اصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م) مرسوما بطرد جميع المسيحيين الاقباط من دواوين الحكومة مالم يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا الاسلام . وزاد الطين بلة ، أنه نص فى نفس المرسوم ان يكون لجميع الرعايا المسيحيين زى خاص مميز . كما حتم عليهم ركوب الحمير فقط بدلا من الجياد . وأن تطبيق هذه الاجراءات المهينة فى كل من القاهرة والاسكندرية ، شجع عوام المسلمين ان يبدأوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين ، سواء اكانوا من اهل البلد او من الاجانب الذين يقيمون فى كلتى

(١) نفس المرجع ، جـ ١ ص ٢ - ٣ .
(٢) نفس المرجع ، جـ ١ ص ١١٣ .
(٣) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٩٢ - ١١٠ .

العاصمتين . وبذلك اضطر التجار المسيحيون الاجانب إلى جمع بضائعهم وحزم امتعتهم والعود إلى بلاد الروم . وقد اثار هذا الاجراء غضب الملك القبرصى الذى بدأ نتيجة لذلك رحلته إلى الغرب بحثا عن مجندين للهجوم على الاسكندرية (١) .

السبب الثانى : يقال أن بطرس الاول لوزجنان عند أعتلائه العرش (١٣٥٩ــ ١٣٦٩ م) ، طلب من السلطان الناصر حسن أثناء ولايته الثانية (٧٥٥ــ ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ ــ ١٣٦١ م) السماح له بزيارة صور لتدعيم تتويجه بالجلوس على عمود معين فى تلك المدينة طبقا للتقاليد القبرصية المتبعة . ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار . وعلى هذا ، فإن بطرس الذى اثار غضبه هذا الموقف ، قام بغزو الاسكندرية انتقاما لكرامته (٢) .

السبب الثالث : فى شوال ٧٥٥ هـ (أكتوبر – نوفمبر ١٣٥٤ م) رست سفينة محملة بقراصنة الفرنجة فى ميناء الاسكندرية ، وسببت مضايقات للبحرية الاسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحين إلى المعتدين للتأكد من نواياهم واغراضهم . فقالوا انهم يحتاجون إلى مؤن ومياه عذبة بادر النائب بارسالها اليهم . ثم تنكروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة سورية راسية فى مياه الاسكندرية وابتعدوا عن الميناء . وقد وصلت اخبار هذه القصة إلى بطرس الذى ادرك ان مدينة الاسكندرية خالية من الحراسات . وعلى ذلك قرر الاستيلاء عليها عنوة (٣) .

السبب الرابع : شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٢ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(٣) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٧ وما يليها .

بأسر عدد من المسلمين وفرار المغيرين . وكانت هذه الغارة دليلا آخر شجع بطرس كثيرا على مهاجمة الاسكندرية (١) .

السبب الخامس : فى ٢٧ شعبان ٧٦٤ هـ (١١ يونيو ١٣٦٣ م) رست ثلاث سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطىء ابى قير من ضواحى الاسكندرية . وقبضوا على ستة وستين رجلا وامرأة وطفلا من المسلمين ، ثم فروا بهم إلى صيدا حيث اطلق سراحهم بعد أن افتداهم المسلمون . وقد عززت هذه الحادثة ، مرة احرى موقف الحاكم القبرصى بالنسبة لمشروعه ضد الاسكندرية (٢) .

السبب السادس : اعقب تلك الغارة الفاشلة التى قامت بها ست سفن على أبى قير نفسها ، غارة اخرى على مدينة رشيد الآهلة بالسكان . وبعد رسو السفن ، تصدت لها وسائل الدفاع الاسلامى ، وفقد القراصنة ثمانين رجلا من رجالهم فى هذا الصدام . فكان لابد من الانتقام لهذه الهزيمة ، وكانت فرصتهم تتمثل فى غزو الاسكندرية (٣) .

السبب السابع : كان من نتيجة المذبحة التى راح ضحيتها البنادقة المقيمون فى الاسكندرية على ايدى العوام ، ان توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مصر . ووضعت البندقية اسطولها تحت تصرف بطرس الأول فى مشروعه المزمع القيام به ضد الاسكندرية . وفى نفس الوقت القى البابا فى روما بثقله إلى جانب قبرص ، لجمع الامدادات من الدول الاوربية والامراء الاوروبيين الذين شاركوا فى غزو الإسكندرية (٤).

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ وما يليها .
(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٣) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ — ١٠٩ .
(٤) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ وما يليها .

ومن خلال عرض النويرى للاسباب وانعكاساتها ، يبدو ان كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس والاستطلاع ، وان كلامنهما كان يتابع الموقف فى كل من قبرص والإسكندرية . وقيل ان نائب السلطنة (١) بالمدينة كان قد تلقى تحذيرا من عملائه عن الاستعدادات القائمة فى قبرص . ولكن كل ماستطاع القيام به هو تعلية سور المدينة من جهة الباب الاخضر الذى يواجه الميناء الغربى . كما نبه يلبغا الخاسكى مقدم جيوش المماليك فى القاهرة ، ملتمسا ارسال العون والامدادات. ولكن توسلاته لم تجد اذنا صاغية من قبل الادارة المركزية . ثم ان السلطات فى القاهرة لم تكن تتوقع احتمال هجوم خطير تشنه قبرص « على الاسكندرية» . وساد اعتقاد ان بطرس ليست لديه القوة او الشجاعة لتولى اقل العمليات الحربية ضد مماليك مصر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان المملك القبرصى على دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق اولئك الذين اخبروه بذلك شخصيا . ويصف المؤلف تلك الدفاعات بانها كانت تتكون اساسا من مجموعة صغيرة من الجند تتبختر خارج اسوار المدينة بسيوفها المرصعة بالجواهر ، وعمائمها الحريرية الجذابة وثيابها المعطرة ، ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية (٢). وحدث ايضا ان نائب السلطان كان متغيباً عن المدينة ، فقد كان حاكمها خليل صلاح الدين بن عرام غائبا عنها بسبب الحج فى ذلك الوقت. وقد بعثت القاهرة بامير غير متمرس يدعى جنغرا ليحل محله (٣) . وفضلا عن ذلك ، ان كاتب الديوان بالإسكندرية ويدعى شمس الدين ابن غراب كان متآمرا

---

(١) هو وقتذاك زين الدين خالد ، وهو امير غير معروف على ما يبدو . انظر نفس المرجع جـ ٢ ص ١١١ .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١١٤ — ١١٥

(٣) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ وما يليها .

مع السلطات القبرصية (١) . وفى زحمة تلك الظروف حددت ساعة الصفر عندما يصل فيضان النيل إلى اعلا منسوب له ، وتفصل الدلتا بين الإسكندرية والقاهرة بعد أن تكون قد غمرتها المياه ، بحيث تصبح عملية نقل القوات من الجنوب امرا صعباً متعذرا . وبعبارة أخرى ، فقد كان الموقف كله مهيأ للغزوة المزمع القيام بها ، مع احتمالات قوية للنجاح .

ومن هذه النقطة فصاعدا ، يبدو أن ماكتبه النويرى عن تاريخ الحملة الصليبية ينقسم إلى شقين . ففى المقام الاول ، يتميز وصفه كشاهد عيان لما رآه خارج الاسوار على الشاطىء عند مرأى الاسطول المسيحى ، وخطاب اللوم الذى تدع انزال القوات المعادية ، بالوضوح . وكان النويرى هناك ، أيضا ، بين موجات الفارين بعد دخول الاعداء المدينة . وقد ترك لنا وصفا حيا لوضع يائس مضطرب . ثم نجده بعد ذلك يختفى مع الجماهير . اما الشق الثانى الذى اسهم به « فى تسجيل تاريخ الحملة المذكورة » ، فيبدأ بتقرير آخر عن مصير الفارين فيما وراء بوابات المدينة . وبعد ذلك يستأنف وصفه للمشاهد التى رأها عند دخوله المدينة بعد انسحاب المسيحيين منها . اما فيما يتعلق بما حدث بين لحظتى اختفائه من المدينة وظهوره فيها ثانية ، فقد جمع معلومات عنه من شهود عيان آخرين كانوا قد آثروا البقاء داخل اسوارها وبذلك اصبحت الصورة « التى زودنا بها» عن المذبحة واعمال التدمير كاملة غير منقوصة .

ولنتابع بشىء من التفصيل تلك الروايات الممتعة التى تنبض الحياة . فقد اعتقد اهل الاسكندرية فى بادىء الأمر ، ان الاسطول القادم عبارة عن

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

مجموعة من السفن التجارية الوافدة من البندقية بهدف شراء الفلفل والتوابل كالمعتاد . ولذلك اسرعوا إلى الشاطىء ليشاهدوا رسوها ، بينما اختلط الباعة المتجولون وبائعو الطعام مع الجماهير ، يبيعون سلعهم وبضائعهم ، وكانت المساومات لتخفيض الأسعار وفقا للطريقة الشرقية تدوى فى كل مكان . ولم يكترث الناس بالكوارث الوشيكة الوقوع ، حتى بدأ المسيحيون المسلحون تسليحاً كاملا ينزلون بسيوفهم المسلولة التى استخدموها ضد الجماهير المتفرجة العزل من السلاح . وفى هذه اللحظة أسرعوا يهرولون فى اتجاه البوابات طلبا للأمان وراء اسوار المدينة . وزاد الطين والحالة سوأ ، ظهور فصائل الفرسان القليلة العدد ومعها القوات المحلية فى محاولة لصد الهجوم . وكانت حالة الاضطراب تفوق حد الوصف . اذ ترك التجار من أهل المدينة بضائعهم وتسحقها حوافر الخيل فوق الرمال تداس بالاقدام .

وكان النائب الجديد «للمدينة» جنفرا ممزقا بين رأيين ثار حولها الجدل والنقاش فيما يتعلق بمشكلة الدفاع . واحد الرأيين تقدم به تاجر مغربى نصح بأن يصدر النائب اوامره إلى الجند والعوام بالانسحاب من الشاطىء والقتال من داخل حصون المدينة واستحكاماتها . اما الرأى الآخر فقد وصم ذلك المسالك بالجبن ، واصر على مواجهة العدو مباشرة بالحيلولة بينه وبين النزول إلى الشاطىء . وانصار هذه النصيحة هم سكان الأربطة فى الجبانات المقامة خارج اسوار المدينة الذين لم يكونوا - فى الحقيقة - راغبين فى التخلى عن احيائهم للعدو . وانحاز جنفرا الذى كانت تعوزه الخبرة إلى رأى الفريق الثانى ، ودفع الثمن غاليا لقراره الذى جانبته الحكمة .

ومن ثم ، ابيدت كتيبة مغربية فى محاولة متهورة لإشعال النيران فى خطاف تابع للمسيحيين على مقربة من الساحل . ثم منيت فرقة من الفرسان العرب

وعندما وخزت سهام المسيحيين الجياد ، جمحت خائفة وسط الجماهير الهاربة ، الامر الذى زاد من شدة الدمار والخراب . اما جنغرا نفسه فقد جرح فى القتال الذى نشب بعد ذلك ، واضطر إلى التراجع مع الآخرين فارا نحو الباب الأخضر الذى يعرف ايضابلسم باب البحر طلبا للأمان خلف الأسوار .

ولنستشهد بأمثلة عن تلك الشجاعة اليائسة . اذ انبرى جزار يدعى محمد الشريف ، بشراسة ، بساطور المجزرة الذى يتميز بنصله الحاد ، واخذ يعمل القتل فى الأعداء حتى سقط هو نفسه صريعا . كذلك اخترق فقيه يدعى محمد بن الطفال الصفوف المسيحية بسيف مسلول فى محاولة لإعمال القتل فيهم ، ثم وقع شهيدا (١) . وفى جزيرة فاروس دافع حرس رباط « الشيخ محمد » ابن سلام (٢) عن مبناهم الفخم ضد الفرسان المسلحين تاما . وقد تمكنوا من صدهم من فوق سطح المبنى ، ولكنهم ذبحوا أخيرا . وقيل أن دماءهم سالت فى جداول خلال المزاريب (الميازيب) . اما اولئك الذين شاهدوا بقايا المذبحة بعد انسحاب المسيحيين ، فقد صعقوا عند رؤية كتل الدم المتجمد التى سدت تلك المزاريب . كما ان جثث الشهداء المذبوحين ظلت على السطح حتى حللتها شمس مصر . ثم جمعت معا ودفنت فى حفرة واحدة خارج الرباط الذى تعرض للسلب والنهب (٣) .

اما الصور التالية فهى تبين عملية تسلق الصليبيين للأسوار ودخولهم

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ — ١٥٤ . واهب هذا المبنى ثرى من مواطنى المدينة يدعى محمد بن سلام . وقد دمر الصليبيون بابه وشبابيكه المصنوعة من النحاس المشغول ، كما اشعلوا النيران فى سقفه المزخرف . وقد استعاضها نفس الرجل فى ٧١١ هـ /١٣٦٩ م ، ولكنه اقبى سقف ديوانه بالحجارة حتى لا يتأثر بالنار .

(٣) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .

المدينة . وقد تناولها الكاتب بشكل مفصل واضح . فى البداية بدت المدينة منيعة لاترام باسوارها العالية المزدوجة وابراجها الحصينة . وفشلت محاولات حرق الباب الاخضر المنيع ، لأن المهاجمين ، لم يستطيعوا الاقتراب منه بنيرانهم . فكانت سهام المدافعين السريعة تصدهم بشكل منتظم اعلا منطقة السور . وفجأة اكتشف العدو جانبا من السور خال من الدفاع بالقرب من الميناء الشرقى . ويمدنا النويرى بتفسير لهذه الثغرة فى الدفاع . ذلك ان رماة السهام الذين تركزوا عند الباب الاخضر حيل بينهم وبين الوصول إلى هذا القسم من السور فوق باب البحر وباب الديوان الذى يطل على الميناء الشرقى بالقرب من برج ضرغام الضرير. وزيادة على ذلك ، فان الوصول الى ذلك الجزء من السور من داخل المدينة ، كان ممكنا فقط من خلال باب الديوان حيث كانت جميع انواع البضائع مكدسة فى انتظار تفريغها . وبذلك كانت منطقة الديوان الديوان مغلقة من الداخل للمحافظة على محتوياتها . وبناء على ذلك ، فإن السور فوق البوابات المذكورة اصبح منيعا من الداخل . وقيل ان اغلاق باب الديوان فى وجه الدفاع كان عملا من اعمال خيانة شمس الدين بن غراب الذى اتهم فيما بعد بان الملك بطرس «لوسنيان» قد رشاه هو وعامل آخر من عمال المماليك يدعى شمس الدين بن ابى عذيبة . وحاول الاثنان تبرير فعلتهما بحجة ان فتحة البوابات الداخلية سوف تمكن الاجانب المقيمين «فى الاسكندرية» من نقل البضائع المستحقة الرسوم من الديوان ، وبذلك يسلبون الخزانة من حصيلة الجمارك غير المدفوعة . ويقال ان شمس الدين بن غراب قد دفع حياته فيما بعد ثمنا لهذه الفعلة . فقد تم اعدامه بطريقة وحشية بتوسيطه وعلق قطعتين على الباب «باب رشيد» .

وعلى اية حال ، فإن أكتشاف السور الخالى من الدفاع ، قد اعطى الصليبيين فرصتهم الذهبية . وفى غمرة الفرح بدأوا فى اعداد السلالم المفصلة

التى تسلقوا عليها السور بأمان ، بينما اشعل الآخرون النار فى باب الديوان . وفى ذهول حملق الناس الذين كانوا على الجانب الآخرين قلعة ضرغام ، وقد استبد بهم اليأس والعجز . وادركوا أن اليوم قد انتهى «فى غير صالحهم» . وهبط المسيحيون إلى داخل الديوان ، وفتحوا بابه المحترق على مصراعيه ، وتدفق المهاجمون داخل المدينة .

وكان الدمار الذى اصاب الجانب الاسلامى مخيفا ورهيبا . فقد فر المواطنون نحو البوابات البرية فى محاولة للهرب طلبا للأمان . وقد اعطى النويرى وصفا حيا لهذا المشهد ، لانه هو نفسه كان بين الجماهير الهاربة . وبلغ من شدة الزحام بسبب كثافة الجموع المتدفقة عند البوابات البرية ان عددا من الناس آثروا الهبوط الأسرع من الأسوار بواسطة الحبال . فسقط عدد كبير منهم على الارض مابين قتيل وعاجز . وقد حشا احد التجار كل ثروته التى تبلغ ستة آلاف دينار من الذهب فى كيس نقود ، ثم انضم إلى الجموع المتزاحمة عبر باب رشيد . وأثناء صراعه من اجل الحياة سقط منه الكيس ، ولم يستطع الانحناء لاستعادته بسبب الضغط الهائل للكتل البشرية التى تطلب النجاة . وحاولت حشود الفارين التى تمكنت من الهرب الالتجاء إلى القرى المجاورة مثل البسلقون والكريون بمديرية البحيرة . ولكن معظمهم تعرض لرعب آخر جديد فى الحقول المكشوفة اذ سلبهم مامعهم البدو وقطاع الطرق من القبائل العربية التى تقطن الصحراء الغربية دون رحمة او هوادة .

وعند هذه الواقعة يختفى النويرى من مسرح الصراع والمذبحة داخل المدينة. ويحتمل ان يكون قد عاد إلى النويرة قريته الاصلية فى مصر الوسطى لقضاء فترة من الراحة تم أثناءها طرد الصليبيين إلى البحر عندما عاد هو ثانية إلى الاسكندرية. ولانعرف على وجه التحديد تاريخ عودته ليواجه مصير المدينة المفجع ، لكنه لم يستطع ان يمكث بعيدا عنها لفترة طويلة . وعند وصوله بدأ يجمع المعلومات

من أولئك الذين بقوا فى المدينة ، وظلوا على قيد الحياة بمعجز بعد الاحتلال المسيحى لها . وان رواياته النابضة بالحياة عن احداث تلك الايام لقليلة تفوق كل وصف وتقدير .

وقد يكون من العبث ان نعدد قائمة مستوفاة تتضمن بيانا بجميع التحف الفنية التى اخذها الصليبيون من المدينة ، او ان نحصى المخازن والنزل التى نهبت ، او ان نعدد المدارس والقصور والمساجد التى احترقت ودمرت . وبالرغم من ذلك ، يمدنا النويرى بمجموعة من القصص والروايات التاريخية التى يجب ان نلخصها هنا لتقدير فداحة تلك الكارثة الفظيعة التى حلت وان كل ماتمكن الغزاة من وضع ايديهم عليه من ذهب وفضة ، وكل ماخف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والنحاس ، وكذلك كل بالات الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والاقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل ، والحاصلات الهندية ــ كل هذا اخذه الصليبيون إلى أسطولهم . واستخدمت الجمال والخيول والبغال والحمير الموجودة فى المدينة فى نقل تلك الغنائم الهائلة كما سخروا الرجال والنساء لينضموا هم ايضا إلى تلك الدواب فى عملية النقل وعندما تمت السخرة ، صدر الامر بدخولهم فى جوف السفن لنقلهم عبر البحر كاسرى وعبيد المستقبل . وفيما يتعلق بالحيوانات ، فمجرد انتهاء مهمتها ولم يعد لها ادنى فائدة بالنسبة لهم ، لان السفن كانت قد بلغت اقصى حمولتها طعنها المحاربون المتدينون بسيوفهم وحرابهم كما كسروا عظام ارجلها الرفيعة بمنتهى البساطة لشل حركتها . ثم تركوها اما ميتة او فى طريقها للموت فى الشمس الحارقة فوق الشاطىء الرملى ، حتى جاء المسلمون فاحرقوا جيفها بعد استعادة المدينة . كما أشعل الصليبيون النيران فى المصانع والمخازن ومكاتب الادارة وجميع المبانى .

وثمة شاهد عيان كان يراقب الجند وهم فى مجموعات من فجوة فى مخبأ سرى ، تحدث إلى النويرى عن الاسلوب الذى أتبعوه فى إشعال الحرائق . فقد غطوا البوابات المغلقة بمادة سوداء لطخت بدهان احمر . ومن الصعب أنتثبت ان كانت تتكون من القطران (القار) والكبريت. وعلى اية حال ، فالامر الهام هو انه عندما مست اللهب هذه الابواب ، اشتعلت على الفور وانهارت تاركة البناء مفتوحا على مصراعيه تحت رحمة العدو . كما قيل لنا ان عصابات أخرى من المسيحيين حملت ايضا معها حلقات غمست فى الزيت والقار والزفت والنفط . ثم ثبتت على اطراف السهام واشعلت وانطلقت إلى اعلى نحو اسقف المبانى الخشبية لتبدأ حرائق اخرى ، بهدف التأكد من اتلاف المكان بصفـة نهائية . وكانت بعض المبانى آية فى الفن ، سواء المنقوشة باليد او المدهونـة بالطلاء .

هذا ، ولم يميز الصليبيون بين المنشآت الخاصة بالتجار المسلمين وتلك التى كانت من املاك المسيحيين . ومن بين الفنادق والنزل التى دمروها ، عـدد النويرى تلك التى تخص القطلانيين والجنوية واهالى مرسيليا . كما جردت المساجد والاضرحة من كل عمل فنى يمكن نقله . كذلك هشموا جميع قناديلها الزجاجية المطعمة بالجواهر و الاحجار الكريمة ، لانه لم يكن من السهل نقلها. أما البيوت الخاصة ، فقد قامت بالتنقيب فيها بشكل منتظم مجموعات اصغر من تلك العصابات من رماة السهام . فكانوا يطلبون من سكانها الموجودين فيها كل نفائسهم حتى لايتعرضوا للموت . وفى هذا لم ينج مسلم او مسيحى قبطى من اهل البلد . ويستشهد النويرى بحادثة خاصة بسيدة قبطية كسيحة ابنة قس يدعى جرجس بن فضائل ، كان قيما على كنيسة قبطية بجوار منزلها . فلم تستطع حتى علامة الصليب «التى رسمتها لهم» ان تعفيها من مضايقة افراد احدى العصابات الذين طلبوا إليها ان تسلمهم كل ذهبها وفضتها . ومع ذلك

فقد حاولت انقاذ الكنيسة من الحريق الذى اشعلوه بتسليمهم الأوانى الفضية للأسرار المقدسة مع كل مدخراتها الذهبية .

ويخبرنا النويرى ، ايضا ، ان سبعين سفينة «من السفن الصليبية» قد حملت اكثر من طاقتها من الغنائم ، لدرجة ان الفرنج اضطروا إلى القاء جزء من حمولتها فى البحر المتوسط بالقرب من شاطئ ابى قير شرقى الاسكندرية لتفادى غرقها اوتقدمها البطئ الذى قد يعرضهم للمطاردين . كما يقول النويرى انه رأى صهاريج الزيت والشهد والزبد الخالص محطمة فى الشوارع لأن الصليبيين لم يستطيعوا حملها معهم . كما انهم تركوا كميات هائلة من التوابل والفلفل التى كانوا قد سحبوها إلى الشاطئ بسبب ضخامة حجمها .

وربما كان المبنى الوحيد الذى لوحظ بقاؤه سالما هو الترسانة التى احتوت مخازن الذخيرة وبها ستين ألف سهم ، وكميات هائلة من القسى ، والسيوف والحراب ، والحلل الحربية ، والدروع ، واجهزة المدفعية ، والمواد الملتهبة وجميع انواع المعدات الحربية وآلات الحصار . وحدثت معجزة نجاتها من النهب والتدمير التامين بمحض الصدفة . فقد وقفت مجموعة من الرجال المسلحين عند بابها العظيم للتشاور . ولكن عندما اعتقدوا من مظهره انه قد قد يكون احد ابواب المدينة بسبب حجمه الضخم اكثر من المعتاد وقربه من اسوار المدينة ، قرروا تركه ، ورحلوا عنه دون ان يمسوه بسوء . ولكن جميع المبانى الاخرى الخاصة بمصالح الدولة ، بما فيها الديوان ، فقد تركت حطاما خاوية محترقة . ومع ذلك، فمما يدعوا إلى العجب ان عصابات اخرى «من الفرنج » اشعلت النيران فى عدد من الابواب البرية ومن بينها باب سدرة وهو خطأ تكتيكى ، اذ زاد من فرص دخول قوات السلطان إلى المدينة القادمة إليها من الجنوب . وربما ظنوا ، عن سخف وغباء ، انه بدون الابواب تصبح

المدينة مفتوحة امامهم عندما يقومون بهجوم جديد . وكان هذا ، بطبيعة الحال املا ذهب أدارج الرياح ، لان المصريين اعادوا ترميم الابواب بسرعة بعد ان زادت يقظتهم وقوى حرصهم ، لم يجرؤ المسيحيون اطلاقا على معاودة الكرة .

وعندما دخل جيش السلطان شعبان تلك المدينة ثانية ، اصاب زعماؤه الهلع لما رأوه . فقد كانت جثث المذبوحين والمشوهين من الرجال والنساء والاطفال مبعثرة فى الشوارع دون اعتبار للسن أو الجنس . كما دمرت احياء بأكملها . ولم يبق اى مبنى هام ، دون ان يمس سوى الترسانة الحربية على ما يبدو فبدت المدينة قبرا مفتوحا ، وتعثر الناس فوق جثث الضحايا من المسلمين ، والمسيحيين واليهود على السواء . وقد يصيب الدوار العقل عندما يدرك ان مثل هذا الدمار الفظيع وتلك المذبحة الجماعية يمكن ان تتم اثناء احتلال دام ثمانية ايام . ولم تكن الاسكندرية قد تعرضت خلال عمرها الطويل لمثل تلك الكوارث والبلايا التى لم تفق منها حتى العصر الحديث .

ويمدنا النويرى ببعض التفاصيل الشيقة للمفاوضات التى دارت بين السلطات الاسلامية بعد استعادة المدينة وبين الملك بطرس المنسحب على سفنه وذلك قبل ابحاره . وقد اختير لتلك المهمة احد اليهود المقيمين بالاسكندرية وكان يتقن الحديث بلغة الفرنجة . وكان المصريون الفارون قبل ذلك قد ساقوا معهم جميع التجار المسيحيين فى المدينة إلى دمنهور عاصمة مديرية البحيرة . لذا ، تقدموا بعرض يقوم على تبادل المسيحيين بأسرى المسلمين على السفن القبرصية . ولكن هذا العرض لم يأت بنتيجة ، وقرر الجيش المسيحى ان يبحر بسرعة باسلابه ومغانمه طلبا للأمان فى عرض البحر .

وبعد عودة الملك بطرس إلى قبرص ، وقد داعبه الامل فى ان سورة

غضب السلطان «المملوكى» قد هدأت ، سعى إلى المفاوضات لإعادة السلام مع مصر . ولكن الجراح التى أصيبت بها البلد كانت عميقة ، لدرجة أنه لم يكن من السهل نسيانها او التغاضى عنها بمثل هذه السرعة. وقد قوبلت المصالحة الملكية الجديدة بالرفض التام من قبل القاهرة . ولذلك لجأ بطرس إلى اتخاذ اجراء عنيف لحد ما بأمل إجبار السلطان على الصلح .إذ جهز اسطولا صغيرا اغار به اكثر من مرة على طرابلس على الساحل الشامى ، فى نوفمبر ١٣٦٦ ويونيو ١٣٦٧ م ، ثم مرة ثالثة فى سبتمبر من نفس العام، ولكن دون جدوى. ويقدر النويرى الاسطول القبرصى فى آخر تلك الغارات الحربية بمائة وخمسين سفينة ، متضمنة بعض الشوانى وناقلات الجند . ووجد المهاجمون ان الاهالى ثابتون وعلى استعداد لملاقاتهم . لذا ، بعد أنزال قواتهم ، قرر القبارصة العودة بسرعة إلى سفنهم للبحث عن اراض مكشوفة يهاجمونها ، حيث يمكنهم مفاجئة مسلمين آخرين . وهكذا نجحوا فى نهب طرسوس وتدمير اكوام متراكمة من المواد التى كانت قد اعدت لبناء الشوانى للسلطان . فاشعلوا النيران فى كميات هائلة من الاخشاب والقار وجبال المراكب بينما تخلصوا من المواد غير القابلة للاشتعال كالحديد والمسامير بإلقائها فى البحر ثم توجهوا بعد ذلك نحو ميناء اللاذقية ، ولكنهم ، مرة أخرى ، وجدوا الاهالى على البر على استعداد لملاقاتهم . وقد حالت الرياح والامواج الشديدة وكذلك استحكامات المدينة المنيعة ، بينهم وبين انزال قوات اضافية . وظلت حالة التوتر المستمر قائمة طوال حكم بطرس الاول وحتى مقتله على يد نبلائه الثائرين عليه عام ١٣٦٩ م .

وعلى اية حال ، لم يتحسن الموقف المتدهور بين مصر وقبرص باختفاء الملك العجوز الذى يعتبر الوغد الحقيقى وراء مأساة الاسكندرية . فى خلال حكم خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩ — ١٣٨٢م) كانت غارات القرصنة ،

سواء الموجهة ضد الشواطىء المملوكية او ضد السفن الاسلامية فى عرض البحر تقابل بغارات مماثلة من جانب مصر على شواطىء قبرص الجنوبيــة . وفى ظل هذه الظروف المضطربة توقفت التجارة مع القومونات الاوروبية. وكان على كل من جنوة والبندقية التوسط لاعادة السلام واستئناف تجارتهم مع مصر التى تعود عليها بالمكاسب والارباح . وان قصة إيفاد مبعوثين مــن قبلهما إلى القاهرة لتحقيق سلام مهتز ، قد رواها المؤلف بشىء من التفصيل . ويبدو ، فى واقع الامر ، ان السلطان كان يشجع تلك المحادثات غير الحاسمة لكسب الوقت حتى يتمكن من استكمال بناء اسطول قوى يسمح بغزو تلك المملكة الجزيرة «اى قبرص» اخذا بالثأر . والظاهر ان النويرى لم يعش حتى يرى تحقيق هذا الحلم . اذ تحقق ، فعلا ، غزو قبرص فى عهد السلطان «الاشرف»برسباى (١٤٢٢ — ١٤٣٨ م) من دولة المماليك الجديدة البرجية فى حملة مدمرة مضادة . لقد جهز برسباى ثلاث حملات ناجحة ضد قبرص فى اعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ م على التوالى ، واثناء الحملة الثالثة نشبت معركة خيروكيتيا فى السهول الجنوبية من الجزيرة . وكان النصر الــذى حققه المصريون فى ساحة القتال ساحقا: إذ اسروا ملك قبرص الضعيف المدعو جانوس الثانى Janus II واراستقراطيته ، وحملوهم معهم مكبلين بالاغلال إلى القاهرة . وبهذه الطريقة دفع جانوس الثانى الثمن باهظا عقابا للفعلة الشنعاء التى ارتكبها بطرس الاول ضد الاسكندرية .

وان تطور الاحداث بعد ذلك انما يتعلق بفصل تال بعد انتهاء حياة النويرى وكتابه . لذا يجب متابعته من حوليات تاريخية متاخرة ؛ نذكر من بينها «كتاب السلوك» للمقريزى ، وهو اعظم المؤرخين المصريين فى القرن الخامس عشر الميلادى «القرن التاسع الهجرى» .

الفصل الخامس

خاتمـــــــة

تقييم التراث الذى خلفه النويرى

لفترة طويلة ترجع بنا إلى أواخر العصور الوسطى ، لم يتمكن قراء «كتاب الإلمام» للنويرى من تقدير قيمة ماخلفه لعالم الادب . ويعتبر كتابه ، حسبما أسلفنا ، بمثابة فيح عطر من المعلومات غير المنسقة اكثر منه مقالة منظمة تعالج مجموعة محددة متصلة من الموضوعات . ولما كانت حرفة النويرى هى نسخ المخطوطات . فلابد انه قد اطلع على مؤلفات اصلية يصعب حصرها تتناول العديد من الموضوعات . ويمكن فقط القول انه اثناء قيام النويرى بنسخ المخطوطات للتجار السكندريين الاثرياء قد الهبت خياله افكار واجزاء معينة من تلك الاعمال . فعمل على اكتناز مقتطفات منها ليستخدمها كلما واتته الفرصة . وقد حانت تلك الفرصة مع اخطر حادثة فى حياته ، الا وهـــــى الحملة الصليبية المشئومة على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م. ولابد ان تلك الحادثة المشئومة قد اثارته لدرجة انه قرر ان يبدأ «كتاب الإلمام» كسجل لكل ماشاهده وماسمعه عنها . ولهذا السبب بدأ ينسج نصه حول هذه الواقعة بالذات .

ولم يتناول الموضوع بطريقة مباشرة او مستقيمة . بل كان على هيئة تعليق على مرثاه حول مصير الاسكندرية كتبها شاعر معاصر غير معروف يدعى ابن ابى حجلة. لذا نجد تفاصيل تلك الحملة الصليبية مطمورة فى ثنايا ذلك التعليق . ومما زاد الطين بلة ، انه قرر استخدام حصيلة المقتطفات الهائلة التى استقاها من مخطوطاته بطريقة عشوائية اثناء سرد رواياته ، متنقلا مـــن من موضوع إلى آخر ليس له اى علاقة بالفكرة الأصلية سوى كلمة عابرة

او فكرة سطحية لاتمت للامر الذى يعرضه باية صلة حقيقية . ونتيجة لذلك نجده يتنقل الهوينى من التاريخ إلى الاسطورة ومن التقاليد الاسلامية إلى الفحشاء والكلمات البذيئة ومن الشعر الفصيح إلى القصص الخرافية ، ومن الحكمة الزاهدة والعقائد المقدسة إلى الطب الشعبي وحياة النبات والحيوان ، ومن علوم الفلك والجغرافية إلى مهنة ركوب البحر وإلى المعلومات المتعلقة بالآثار ، او حتى الامور التافهة كالاحاجى والالغاز المسلية والاشكال الشعرية الجديدة والنثر الذى يتميز بالصنعة . ولقد كان كل هذا الشتات المختلط المتداخل . هو الذى حال بين القراء الجادين وبين الخوض فى أعماق هذا النص الحائل دون تخطيط واضح او تنظيم موضوعى . وربما يفسر هذا ، فى الحقيقة ، موقف الباحثين الذى يتسم بعدم الاهتمام بهذا الكتاب الذى لم يعن احد بنشره او دراسته دراسة واعية حتى ظهور طبعتنا الحالية .

وعلى اية حال . نظرا لاهتمامنا بالدراسات التى تتعلق بالحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر ، لم نجد مفرا من القيام بعملية تفحص هذا المخطوط الصعب تفحصا يمتاز بالصبر والدقة . هذا ، ويعرف النويرى «نفسه كتابه» «الإلمام» تعريفا له مغزاه ، مبينا انه يشتمل على «لمحات» ومن هنا بدأنا نكتشف هذا التراث غير المعروف الذى خلفه النويرى ، والذى تناول الكثير من مجالات المعرفة التى قد تكون فى بعض الاحيان فريدة فى طابعها ونوعها . وليس من المعقول ، فى الواقع ، نشر إجزاء منفصلة من ذلك الكتاب الموسوعى بشكل مستقل قائم بذاته ، والتى قد تضمنها نبذا ومقالات تعالج العديد من الامور المستمدة منه . وان نظرة سريعة على المجلد السابع بفهارسه الكبرى الاربعة عشر ، تكشف عن خصوبة وثراء المعارف والمعلومات التى تضمنها هذا النص الضخم .

وليس من شك فى ان المؤلف قد جمع اعظم مادة اصلية تتميز بقيمتها عن الحملة الصليبية على الاسكندرية من وجهة النظر المصرية . ومع ذلك ، امدنا اثناء محاولته القيام بهذا العمل بالكثير من التفاصيل عن بناء وطبوغرافية وآثار الاسكندرية فى العصور الوسطى (١) . وهنا نجد وصفا للمبانى والمنشآت الهامة التى تمتاز ببهائها وفنها المعمارى الرائع ، قدمه رجل كان قد عاش فيها وعلى معرفة بكل شيء عنها . وكشاهد عيان ايضا ، كان على معرفة بمينائى المدينة الاينوستوس Eunestes والباب الكبير Portus Magnus الذى يرجع إلى عصر البطالمة . وعلى هذا كان بوسعه إثراء «المكتبة العربية» بما كتبه عن علم البحار . وان يزود القارىء بأتم مجموعة من المصطلحات العربية الخاصة بمهنة ركوب البحر التى عرف بوجودها فى تلك اللغة . إذ استعرض وصف جميع انواع السفن التى تمخر عباب كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى والأنهار العظيمة القديمة من النيل إلى دجلة والفرات(٢). وهنا تعرض ايضا للعلوم الجغرافية التى اسهم فيها اسهاما شخصيا . ومما يدعو إلى الدهشة معرفته بكروية الارض ، تلك المعرفة التى لابد أن يكون قد ورثها عن الجغرافيين العرب السابقين قبل ان تظهر هذه الفكرة فى اوروبا فى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى «اواخر القرن التاسع الهجرى» . ومما يدعو إلى الاعجاب ، ايضا ، وصفه لعواصم اوروبا ، وحصره للقلاع الاسبانية ، وذكره للجزر والأنهار والجبال والبراكين وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة (٣) .

وبين ثنايا رواياته عن المعارك الاسلامية المبكرة والمتأخرة ، حفظ لنا

---

(١) انظر الإلمام ، جـ ٧ ، الفهرس السادس .

(٢) نفس المرجع ، الفهرس السابع .

(٣) نفس المرجع ، الفهرسان الأول والثانى .

الكثير من المعلومات الاساسية التى سوف تعين الباحث على توضيح الغموض الذى يشوب تاريخ فن الحرب والقتال الاسلامى (١). وقد اعددنا له ولكل الموضوعات سالفة الذكر ، فهارس خاصة نستطيع من خلالها تقدير قيمة ما خلفه النويرى من معلومات لم تكن معروفة من قبل . ووجدنا انه من الضرورى تعريف وتوضيح مصطلحاته ، مع تحديد الاماكن او التعريف بها فى الهوامش السفلية . و نجحنا إلى حد ما ، ولم يحالفنا التوفيق فى بعض الاحيان فى ايجاد حلول للمشاكل «التى واجهتنا» والتى نترك بعضها للباحثين المتخصصين فى المستقبل .

اما فى مجال الفقه والشريعة الاسلامية ، فلم يضف النويرى سوى القليل واحيانا لا يضيف شيئا إلى ادب الفقه القائم العظيم . وربما كانت المسألة الوحيدة الجديرة بالذكر هنا هى اقتباسه لكثير من الاحاديث التى يبدوا انها احاديث غير صحيحة بالرغم من إدعائه صحة نسبتها (٢). ويحتاج هذا الموضوع لمزيد من البحث فى المستقبل .

كذلك ابدى النويرى فى عالم الادب اهتماما كبيرا باقتباس القصص القديمة ، والشعر القديم المعروف ولكن اسهامه الحقيقى يكمن فى اقتباسه من شعر عصره بالذات . ومع ذلك ، فإن هذه الناحية التى ادلى فيها بدلوه تفشل فى أن تعكس روعة العصر الذهبى للادب العربى . وبالرغم من كل ذلك ، فهى تزودنا بنماذج لها وزنها تمثل خير تمثيل تآليف القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» . وجانب كبير من هذا الشعر يصور حادثة معاصرة او يمتدح شخصية معروفة او يرثى حادثة اليمة مثل الحملة الصليبية على الاسكندرية . ويعتبر النويرى نفسه فى الحقيقة شاعرا له مكانته . وتظهر

---

(١) نفس المرجع ، الفهرس الثامن .

(٢) نفس المرجع ، الفهرس الخامس .

قصائده فى «ثنايا» عدة مجلدات «من الإلمام» . وهى ليست رائعة فى طابعها ، ولكنها قد تساعد كوثائق تاريخية فيما يتعلق بأحداث عصره(١) .

ويستخدم النويرى الاسلوب الايقاعى الموزون . ولذلك تبدو الصنعة والتكلف بوضوح فى محاولة المؤلف إيجاد القافية المطلوبة باى وسيلة . وكثيرا ماتصبح هذه المسألة عقبة لاتستحق الاطراء . وان التناقض العجيب فى اسلوبه يبدو فى استخدامه العبارات الدراجة وانحرافه عن ابسط قواعد النحو والصرف مما يصعب معه المواءمة بينها وبين سعة اطلاعه فى مجال الأدب. فهل من الجائز ان يكون نساخ «كتاب الإلمام» هم المرتكبين الحقيقيين لهذا الخطأ ، فشوهوا بذلك المخطوط الاصلى الذى يتضمن النص بخط المؤلف ؟ وسوف يظل هذا التساؤل قائما لانه من الصعوبة بمكان ان نجد له جوابا شافيا .

وليس بوسعنا إخفاء دهشتنا بالنسبة للموضوعات المختلفة المتنوعة التى جمعها النويرى بمحض الصدفة وبتخطيط متواضع . ومع ذلك ، فإن ثمرات جهوده الشاقة عبارة عن خليط غير مترابط من المعلومات التى جمعها بحكم خبرته كشاهد عيان «لأحداث ذلك الزمان» وبالرغم من كل المآخذ التى تؤخذ على كتابه ونواحى القصور فيه ، فقد تمتع النويرى بكافة الصفات التى تؤهله ليكون احد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» .

---

(١) نفس المرجع ، الفهرس الرابع .

البحث السادس

أنشودة رولان

قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من جدل ونقاش

هذا البحث ينشر للمرة الأولى فى هذا الكتاب

أنشـــودة رولان

قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من جدل ونقاش

مقدمـــة :

تعتبر أنشودة رولان من أقدم الملاحم الغنائية الشعبية التى عرفها العصر الأوروبى الوسيط ، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق . وهى ، فى ذات الوقت أفضلها وأهمها من وجهة النظر التاريخية (١) . وتدور حوادثها — كما هـــو معروف — عصر الإمبراطور شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م) ، الذى يتغنى المؤلف بعظمته وبطولته فى حروبه ضد العرب فى إسبانيا . كما يتعرض لبسالة رجاله فى ميدان القتال ، وتضحياتهم لتحقيق مثلهم العليا التى تتلخص فى كلمتين اثنتين هما : الدين والحرب . فقد كانت تلك الأنشودة تمثل روح العالم الغربى الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلا صادقا فى هاتين الناحيتين . الناحية الاولى اوحت بها منذ البداية الديانة المسيحية التى اصبحت من الصمق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة فى ذلك الحين . اما الحرب ، فقد كانت صناعة الفارس الأولى يبرز فيها ماتعلمه من فنون القتال ؛ وهى تقترن بقيام النظام الاقطاعى ومايلحقه من نظم كالفروسية . وعلى هذا ، فالأنشودة تمثل عقلية العصر الوسيط خير تمثيل (٢) .

وقد انتشر هذا النوع من الأناشيد فى المجتمع الغربى الوسيط ، وبصفة خاصة فى فترة الحروب الصليبية ، ولقى الشيوع والرواج من كافة الأجناس والفئات والطوائف والطبقات . وهو مايعرف باسم «أغانى المآثر» «Chansons

«de Geste» وهى عديدة ، وقد وضعت خلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الميلادية ؛ وتدور حول شخصيات رئيسية ثلاث هى : شخصية شارلمان ، وشخصية وليم اورانج Guillaume d'Orange ، وشخصية رينوه دى منتوبان Renaud de Montauban . وكان المؤلف فى مثل تلك الأناشيد يستغل بعض الشخصيات او الأحداث التاريخية ، حيث ينسج حولها قصصا اسطورية تستهدف تمجيد البطولة ، فى عصر كان مهيأ لقبول مثل هذا النوع من الملاحم (٣) .

ومن أهم القصائد التى تدور حول شارلمان ,,قصيدة حج شارلمان،، «Le Pélerinage de Charlemagne» ، و,,أنشودة رولان،، «La Chanson de Roland» موضوع هذه الدراسة .

وعلى الرغم من الدراسات القيمة التى ظهرت عن هذه الأنشودة ، وعلى الرغم من انه لايخلو مرجع من مراجع التاريخ الأوروبى الوسيط من الإشارة إليها ولو فى بضعة اسطر — إلا انها ، مع ذلك ، لاتزال تحتمل العديد من البحوث الجادة التى تعالج بعض القضايا والمسائل التى تمت بصلة لها ، والتى لم تنل بعد حظها الكافى من التمحيص ، او التى لم تدرس من قبل ، بهدف الوصول إلى نتائج واضحة محددة . ومن هذه القضايا — على سبيل المثال — تاريخ اكتشاف اقدم نسخة خطية للأنشودة ، واللغة التى كتبت بها ، وطبيعة العصر الذى دونت فيه ومدى انعكاسه على الأنشودة ، وبكلمة اخرى دراسة الأنشودة باعتبارها مرآة تعكس ظروف الغرب الأوروبى وقتها . ومنها ، ايضا الآراء التى اثيرت حول التاريخ الذى كتبت فيه ، ومؤلفها ، ومكانها بين الأسطورة والتاريخ ، والحقيقة التاريخية فيها كما وردت فى الأصول القديمة

من غربية وعربية ، والشخصيات والأماكن الجغرافية الواردة فيها ومدى نصيبها من الصحة ، والأضواء التى سلطت اخيرا عليها وماتمخضت عنه من نتائج . كل هذه وغيرها قضايا هامة لاتزال تحتمل بحوثا متأنية متعمقة فاحصة مدققة للأنشودة بما تضمنته من آراء وافكار قد تعين على الكشف عن قيمتها من وجهة النظر التاريخية باعتبارها ملحمة ادبية شعبية تحكى قصص البطولة وتمجدها فى عصر كان يشجع مثل هذا النوع من الملاحم . وقد تناولنا كل هذه الموضوعات بالدراسة فى هذا البحث ، بعد ان مهدنا لها بملخص مركز للأنشودة . واختتمناها بعرض اهم طبعاتها وترجماتها باللغات الأوروبية الحديثة .

ملخص الأنشودة :

تعتبر الأنشودة من النماذج الأولى للأدب الفرنسى الشعبى الوسيط ، إن لم تكن أول ماوصل إلينا مدونا فى ذلك التاريخ المبكر . وهى تتألف من ٤٠٠٢ بيت من الشعر يصلح للإلقاء اكثر منه للغناء . وتتميز ببنيانها الواضح المحكم ، وبتماسكها وترابطها . وتنقسم إلى ثلاثة اقسام رئيسية هى ,,الخيانة،، ، ,,والكارثة،،أو ,,موت رولان،، ، و,,العقاب،، ، أو ,,حكم الله،، (٤) .

وخلاصة القسم الأول الذى يسمى «الخيانة» ، ان الإمبراطور شارلمان كان يقاتل فى إسبانيا قتالا لاهوادة فيه بقصد ضمها إلى أملاكه ، وانه تمكن بعد سبع سنوات من الحروب المتواصلة من الاستيلاء عليها ، باستثناء مدينة سرقسطة التى كان يحكمها ملك يسمى مارسيل . ولما ادرك مارسيل ان بلاده واقعة لامحالة فى قبضة شارلمان ، حاول إبعاده عنها بشتى الطرق . فبعث إليه برسول يحمل عدة مقترحات بقصد المراوغة وكسب الوقت والخداع ، حتى

تصله النجدة التى كان قد بعث فى طلبها من الدولة الإسلامية فى الجنوب الإسبانى .
وقد قبل الإمبراطور الدخول فى مفاوضات مع ملك سرقسطة . وأوفد إليه
لهذا الغرض ، بناء على اقتراح قائده رولان ، احد رجاله وهو الكونت
جانيلون . ووافق الأخير على القيام بهذه المهمة . رغم اعتقاده ان رولان هو
الذى اوحى إلى شارلمان بذلك للتخلص منه. واتخذ جانيلون طريقه إلى سرقسطة
مع رسول مارسيل ، وقد دبر خطة بقصد الانتقام من رولان . إذ اخبر
مارسيل ان شارلمان سيوفد جيشا للاستيلاء على المدينة عنوة ، وان رولان
سيكون فى مؤخرته . واتفق معه انه حينما يتقدم هذا الجيش ، ينقض العرب
الذين سيحضرون لمساعدته على المؤخرة التى يقودها رولان ويقضون عليه ،
وبذلك يكون قد تخلص منه .

بعد ذلك يبدأ القسم الثانى من الأنشودة الذى يسمى ,,الكارثة،، أو ,,موت
رولان،، . وفيه يقبل شارلمان اقتراح جانيلون بوضع رولان فى مؤخرة الجيش
المهاجم مع عدد من كبار رجالات فرنسا وفرسانها ، ومنهم أوليفييه صديق
رولان الحميم ، وتوجه الجيش الفرنجى للاستيلاء على سرقسطة . وعندما ابتعد
شارلمان عن ساحة القتال . هاجمه جيش مارسيل والنجدة العربية التى كان قد
بعث فى طلبها . ونظرا لأن العرب كانوا يتفوقون على الفرنجة فى العدة ويفوقونهم
فى العدد ، فقد الحقوا بهم هزائم شديدة . وظل القتال دائر بين الطرفين حتى
اصبح رولان يحارب هو وقلة من الجيش . وعندما الح عليه صديقه اوليفييه
فى طلب النجدة من شارلمان بالنفخ فى البوق طبقا للعادة المتبعة ، رفض رولان
بإباء وثقة قائلا إنه لايليق بالفارس الشهم ان يستغيث طالما بوسعه القتال وحتى
آخر رمق من حياته . وهكذا نشبت معركة عنيفة بين الفريقين حاول الفرنجة
دفعها بكل ماأوتوا من قوة ، حيث صورهم مؤلف الأنشودة بأنهم ابطال .
وعندما طلب اوليفييه من رولان الاستنجاد بشارلمان ، رفض للمرة الثانية

مرددا نفس الإجابة . ولكن لما اتضح لرولان ورفاقه انهم هالكون لامحالة ، قبل رولان طلب النجدة من شارلمان ، ونفخ فى نفيره مستغيثا به . وقد بادر الإمبراطور ، عندما وصل إلى مسامعه صدى النفير ، إلى نجدته . ولكنه وصل متاخرا ، إذ كان العرب قد قضوا على رولان وجيشه فى المعركة المعروفة باسم رنسفالة Roncevaux ، نسبة إلى المكان الذى شهد مسرح العمليات العسكرية .

واما القسم الثالث والأخير من الأنشودة فهو ,,العقاب،، أو ,,حكم الله،، وفيه يقول المؤلف إن شارلمان هاجم العرب فى إسبانيا ، والحق بجيوشهم الهزيمة ، ومات الملك مارسيل ، وسقطت مدينة سرقسطة . وقفل شارلمان عائدا إلى عاصمته اكس حيث بادر بعقد مجلس لمحاكمة الخائن جانيلون . واتبع فى محاكمته الأسلوب المعروف فى العصور الوسطى باسم ,,حكم الله،، . وادين جانيلون واعدم كما يعدم الخونة ، وذلك بأن اوثقت اطرافه فى ارجل أربعة جياد سريعة قوية ، يجرى كل منها فى اتجاه مغاير حتى تمزق إربا . وهكذا دفع ثمن خيانته (٥) .

تاريخ اكتشاف الأنشودة :

فى عام ١٨٣٢ م وفق عالم شاب يدعى هنرى مونان H. Monin فى العثور على مخطوطة تحتفظ بها المكتبة الملكية الفرنسية تحمل اسم ,,انشودة رولان،، ، وكان الاعتقاد السائد وقتها ان النص الأصلى لها قد فقد إلى الأبد . ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام يتزايد بهذه الأنشودة . وفى عام ١٨٣٧ م اصدر المؤرخ فرنسيس ميشيل F. Michel الطبعة الأولى لها ، معتمدا على نسخة خطية اخرى للأنشودة كانت تحتفظ بها مكتبة بودليان باكسفورد بانجلترا يرجع تاريخها إلى عام ١١٧٠ م . وبعد ذلك مباشرة تم اكتشاف نسخ خطية أخرى لها فى

البندقية ، وفرساى ، وليون ، وكامبريدج . ولكن الرأى المتفق عليه الآن ان نسخة اكسفورد هى أكثرها ثقة ، وهى التى اعتمد عليها معظم من نشروا الأنشودة أو مقتطفات منها ، ونقلوها إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، وبخاصة اللغة الفرنسية (٦) .

اللغة التى كتبت بها الأنشودة :

لقد كتبت الأنشودة ، اصلا ، باللغة الفرنسية القديمة التى كانت سائدة فى شمال فرنسا وقتذاك . ذلك ان سكان فرنسا لم يكونوا كلهم يتكلمون الفرنسية . فقد كان للجنوب لغته الخاصة المشتقة من اللاتينية ، وهى اللغة البروفانسية نسبة إلى مقاطعة بروفانس . بينما كان شرق فرنسايتحدثالألمانية، والشمال الغربى يتكلم البريتانية نسبة إلى مقاطعة بريتانى الفرنسية . وقد أصبحت لغة الشمال ، فيما بعد ، هى لغة فرنسا كلها ، عندما أصبح الشمال هو مركز القوة السياسية ومقرا الملكية الفرنسية (٧) .

وحتى العصر الذى كتبت فيه الأنشودة كانت اللغة الفرنسية لغة حديث ولم تستعمل فى الكتابة إلا نادرا . إذ كانت اللاتينية فى ذلك الحين ، وطوال العصر الوسيط ، هى لغة العلم والأدب ، ليس فى فرنسا فقطوإنما فى الغرب الأوروبى كله . لقد كانت اللغة الرسمية الدولية الأولى فى الغرب ، فقد كانت لغة الكنيسة والبابوية ، كما كانت مقصورة على رجال الطبقة المثقفة الذين كانوا يكتبونها ويتحدثون بها . ولم تصبح اللغات الوطنية القومية لغات ادبية تستخدمها مختلف الدول فى الغرب فى تسجيل تراثها التاريخى والأدبى ، إلا اعتبارا من القرن الثانى عشر .

العصر الذى دونت فيه الأنشودة :

وإذا عدنا إلى العصر الذى دونت فيه أنشودة رولان ، وهو - كماسنرى -

اواخر القرن الحادى عشر أو اوائل القرن الثانى عشر ، نجد أنه لايمكن مقارنته بالعصر السابق له أو الذى لحقه . فقد كان الغرب فى الفترة السابقة للأنشودة يعيش فى ظلام دامس ، لم يقدر للعلوم والآداب والفنون أن تنتعش فى ظله . اما بالنسبة للقرن اللاحق لها ، فقد قامت فيه النهضات العلمية والأدبية التى مهدت لعصر النهضة ، الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة .

كان يحكم فرنسا زمن الأنشودة الملك فيليب الأول (١٠٦٠–١١٠٨م) . وكانت البابوية قد أصدرت ضده قرار الحرمان الكنسى لعلاقته غير المشروعة مع خليلة له تدعى برتراد دى منتفرت Bertrade de Montfort ولهذا السبب لم يشترك بشخصه فى الحملة الصليبية الأولى . كما اخفق فى حروبه ضد الإقطاعيين بهدف توسيع رقعة الدومين الملكى على حسابهم ، وبصفة خاصة وليم دوق نورماندیا الذى أصبح ملكا على انجلترا . وفى عام ١٠٦٠ م قام النورمان بقيادة زعيمهم روبرت جويسكار Robert Guiscard بغزو جنوب إيطاليا الذى كان فى حوزة الدولة البيزنطية وقتها . وقد ترتب على ذلك ازدياد هوة العداء والبغضاء بين أهل الغرب اللاتينى بعامة والنورمان بخاصة وبين البيزنطيين فى العقود التالية . وانعكس ذلك على طبيعة العلاقات بين الطرفين عندما التقيا وجها لوجه اثناء الحملة الصليبية الأولى . وفى عام ١٠٦٣ م لبى فرسان مقاطعات نورماندیا وبرجنديا وبروفانس بفرنسا استغاثة مملكة اراجون المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . وكان هذا يعنى تشكيل أحلاف لاتينية غربية ضد مسلمى إسبانيا ، لقيت التشجيع والتأييد من كل من ديرية كلونى وبابوية روما .

وفى عام ١٠٦٦ م قام وليم الفاتح دوق نورماندیا بغزو انجلترا ، الذى يرتبط بمعركة هاستنجز Hastings الشهيرة . وهذا يكشف عن تطلعات

النورمان وأطماعهم ليس فى الغرب الأوروبى فقط ، وإنما فى كل من الدولة البيزنطية والمشرق الإسلامى ايضا ، وهو ماسوف تؤكده السنوات القليلة التى اعقبت ذلك التاريخ .

وتتابع الأحداث سراعا . ففى عام ١٠٧٨ م قاد هيو الأول دوق برجنديا حملته ضد البرتغال . وفيما بين عامى ١٠٧٢ و ١٠٨٥ م أحرز الفونسو السادس ملك قشتالة بعض الانتصارات على حساب المسلمين فى الأندلس . وكان يجلس على الكرسى البابوى فى روما ، فيمابين عامى ١٠٧٣ و١٠٨٥ م البابا جريجورى السابع الذى بدأت فى عهده أولى مراحل الصراع العلمانى بين البابوية والإمبراطورية حول المسائل العلمانية ، كل منهما تسعى لبسط نفوذها وسيطرتها على الغرب ، ذلك الصراع الذى عانت منه المسيحية الغربية الأمرين والذى حال بين جريجورى وبين تحقيق حلمه فى توجيه حملة عسكرية إلى الشرق الإسلامى لمساعدة بيزنطة ضد الأتراك السلاجقة. وخلال بابويته ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٠٨٥ م تمكنت الإمارات المسيحية فى شمال إسبانيا ، وهى ليون وقشتالة واراجون ونافار ، والتى كانت تلقى المساعدة والتأييد من الغرب ، وبخاصة من مقاطعتى برجنديا ولانجويدوق بفرنسا ، من الاستيلاء على طليطلة .

ولم تمض سنوات حتى تربع على عرش البابوية بابا لايقل مقدرة عن جريجورى ، هو مستشاره وتلميذه الروحى اربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩م) الذى أعلن فى مؤتمر كليرمون الكنسى بجنوب فرنسا فى السابع والعشرين من نوفمبر من عام ١٠٩٥ ، بداية الحركة الصليبية التى اكتوى العالم العربى الإسلامى بنارها طوال ثلاثة قرون من الزمان . ولم تمض سنوات معدودات على بداية الحملة الأولى حتى تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، وتأسيس مملكة لاتينية بها ، ظلت بأيديهم إلى أن انتزعها منهم فى بداية الأمر

صلاح الدين الأيوبى ، ثم فى المرة الأخيرة الصالح نجم الدين أيوب .
وفى ذلك الوقت كان الحكم فى فرنسا قد انتقل بعد موت فيليب الأول إلى لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧ م) ، وتجدد الصراع بينه وبين الإقطاعيين ، وبصفة خاصة تيبود الرابع Thibaud IV كونت شامبانيا وبلوا وهنرى الأول ملك انجلترا ودوق نورمانديا .

وخلال تلك الفترة من الزمن كانت البابوية قد تثبتت دعائمها وتأصلت جذورها ، واصبحت تتحكم فى مصائر الناس ومقدراتهم ، وفى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى وعلى الجميع السمع والطاعة . ودخلت أولى مراحل صراعها ضد الإمبراطورية ، والتى انتهت بانتصار البابوية وإذلال الإمبراطورية فى شخص هنرى الرابع فى حادثة كانوسا فى يناير ١٠٧٧ م ، تلك الحادثة التى تركت بصماتها على تاريخ الكنيسة ، والبابوية بخاصة ، وتاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة . ولم يبق أمام البابوات سوى مواصلة السياسة التى كان قد رسمها لهم مؤسس البابوية جريجورى الكبير فى أواخر القرن السادس الميلادى ، فيما يتعلق باستقلال البابوية دينيا ودنيويا على حساب الحكام والأمراء العلمانيين فى الغرب ، بل وعلى حساب الدولة البيزنطية فى الشرق أيضا .

وفى نفس هذا الوقت كان النظام الإقطاعى فى الغرب قد بلغ ذروة نضجه واكتماله ، وأخذ الهرم الاقطاعى شكله المعروف من حيث طبقاته الأفقية ، على قمته الإمبراطور الذى يحكم من الناحية الزمنية ، يتلوه الملوك الذين يدينون له بالواجبات نظير الحقوق التى اكتسبوها نظريا على ممالكهم ، لأن كل مملكة إنما هى فى العرف الإقطاعى إقطاع من قبل الإمبراطور . ثم تأتى طبقة كبار النبلاء الخاضعين لسلطان أولئك الملوك ، فالبارونات فالفرسان . وهكذا نجد طبقة فوق أخرى تتسع دائرة كل منها كلما نزلنا إلى اسفل الهرم . ويدين

أفراد كل طبقة لمن هم فوقهم بواجبات وفروض معينة عرفت بواجبات التبعية الإقطاعية . كما أن لهؤلاء امتيازات وحقوق على غيرهم ممن هم دونهم إلى أن نصل إلى قاع ذلك الهرم حيث طبقة رقيق الأرض التى كان أفرادها يتبعون من فوقهم وليس لهم من متبوعين دونهم . وكانت الحروب الإقطاعية فى عصر الأنشودة لاتزال قائمة بين كبار رجال الإقطاع ، يبرزون فيهاماتعملوه من فنون القتال . وكانت الحروب الصليبية التى لاتزال فى بدايتها تصادف هوى فى نفوس اولئك الإقطاعيين (٨) وهى التى وجدوا فيها امتدادا لحروب التوسع الإقطاعى التى ألفوها .

تلك هى الحال التى كان عليها الغرب الأوروبى وقت تدوين الأنشودة . صراعات ومنازعات وحروب تكاد لاتنقطع ، وتغييرات سياسية وإجتماعية وأقتصادية خطيرة ، وأحداث سريعة متلاحقة ،وأنفاس لاهثة تكاد لاتتوقف . كان مسرحا عجيبا للفوضى والاضطرابات التى شملت شتى مرافق الحياة . ومع ذلك فإن هذا العصر ، بكل مافيه من غليان ، لم يصل فى حلكته إلى ظلام القرون السابقة ، كما أنه لم يبلغ فى تقدمه وأستقراره مابلغه الغرب فى القرون اللاحقة التى شهدت عصر النهضة الأوروبية . وجدير بالذكر أن هذه الأوضاع القلقة لم تترك مجالا للناس للتأمل والانتاج الأدبى الرفيع . وقد انعكس هذا على الأنشودة نفسها . كما كانت الأنشودة — بدورها — مرآة صافية أنعكست عليها ظروف الغرب وقتها .

التاريخ الذى كتبت فيه الأنشودة :

أختلفت آراء الكتاب والمؤرخين الحديثين فى هذا الصدد أختلافا بينا . وهناك نظريات عديدة حول تاريخ كتابة الأنشودة ، نجمل أهمها فيما يلى :

النظرية الأولى :

يرى فريق من الباحثين أن الأساطير وملاحم البطولة تنبثق عادة من مشاعر الشعب وأحاسيسه وانفعالاته فى شكل أغان قصيرة . وكان الفرنسيون والألمان يشيدون برجالهم وأبطالهم فى حياتهم وبعد مماتهم . لما أدوه من جلائل الأعمال أو لانتصاراتهم فى الحروب ، ويسجلون ذلك فى أغان قصيرة ، وأنه على هذا الاساس نشأت الأنشودة وتطورت مع الزمن حتى أتخذت شكلها النهائى فى القرن الحادى عشر أو القرن الثانى عشر للميلاد .

النظرية الثانية :

ويرى فريق آخر من المؤرخين ، وعلى رأسه جاستون باريس G. Paris وجوستاف لانسون G. Lanson (٩) ، أن الأنشودة من أصلى جرمانى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الميروفنجية .ويرفض غالبية الكتاب الأخذ بهذا الرأى.

النظرية الثالثة :

يرى أحد المؤرخين الفرنسين الحديثين ، وهو جوزيف بدييه J. Bédier أن الأنشودة فرنسية الأصل قامت على أساس أسطورة وضعت بعد الأحداث الحقيقية للقصة بوقت غير قصير . وأنها استلهمت أفكار الدين والفروسية التى ظهرت بوضوح فى أواخر القرن الحادى عشر لإثارة الناس للقيام بالحركة الصليبية .

النظرية الرابعة :

وقد نادى بها المؤرخ الإنجليزى وليم مالمسبرى William Malmesbery الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، ووضع كتابا باسم ,,أعمال ملوك أنجلترا,, وقال فيه إن جنود وليم الفاتح النورماندى الذى غزا أنجلترا سنة ١٠٦٦ م ، كانوا يتغنون بهذه الأنشودة قبل موقعة هاستنجز التى مهدت السبل للاستيلاء

على الجزيرة البريطانية . ويستطرد قائلا إن الأنشودة على هذا الأساس تكونت خلال النصف الأولى من القرن الحادى عشر .

النظرية الخامسة :

حاول فريق من المؤرخين تحديد تاريخ الأغنية عن طريق دراسة العقلية والأفكار والمثل العليا التى تبدو من قراءتها . فمن يقرأ الأنشودة يدرك أن جميع أبطالها تخضع تصرفاتهم لفكرتين أساستين هما الدين والفروسية . فالأنشودة تتحدث بالتفصيل عن الإقطاع فى ذروة تمامه وكماله ، وعن السادة الإقطاعيين بعد أن أنتظمت حقوقهم وواجباتهم ، ولم يحدث هذا قبل القرن الثانى عشر .

فقد كان الإقطاع قبل ذلك التاريخ فى طور التكوين ، ولم تكن قد أتضحت معالمه بعد . ولو كانت الأنشودة قد وضعت فى عصر شارلمان ، مثلا ، أو حتى بعده بقرن او قرنين من الزمان ، لما تضمنت هذه الأفكار عن الإقطاع فى ذروته . وعلى هذا لا يمكن أن تكون قد وضعت قبل نهاية القرن الحادى عشر أو بداية القرن التانى عشر الميلادي . فضلا عن ان الروح الدينية التى تبدو فى كل سطر من سطورها تقريبا ، والتى تدفع الفارس المقاتل مثل رولان للتضحية بحياته فى سبيل عقيدته ومثله ومبادئه ، لم تتبلور إلا خلال القرن الحادى عشر أو بداية القرن الثانى عشر . وتقترن هذه الروح الدينية المتشددة فى الغرب اللاتينى بالحركة الصليبية التى دعت إليها البابوية فى أخريات القرن الحادى عشر . ويخلص هذا الفريق من المؤرخين أن الأنشودة إما وضعت فى أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر .

النظرية السادسة :

يرفض كثير من المؤرخين النظريات السابقة ، ويستبعدون أن تنشأ ، الأسطورة بعد حوالى ثلاثة قرون من قيام الأحداث الحقيقية المتعلقة بها ، دون

أن تكون هناك صلة ماتربط بينهما . ويقول أنصار هذا الفريق إن الهزيمة التى ألحقها العرب بشارلمان تركت اسوأ الأثر فى نفسه وفى شعبه ، ولم تفلح الأيام أن تمحوها . فوضعت أنشودة رولان التى أخذ الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية ، أو عن طريق الشعر القصصى الشعبى الذى لم يدون. وعلى هذا ، فإن الأنشودة التى ظهرت مدونة فى أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر ، تستمد أصولها من الأدب الشعبى ومن أحداث تاريخية وقعت فى عهد شارلمان (١٠) .

ويزيد المؤرخ الإنجليزى هنرى وليم كارلس ديفز H.W.C. Davis الأمر وضوحا ، فيقول إن هذه الأنشودة كانت معروفة قبل بداية الحروب الصليبية ولكنها دخلت مع بدايتها فى مرحلة جديدة . إذ ساد الاعتقاد وقتذاك أن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية متجهة إلى الشرق. وقد أستغل الشعراء اللاتين هذه الناحية ، وهم يعرفون جيدا أثرها فى النفوس، فى وقت كانت فيه أوروبا تتسم بالتزمت الشديد فى هذه الناحية . ولعلهم وجدوا تشجيعا وترحيبا من البابوية والهيئات الدينية الأخرى فى الغرب ، فخرجوا بأسطورة جديدة لعب فيها الخيال دورا كبيرا . إذ صوروا شارلمان فى هيئة محارب صليبى فى حروب مستمرة ظافرة ضد العرب . ولم يكتفوا بذلك ، بل نسجوا من خيالهم قصة مؤداها أنه حج إلى بيت المقدس وزار القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية والتقى بكبار المسئولين فيها ، وذلك بقصد تعبئة الشعور بين أهل الغرب ضد العرب فى الشرق (١١) . وكان من أثر ذلك أن شوهوا ، الأنشودة الأصلية القديمة بما أدخلوه عليها فى أخريات القرن الحادى عشر من آراء وأفكار تحقيقا لغايات معينة (١٢) .

ولعلنا نخلص مماسبق أن أنشودة رولان التى ظهرت فى أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر ، هى صورة ممسوخة للقصيدة الأصلية التى

كان الناس يتغنون بها قبل ذلك التاريخ بوقت غير قصير ، وكانوا يتناقلونها شفاهة جيلا بعد جيل إلى أن أخذت شكلها النهائى مع بداية الحركة الصليبية (١٣). وليس من العسير إدراك أنه لم يكن لها أى أثر مباشر أو غير مباشر فى قيام تلك الحركة أو حتى فى التمهيد لها ، اللهم إلا دورها فى إثارة الحماسة والنعرة الدينية لدى اللاتين للعمل على توسيع دائرة نشاطهم بحيث تشمل الشرق العربى إلى جانب شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد تفنن الغرب فى إبتداع مثل هذه الأساطير التى ترتكز على تمجيد البطولة والإشادة بها ، والتى لاقت نجاحا كبيرا فى ذلك الحين .

مؤلف الأنشودة :

كان الاعتقاد السائد من قبل أن لأنشودة رولان أكثر من مؤلف . ولكن أحدث البحوث التاريخية أثبتت أن لها مؤلف واحد ، بعد أن أستبعدت فكرة وجود أغنية أولية أو ملحمة شعرية أشترك فى تدوينها عدد من الشعراء المتعاقبين (١٤). ولم يتسن معرفة أسمه ، وعلى هذا فقد أصطلح على الإشارة إليه بالمؤلف المجهول ، كما لم يتسن معرفة شىء عن حياته وسيرته . ولكن إذا أمعنا النظر فى أبيات الأنشودة يتضح أنه فرنسى من شمال غربى فرنسا ، ومن مقاطعة نورماندیا أو ضواحيها . حيث يكثر من الإشارة إليها . كذلك تكشف الأغنية أنه من رجال الدين ، وأنه يتميز بثقافة عالية فى الأدب اللاتينى وفى علم اللاهوت وأنه عاش فيما بين نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر . وبذا يكون قد عاصر بداية الحركة الصليبية . ويعتقد البعض أنه وضع ملحمته فيما بين عامى ١٠٩٥ و١٠٩٩ م . وبكلمة أوضح فى التعبير ، فيما بين إعلان البابا اربان الثانى لبداية الحركة الصليبية فى مؤتمر كليرمون وأستيلاء الصليبيين فى الحملة الأولى على مدينة بيت المقدس (١٥) . ويستنتج الباحثون فى الأدب الفرنسى الوسيط أن هذا المؤلف المجهول كان فنانا بالفطرة . ويستدلون على

ذلك من طريقة عرضه للملحمة ، ومن جدتها وتماسكها ، ومن أساوب معالجته لأحداثها وتناوله لشخصياتها ، فضلا عن أسلوبها وحوارها (١٦) .

الأنشودة بين الأسطورة والتاريخ :

ثمة تساؤلات تفرض نفسها ملحة فى طلب الإجابة عنها . هل يمكن اعتبار الأنشودة من مصادر التاريخ الموثوق بها ؟ وإلى أى حد يمكن الاعتماد عليها والإفادة منها ؟ من الواضح أنها لم تدون بقصد تسجيل أحداث التاريخ مثلما هو الحال بالنسبة للحوليات والمصادر التاريخية . إذ من الجائز أن يستغل المؤلف الروائى أو القصصى الشخصيات والأحداث التاريخية ليجعل منها مادة تخدم قصته أو قصيدته . فهو ، حينئذ ، لايتقيد بالحقيقية التاريخيةالبحتةأو بحرفيتها ؛ إنما يضفى عليها من خياله مايجعلها أقرب إلى الأسطورة . وبكلمة أخرى . فهويستغل قلمه كأديب وليس كمؤرخ . ولذلك من الخطورة أن نستقى منه معلوماتنا التاريخية . فمؤلف أنشودة رولان — على سبيل المثال لاالحصر — يجعل من رولان ابن أخت شارل العجوز البالغ من العمر أكثر من مائتين من السنين.وأعتبر حملة شارلمان فى إسبانيا حربا صليبية ، كما جعل من المعركة البسيطة التى قامت بين مسلمى إسبانيا ومؤخرة جيش شارلمان فى أواخر القرن الثامن حملة صليبية ، مما لايتفق والحقيقة التاريخية (١٧) .

وعلى هذا لايمكن اعتبار الأنشودة من مصادر التاريخ فى عصر شارلمان ، وإن كان يمكن الإفادة منها فى دراسة بعض نواحى التاريخ التى أهملتها المصادر التاريخية . ذلك أن تلك المصادر ، وبخاصة المعنية بالحقبة الوسيطة من التاريخ لم تكن تهتم إلا بالنواحى السياسية والحربية ، مع الإشادة باعمال القادةوالحكام ، والشخصيات البارزة فى المجتمع فحسب ، ولم يكن يعنيها الإشارة إلى حياة الشعب . كيف كان يعيش ، وفيما كان يفكر ، وماهى آماله وآلامهوأحلامه . ويرجع ذلك إلى الظروف القائمة وقتها فى المجتمع الغربى الوسيط ، من سياسية

واجتماعيـة واقتصادية وفكرية وغيرهـا . وعـلى ذلك ، فإن الأنشودة يمـكن أن تلقى الضوء على الحياة الاجتماعية فى العصر الذى دونت فيه ، مما قد لانجده فى المؤلفات التاريخية من كتب ووثائق وحوليات . ويتفق المؤرخون الحديثون المعنيون بتاريخ العصور الوسطى على أن الملاحم الشعبية التى تتناول سير البطولة فى تلك العصور وتصف مجتمعه ، تعادل فى قيمتها المصادر التاريخية إن لم تتفوق عليهامن بعض النواحى .ذلك أنها حفظت لنا ما اهمل التاريخ تسجيله. وبأختصار ، فإن الأنشودة ، على هذا الأساس ، تكشف عن عقلية المجتمع وقتذاك ، كيف كان الناس يعيشون ، وكيف كانوا يقضون اوقات فراغهم ، وماهى وسائل اللهو والتسلية عندهم ، وطبيعة العلاقة بين الأتباع والمتبوعين ، وبين الأفصال وكبار رجال الإقطاع ، بالإضافة إلى بعض المعلومات الطيبة عن النواحى الإدارية ، وعن الفروسية والاقطاع (١٨) .

الحقيقة التاريخية فى الأنشودة :

أنشودة رولان، إذن ، بشكلها الذى وصل إلينا ، هى أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة التاريخية البحتة . ومـع ذلك ، فـما لاشك فيـه أن مصـدرهـا الأساسى حدث تاريخى صحيح (١٩) ، عملت فيه يد التحوير والتعديل لتبعد به عن الحقيقة ولتجعله أقرب إلى الخيال . وأصل الأنشودة أن عبد الرحمن الداخل الأموى تمكن فى القرن الثـامن الميلادى (القرن الثـانى الهجرى) مـن الاستقلال بجنوب إسبانيا ، وتأسيس دولة هناك منفصلة عن الخلافة العباسيـة فى بغداد . وقد واجه الكثير من المشـاكل والصعاب التى أثارهـا فى وجهـه الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، ولكنه نجح فى القضاء عليها فيما بين عامى ٧٧٠ و ٧٧٧ م. وما ان تخلص من مضايقات المنصور حتى قامت فى وجهـه ثورة دبرها امير سرقسطة المسمى سليمان بن يقظان الاعرابى الذى سعى للتحالف ضده مع شارلمان . وترتب على ذلك قيام شارلمان بحملتين ضد مسلمى الأندلس

فى عامى ٧٧٧ م (١٦٠ هـ) و٧٧٨ م (١٦١ هـ) . وتمكن من التقدم فى البلاد والاستيلاء على عدد من مدنها ، مستغلا الخلافات التى قامت بين أمراء المسلمين. إذ قتل أحد زعمائهم ، ويسمى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلى ، وتولى قيادة الجيش فى سرقسطة قائد آخر يدعى الحسين بن يحيى الأنصارى الذى رفض تسليم المدينة إلى شارلمان . وأحس الإمبراطور بحرج مركزه ، ووجد أن خير وسيلة هى التراجع عنها . وعند الانسحاب هاجم سكان الجبال الذين يعرفون باسم البشكونس (٢٠) وكانوا يدينون بالمسيحية ويعادون الفرنجة ، مؤخرة جيش شارلمان الذى كان يتولى قيادته ثلاثة من رجاله هم اجيهارد Eggihard وانسلم Anaelme ورولان . وقد هزم هذا الجيش ، وقتل رولان فى أغسطس من سنة ٧٧٨ م (٢١) .

وجاء ذكر هذه الأحداث التاريخية فى الحوليات الملكية المعاصرة لشارلمان ، وفى كتاب أجنهارد Eginhard بلاتينية عن حياة شارلمان ,, Vita Karoli الذى وضعه حوالى سنة ٨٣٠ م ، أى بعد وفاة شارلمان بست عشرة سنة ، وقد امدنا بمعلومات أكثر تفصيلا (٢٢) . كذلك وردت هذه الوقائع فى مصادر أخرى متأخرة نسبيا وأقل أهمية (٢٣) .

وجدير بالذكر ان هذه الأحداث التى ورد ذكرها فى الأصول الغربية من معاصرة ومتأخرة . مرت عليها مر الكرام فى سطر او بعض سطر او على احسن الفروض فى اسطر معدودات ، بعض المصادر العربية المتأخرة زمنيا عن تلك الأحداث ، ولانجد تفسيرا مقبولا لذلك ، خاصة وأن النصر لم يكن حليف شرلمان . لقد ضنت علينا تلك المصادر بالكثير من المعلومات التى لو كانت قد زودتنا بها لاتاحت لنا فرصة اعطاء صورة دقيقة عن حروب شارلمان فى إسبانيا من وجهة النظر العربية .

وتعتبر اقدم إشارة فى المصادر العربية تلك التى اوردها المؤرخ المجهول

صاحب كتاب ,,أخبار مجموعة فى فتح الأندلس,, . وقد عاش هذا المؤرخ فى اواخر القرن الرابع الهجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى) . وتحدث عن ثورة سليمان الأعرابى وحسين بن يحيي الأنصارى ضد عبد الرحمن الداخل ، وأتصال سليمان بشارلمان مما أطمعه فى مدينة سرقسطة التى حاول دون جدوى الاستيلاء عليها (٢٤) . واكتفى العذرى الذى عاش فى أواخر القرن الخامس الهجرى (اواخر القرن الحادى عشر الميلادى) بالإشارة إلى الخلافات بين العرب فى الأندلس وقتها ، دون التعرض لشارلمان وحملته ضد مسلمي إسبانيا (٢٥). اما ابن الأثير الذى عاش فى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى)، فقد ردد نفس ماجاء فى كتاب المجهول المعنون «اخبار مجموعة» (٢٦). وتختلف رواية المغربى التلمسانى الذى عاش فى القرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) عن رواية المجهول . إذ يقول ,,وخاطب عبد الرحمن قارلة ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة ..... فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فاجابه للسلم ولم تتم المصاهرة . ,,(٢٧) ولعل عبد الرحمن قد بادر بالتفاهم مع شارلمان عندما ادرك اتصال خصميه الأعرابى والأنصارى به . وذلك بقصد تفويت الفرصة عليهما . او لعل كلا الفريقين المتصارعين قد اتصلا بشارلمان ، وكان اقوى شخصية فى الغرب الاوروبى وقتها ، محاولا كل منهما كسبه إلى جانبه فى صراعه ضد خصمه . والمهم أن هذه المعلومات المبتورة المقتضبة الواردة فى المصادر العربية المتأخرة ، لاتسعفنا برسم صورة متكاملة للاحداث . ولعل العذر الوحيد الذى يمكن ان نلتمسه للمؤرخين العرب انهم كانوا حديثى العهد بفن التدوين التاريخى . فضلا عن ان طريقة السرد الحولى التى ساروا عليها ، والتى استمرت طوال العصر الإسلامى الوسيط ، لم تساعد على حفظ تلك الأخبار مجتمعه متكاملة .

ومهما يكن من امر ، فقد اختلف المؤرخون الغربيون الحديثون المعنيون بتاريخ هذه الفترة ، فى تقييم معارك شارلمان فى إسبانيا ونتائجها ، وفى تقدير قيمة الهزيمة الحربية التى لحقت برجاله . فيعتقد البعض انها لم تكن سوى هزيمة لمؤخرة جيشه ، وليس لها اى اثر على الجيش الفرنجى كله . ويرى فريق آخر أنها كانت هزيمة ساحقة ، وأنها تركت اسوأ الأثر فى نفوس الفرنجـة ظل عالقا باذهانهم فترة طويلة من الزمن . ويستدلون على ذلك من تردد شارلمان وتوخيه الحرص والحذر فى حروبه ضد العرب فى إسبانيا بعد ذلك التاريخ . هذا ، بينما يرى فريق ثالث أنها مجرد معركة عادية ، وليست حربا فاصلة بالمعنى المفهوم (٢٨) .

ولعله يتضح مما سبق أن الحقيقة التاريخية تختلف اختلافا بينا عن الملحمة الغنائية التى تعتبر اسطورة شعبية من أساطير العصر الوسيط، تروى سير البطولة وتمجدها ، فى وقت بلغ فيه الإقطاع ذروة نضجه، بينما بلغت الكنيسة الرومانية فى الغرب قمة سطوتها .

الشخصيات والأماكن الجغرافية الواردة فى الأنشودة :

يلاحظ ان الشخصيات التى وردت فى الأنشودة خيالية اسطورية فى معظمها ، بعيدة عن الشخصيات التاريخية الحقيقية . وهناك شخصيات إسلامية وأخرى مسيحية . وتنحصر الشخصيات الإسلامية، تقريبا، فى شخصية مارسيل حاكم سرقسطة ، وبلانكاندران Blancandrin مبعوث العرب لدى شارلمان. وهما من الشخصيات الخرافية التى لاتمت بصلة إلى الأسماء الإسلامية الحقيقية المعروفة التى عاصرت شارلمان والتى احتك بها فى حروبه فى إسبانيا . فالأسماء الحقيقية المعروفة هى سليمان بن يقظان الأعرابى امير سرقسطة والحسين بن

يحيى الأنصارى الذى تولى الأمر بعده ، وهما اللذان احل المؤلف محلهما إسم مارسيل . وكذلك عبد الرحمن ابن حبيب وهو احد الذين تزعموا الثورة ضد عبد الرحمن الداخل الأموى . وهذه اسماء تاريخية حقيقية ورد ذكرها فى المصادر القديمة (٢٩) . وواضح من الأنشودة أن مؤلفها كان يجهل تماما احوال المسلمين ودولهم وقتذاك ، وذكر معلومات غير صحيحة عنهم ، شأنه شأن المصادر الغربية القديمة . ولكن الخلاف أن المصادر الغربية كانت تروى الأسماء الإسلامية محرفة ، وكان هذا أمرا عاديا ومعروفا وقتذاك . ولكن بالنسبة للأنشودة ، فليس هناك تحريف فى الأسماء الإسلامية ، ولكنها كلها من نسج الخيال . وهى إما أسماء فرنسية أو إسبانية ، وليست على أى حال عربية إسلامية . اما الشخصيات المسيحية فبعضها حقيقى والبعض الآخر من نسج خيال المؤلف . وأهمها شخصيات شارلمان ، ورولان وهو حاكم إقليم بريتانى بفرنسا ، ورئيس الأساقفة تيربان Turpin ،وهى شخصيات حقيقية ، واوليفييه ، وجانيلون Ganelon ، وجيران Gérin وجيرييه Gérier ، وهم وغيرهم من الشخصيات التى وردت فى الأنشودة من نسج خيال المؤلف . وقد أصبحوا من شخصيات الأساطير فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ومن هنا اكتسبوا تلك الشهرة التى تمتعوا بها (٣٠) .

وكل شخصية من هذه الشخصيات تستحق دراسة مستفيضة متأنية حول حقيقة إسمها ، والمصادر التى استقى منها مؤلف الأنشودة معلوماته عنها ، والحقيقة والخيال فى كل منها ، ومدى مطابقة الصور التى رسمها المؤلف للشخصيات التاريخية الحقيقة ، مثل شارلمان ورولان ، لما كان يعرفه الناس عنها .

ومادمنا نتحدث عن شخصيات الأنشودة ، فيجب أن نذكر أن العنصر النسائى لايظهر فيها باستثناء إشارة سريعة عابرة إلى خطيبة رولان التى بكيت

عندما بلغها خبر مقتله ثم ماتت هى الأخرى (٣١) . ويرجع السبب فى انعدام العنصر النسائى تقريبا فى الملحمة ، ان الفروسية فى المجتمع الغربى الوسيط كانت وقتذاك فروسية الرجال . فالحرب صناعتهم . وفيها يبرزون ماتعلموه من فنون القتال ، وقد ارتبطت بالنظام السائد وقتها وهو الإقطاع . ولانسمع عن شخصيات نسائية بارزة فى المجتمع الغربى إلا فى اواخر العصر الوسيط وبدايات عصر النهضة ، مثل بياتريس عند دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) ، ولورا عند بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤ م) ، والموناليزا عند ليوناردو دافنشى (١٤٥٢— ١٥١٩ م) ، وذلك عندما أعطت الفروسية للمرأة مركزا أسمى مما كانت تتمتع به من قبل (٣٢) .

هذا بالنسبة لشخصيات الأنشودة ، أما بالنسبة للأمكان الجغرافية فقد ورد فى الأنشودة أسماء عدد منها فيها أخطاء عديدة ، وبعضها من ابتداع المؤلف ، مما يكشف عن عدم معرفته بالمدن الإسلامية . بل أنه من الصعب الاستدلال على كثير من هذه المدن مثل كوميبل Commibles ، وفالترن Valterne ، وبين Pine ، وبالاجيه Balagure ، وتويل Tuèle ، وسزيل Sezille (٣٣). والواضح أن المؤلف المجهول لم يتوخ ، بصفة عامة ، الدقة فى ذكر أسماء المدن التى سردها ، او لعله لم يكن يعنيه التدقيق عند ذكرها ؛ شأنها شأن الشخصيات التى اختلقها من خياله . هذا ، باستثناء المدن الحقيقية التى اوردها مثل سرقسطة فى شمال إسبانيا وإكس فى المانيا (٣٤).

أضواء جديدة على الأنشودة ، وقضايا لم تحسم بعد :

فى محاضرة ألقاها فى مقر المكتبة الإسبانية فى أغسطس من عام ١٩٧٨ ، عالم اللغويات الفرنسى بجامعة السوربون مارسيل بيش Marcel Baiche ، ابدى رأيا جديدا فيما يتعلق بمعركة رنشفالة Roncevaux التى قتل فيها رولان —

بطل الأنشودة موضوع هذه الدراسة — فى حروبه ضد العرب فى إسبانيا . وكان السؤال الذى طرحه هو : هل كان مسرح مطاردة العرب لجيش رولان هو الموقع المسمى رنشغالة الواقع فى جبال البرانس على حدود نافار ، والذى يحمل هذا الإسم ؟

وخلص مارسيل بيش من دراسته اللغوية للفظة « رنسفو » أن هذا الموقع لم يكن له اى وجود فى عصر أنشودة رولان ، وأنه مختلق من خيال المؤلف ولا يمت إلى الحقيقة التاريخية أو الجغرافية بصلة (٣٥) ؛ وهو ماسبق أن أوضحه اندرية كورديه ، تاركا القضية دون إجابة حاسمة محددة .

ويرتكز مارسيل بيش فيما توصل إليه على تفسير الأصل اللغوى للفظة « رنسفو » وما تعنيه . إذ قال إن هذه اللفظة وجدت فى سلسلة الأبحاث الخاصة بأسماء البلاد فى العصور الوسطى ، بأكثر من معنى . فهى فى اللغة القشتالية تعنى « الوديان الخشنة » Roncos Valles ، وفى اللغة الفرنسية القشتالية تعنى « وادى نبات العوسج » Valle de Zarzales ، وفى اللغة الفرنسية النورماندية تعنى « الوديان المنداة » Valles Mozades ، وفى اللاتينية «الوديان المنقاة من الحشائش » Rimcia Vallis أو Rosicdae Valles ، وفى اللغة البروفانسية « الوادى المنعطف Ronsivaus ، وفى اللغة الاقطانية « الوديان المنداة » Rozas Vals . ويستطرد بيش قائلا إن هذا التعبير الأخير تكرر فى عدة لغات مختلفة بنفس المعنى تقريبا . ثم ربط هذا بما ورد فى الأنشودة من أن مسرح المعركة كان فى موقع Ronces Valles فى نافار ، حيث تتميز الأرض بجفافها وعدم وجود الماء فيها . وخلص من كل ذلك أن «رنسفو» لم تكن مسرح المعركة التى قتل فيها رولان ، وأن الموضوع لايزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث (٣٦) .

والحقيقة أن أنشودة رولان لاتزال حتى الآن مثار كثير من الجدل والنقاش ، وأنها تفتح آفاقا رحبة واسعة لدراسات خصبة متجددة ، على الرغم من مرور اثنى عشر قرنا على تاريخ الأحداث التى تعرضت لها . فمن الموضوعات التى لم يبت فيها برأى حاسم حتى الآن مسرح المعركة على وجه التحديد ، والمكان الذى دفن فيه رولان ، وتاريخ موته ، والشخصيات التاريخية الحقيقية كما صورها لنا مؤلف الأنشودة ومدى مطابقتها للواقع كما ورد فى المصادر التاريخية من لاتينية وفرنسية قديمة وغيرها ، وايضا اسماء شارلمان والقابه التى ورد ذكرها فى الأنشودة وهى « شارل » و« شارل العظيم » و « شارلمان »و«الملك » و « الإمبراطور » ومتى استخدم كل إسم او لقب منها حسبما جاء فى الوثائق والأسانيد التاريخية القديمة . وكذلك قيمة الأنشودة فى الكشف عن حلقة من حلقات الصراع بين حضارتين وعالمين متباينتين مختلفين خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط . كل هذه نقاط وقضايا هامة لاتزال بحاجة إلى دراسات مدققة متعمقة يمكن أن تضيف جديدا إلى تاريخ هذه الحقبة من الزمن .

أهم طبعات الأنشودة وترجماتها :

لأنشودة رولان طبعات عديدة ، أولاها ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر . وبعض هذه الطبعات تتضمن النص الأصلى كاملا باللغة الفرنسية القديمة مع ترجمة كاملة له ، بينما تضمن البعض الآخر مقتطفات من الأنشودة . وتميزت بعض الطبعات بأهميتها لما تضمنته من مقدمات وتعليقات .

كانت أول طبعة للأنشودة مع ترجمة لها باللغة الفرنسية الحديثة هى طبعة فرنسيس ميشيل Francisque Michel ، وقد ظهرت سنة ١٨٣٧ . ثم تلتها طبعات وترجمات أخرى عديدة ، إما للأنشودة كلها ، او لمقتطفات

منها ، واعتمد معظمها على النسخة الخطية التى عثر عليها فى مكتبة بودليـان باكسفورد بانجلترا عام ١١٧٠ م . ونذكر من بينها طبعـات فرنسيس جنـان Francis Génin عام ١٨٥٠ ، وتيودور ميلر Theodor Muller الذى أصدر ثلاث طبعات للأنشودة فى اعوام ١٨٥١ و ١٨٦٣ و ١٨٧٨ على التوالى ، ثم طبعة ليون جوتييه Léon Gautier عام ١٨٧٢ واعقبتها طبعات اخرى عديدة له ، وطبعة بوهمر Boehmer عام ١٨٧٢ . ونذكر أيضا طبعة بتى دى جولفيل Petit de Julleville عام ١٨٧٨ ، ثم ظهر له مقتطفات للأنشودة مع دراسة تاريخية ونقدية فى باريس عام ١٨٩٤ ، وطبعة ل . كليدات L.Clédat التى صدرت فى باريس عام ١٨٨٧ ، وطبعة م. بوشور M. Bouchor التى صدرت فى باريس عام ١٨٩٩ ، وطبعة شتنجل Stengel عام ١٩٠٠ وطبعة ج . فابرى J. Fabre التى صدرت فى باريس عام ١٩٠٢ ، ومقتطفات من الأنشودة للمؤرخ جاستون باريس صدرت عام ١٨٨٧ أعقبتهـا طبعات اخرى حتى عام ١٩٠٣ . وأيضا طبعة جروبر Grober عام ١٩٠٧ وطبعة هـ. شامار H. Chamard التى صدرت فى باريس عام ١٩١٩ ، وطبعـة ج . فودوز J. Vodoz التى صدرت فى باريس عام ١٩٢٠ ، ثم طبعة ت . اتكنسون جنكينز T. Atkinson Jenkins التى صدرت فى ميونيخ عام ١٩٢٣ ، وطبعة الفونس هيلكا Alfons Hilka التى صدرت فى هال Halle عام ١٩٢٦ ، ثم عرض ودراسة تحليلية للأنشودة بقلم أ . فارال E.Faral صدرت فى باريس عام ١٩٣٣ ، ودراسة للأنشودة من وجهة النظر التاريخية بقلم ر . فاوتييه R. Fawtier صدرت فى باريس عام ١٩٣٣ . وايضا طبعة أندرية كورديه André Cordier التى تضمنت مقتطفات من الأنشودة وصدرت فى باريس عام ١٩٣٥ ، وطبعة جوليو برتونى Giulio Bertoni التى صدرت فى فلورنسا عام ١٩٣٥ ، ثم طبعة جوزيف بدييه Joseph Bédier

التى صدرت فى باريس عام ١٩٣٧ ، وطبعة م . بريو M. Periot . التى صدرت فى باريس عام ١٩٥٠ .

خـــاتمة :

تلك هى الأنشودة التى أثارت – ولاتزال تثير – ضجة كبرى منذ اكتشاف أول نسخة خطية لها ترجع إلى أواخر القرن الثانى عشر ، ومنذ صدور أول طبعة لها فى أوائل القرن التاسع عشر . لقد ألهبت حماسة الكتاب والمؤرخين المعنيين بتاريخ العصور الوسطى وحضارتها . ولاتزال حتى اليوم بما تضمنته من معلومات ومفاهيم وأفكار ، هى مثار كثير من الجدل والنقاش تحتمل العديد من البحوث والدراسات الجادة القيمة فى مجالات شتى متنوعة. بل إن كل قضية من القضايا العديدة التى طرحناها على بساط البحث فى هذه الدراسة ، تحتمل بدورها دراسات مسهبة مستقلة قائمة بذاتها قد تفتح آفاقا رحبة واسعة لبحوث أخرى جديدة .

الحـــــواشى

(١) Contor, N.F.(ed.),The Medieval World : 300–1300, New York,1963, 235; Lagarde, A. & Michard, L., Moyen Age, Paris, 1960, 3; Paris, G. & Langlois, E., Chrestomathie du moyen age, Paris, 1912, 12; Perier, A., La Chanson de Roland (Traduction et Commentaires), Paris (N.D.), 2; Bédier, J., La Chonson de Roland, publiée d'après le manuscrit d'Oxford et traduite, Paris, 1937, I; Lanson, G., Histoire de la Littérature Française, Paris, 1951 20.

(٢) La Monte, J., The World of the Middle Ages, New York 1949, 248,594 Crump, C.G. & Jacob, E.F. (eds.), The legacy of the Middle Ages, Oxford, 1951, 183, 193; Lanson, op. cit., 29.

(٣) La Monte, op. cit., 593--594.

(٤) Cordier, A.; La Chanson de Roland, Paris, 1935, 6; Perier, op. cit., 6.

(٥) Cf. Ker, W.P., The Dark Ages, New York, 1955, 354; Perier, op. cit., 4—6; Cordier, op. cit., 6—7.

(٦) Cordier, op. cit., 5—6.

(٧) Ker, op. cit., 355—356

(٨) للمزيد من المعلومات عن أوضاع الغرب فى عصر أنشودة رولان ، أنظــــــر :

Halphen, L., L'Essor de L'Europe, Paris, 1941, 3ff., 23ff., 47f., 55f., Pirenne, H., Medieval Cities, trans. by F.D. Halsey, Princeton, 1948, 56ff.: Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I : The First Hundred Years, ed. by M.W. Baldwin, Philadelphia, 1958, 10ff., 25f.; Baldwin, M.W., The Mediaeval Church, New York, 1960, 99; Cordier, op. cit., 5.

وحول استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، ثم استعادة الصالح أيوب للمدينـــة للمرة الأخيرة ، أنظر : ابن شداد (ابو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة) : سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — القاهرة ١٣١٧هـ

– ص ٦٠ ومايليها و١٤٣ ومايليها و٢٢٠ ومايليها الأصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد) : الفتح القسى فى الفتح القدسى – القاهرة ١٣٢١ هـ – ص ١٧ وما يليها و٣٦ ومايليها و٣١١ ومايليها ، أبوشامة (عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين – القاهرة ١٣٦٦ هـ – ص ١٧٤ ؛ المقريزى (تقى الدين ابو اسماعيل احمد) : السلوك لمعرفة دول الملوك – نشر د . محمد مصطفى زيادة – جـ١ قسم ٢ – القاهرة ١٩٣٦ – ص ٣١٦ ومايليها .

(٩) يرى جاستون باريس أن أغنية رولان لاتستند إلى الحقائق التاريخية . ويقول إن الأغانى التى وضعت فى فترات متأخرة اقتبست نماذج لشخصيات مثل رولان من الأساطير الأصلية القديمة التى وردت فيها تلك النماذج للمرة الأولى ، وإن الأغانى التى استلهمها مؤلفوها من أحداث الحركة الصليبية لاشأن لها بالملاحم القديمة مثل أنشودة رولان ، وإن كانت قد أخذت عنها إطارها العام فحسب . وبناء على ذلك ، فإن القصائد التى وضعت زمن الحروب الصليبية إما تقليد للقصائد الأصلية القديمة أو ابتداع من خيال الشعراء . ويخلص الكاتب من هذا أن أنشودة رولان تم إحياؤها فى أواخر القرن الحادى عشر لتحريك الشعور فى غرب اوروبا ضد العرب فى المشرق ، فى الوقت الذى أعلنت فيه البابوية بداية الحروب الصليبية . أنظر :

Paris, G., Mediaeval French Literature, trans, from the French by H. Lynch, London, 1903, 32, 38ff.

ويرى جوستاف لانسون أن الأنشودة من أصل جرمانى ، وأن بدايتها الأولى كانت مع بداية الأسرة الميروفنجية فى غالة عندما كان الشعب يتغنى بأعمال ملوكه وأبطاله منذ أيام كلوفيس وأبنائه . وكان الناس يتناقلون تلك الأغانى شفاهة . وأخيرا مزجت مع شخصية شارل مارتل ، وتمركزت فى شكلها النهائى حول شخصية شارلمان ، وغدا هو بطلها . ويرجع ذلك إلى قوة شخصيته ، وإلى حروبه الواسعة ، وفتوحاته العديدة طوال فترة حكمه . أنظر عن ذلك :

Lanson, op. cit., 20—22.

(١٠) فيما يتعلق بمختلف الآراء التى أثيرت حول التاريخ الذى كتبت فيه الأنشودة ، أنظر

Petit-Dutaillis, Ch., La Monarchie féodale en Fıance et en Angleterre, Paris, 1971, 32; Cordier, op. cit., 8—12; Peıier, op. cit., 2—3; Lagarde & Michard, op. cit., 4—5; Paris & Langlois, op. cit., 12; Paris, G., Récits extraits des poètes et prosateurs au moyen age, Paris, 1896, 1; Painter, S.A., History of the Middle Ages : 284—1500, London, 1966, 452—453.

(١١) قصيدة حج شارلمان قصيدة باريسية الأصل يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٦٠ م تقريبا ، أى أثناء الفتح النورمانى لانجلترا . وتكاد أن تكون الإنتاج الأدبى الوحيد الذى وصل إلينا من هذا التاريخ المبكر فى شكله الأصلى دون أن تمتد إليه يد التحوير أو التغيير . ومع ذلك ، فهى مختلقة من خيال الشاعر الذى نسب إلى شارلمان ورجاله أعمالا لم يقوموا أصلا بها . وعلى هذا ، فهى لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، شأنها شأن أنشودة رولان. أنظر : La Moante, op.cit., 594 راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية — مقال فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية — العدد ١٦ — الإسكندرية ١٩٦٣ — ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(١٢) ديفز (هـ . و . ك .) : شارلمان — نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى — القاهرة ١٩٥٩ — ص ٢٨٧ ومايليها .

CF. Perieı, op. cit., 2; Bédier, J., Les Légendes épiques : recherches sur la formation des Chansons de geste, 4 vols., Paris 1930, Vol. III, 186-191.

(١٤) أنظر : Perier, op. cit., 3; Cordier, op. cit., 12.

وقد ورد فى كتاب تاريخ الحضارة لمؤلفيه برنتون وكريستوفر وولف ، أن الأنشودة قد يكون لها مؤلف واحد أو أكثر من مؤلف . أنظر عن ذلك :

Brinton, C., Christopher, J.B. & Wolff, R.L., A History of Civilization, Vol. I, New Jersey, 1967, 185.

وقد أوضحنا فى المتن أن هذا الرأى استبعد الآن تماما .

(١٥) Lagarde & Michard, op. cit., 5; Paris & Langlois, op. cit., 12; Cordier, op. cit., 12—13.

ويرى كورديه (نفس المرجع – ص ١٢) ، أن يحتمل أن يكون مؤلف الأنشودة قد وضعها فيما بين عامى ١٠٩٨ و ١١٠٠ . أنظر ايضا :

Bédier, La Chanson de Rolaud, 11—111.

(١٦) Cordier. op. cit., 13—14; Bédier, op cit., XII; Bloch, M., Feudal Society, trans. from the French by L.A. Manyon, Vol. I, London, 1967, 97.

هذا ، بينما يرى جوستاف لانسون أن الأنشودة تتميز بلغتها الجافة الفقيرة ، وأن مؤلفها المجهول لايرقى إلى مرتبة فرجيل أو دانتى ، وأنه ليس فنانا قديرا . أنظر .

Lanson, op. cit., 30.

وقد سبق أن أوضحنا أن أحوال الغرب وقت تدوين الأنشودة لم تكن تسمح بالإبداع الفنى أو الأدبى . فقد كان هذا العصر فترة انتقال بين العصور المظلمة والنهضة الأوروبية. أنظر ماسبق ، ص ٥ – ٨ من هذه الدراسة .

(١٧) Lagarde & Michard, op. cit., 3; cf. also : Painter, op. cit., 453.

(١٨) يرى برنتون و كريستوفر ووولف أن الأنشودة تعتبر مصدرا رئيسيا لمعرفتنا عن عقلية الطبقة الأرستقراطية فى الغرب فى العصور الوسطى المبكرة . أنظر :

Brinton & Others, op. cit., 185.

بينما يرى المؤرخ نورمان كانتور أن المؤلف لم يترك العنان للناحية الخيالية فى الأنشودة بصفة عامة ، وأنها تعبر عن الوضع الحقيقى للطبقة الإقطاعية فى المجتمع الغربى الوسيط أنظر : Cantor, op. cit., 236. ويضيف مارك بلوك قائلا إنمؤلف الأنشودة عبر عن المفاهيم السائدة فى عصره . أنظر : Bloch, op. cit., I, 97, 232.

(١٩) Paris & Langlois, op. cit., 12; Bloch, op. cit., I, 93; La Monte, op. cit., 157.

(٢٠) أو الباسكونيين أو الغسقونيين أو البشكنس فى نافار . ويطلق عليهم فى المراجع الأجنبية إسم " الباسك " Basques .

CF. Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965, 66; Cordier, op. cit., 7—8; Lagarde & Michard, op. cit.. 3; Paris, récits extraits des poètes et prosateurs au srayen age, I.; Perier, op. cit., 3–4;

Previté — Orton, C.W., The Shorter Cambridge Medieval History, I, Cambridge, 1952, 309.

جدير بالتنوية أنه ليس من أهداف هذا البحث تناول حروب شارلمان فى إسبانيا ، وبخاصة حملة سنة ٧٧٨م ، والظروف التى أحاطت بها ، وتلك التى دعت إليها ، والنتائج التى ترتبت عليها . فهذا موضوع يطول شرحه ، وقد عالجه بتفصيل وإسهاب كثيرين من المؤرخين الحديثين المعنيين بتاريخ المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى الوسيط . ولايكاد يخلو مرجع من مراجع تلك الفترة من الإشارة إلى ذلك . ومن المراجع القيمة فى هذا الخصوص مايلى :

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة — بيروت ١٩٦٢ — ص ٢٠١ ومايليها ؛ محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى (٧٥٥ — ٩٧٦م / ١٣٨ — ٣٦٦ ﻫ) — الاسكندرية ١٩٨١ — ص ١٣٧ ومايليها ؛ حسين مؤنس (دكتور) : معالم تاريخ المغرب والأندلس — القاهرة ١٩٨٠ — ص ٢٦٣ ومايليها ؛ ابراهيم على طرخان (دكتور) المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٦ — ص ١٧٢ ومايليها ؛ دوزى (ر.) : تاريخ مسلمى إسبانيا — الجزء الأول : الحروب الأهلية — ترجمة د. حسن حبشى — مراجعة د. جمال محرز ود. مختار العبادى — القاهرة ١٩٦٣ — ص ٢٢٨ ومايليها ؛ موس (د. س. ل. ب) : ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ — ٨١٤) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — مراجعة د. السيد الباز العرينى — القاهرة ١٩٦٧ — ص ٣٠٥ ومايليها .

(٢٢) Einhard, Life of Charlemagne, in N.F. Cantor (ed.), The Medieval World: 300—1300, New York, 1963, 137.

(٢٣) Cf. Cordier, op. cit., 8; Le Goff, op. cit., 66.

(٢٤) أنظر مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم — مدريد ١٨٦٧ — ص ١١٢ — ١١٣ .

(٢٥) أنظر العذرى (احمد بن عمر بن انس العذرى المعروف بابن الدلائى) : نصوص عن الأندلس من كتاب " ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب

البلدان والمسالك إلى جميع الممالك » – تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى – مدريد ١٩٦٥ – ص ٢٥ و ٢٦ .

(٢٦) ابن الأثير (ابو الحسن بن ابى الكريم .... الملقب عز الدين) : الكامل فى التاريخ – الجزء الخامس – ط . ثانية – بيروت ١٩٦٧ – ص ٦٤ . .

(٢٧) أنظر المقرى التلمسانى (شهاب الدين احمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – تحقيق محيى الدين عبد الحميد – الجزء الأول – القاهرة ١٩٤٩ – ص ٣١٠

(٢٨) Cf. Kitchin, G.W., A History of France, Vol, I, Oxford, 1899, 130; Painter, op. cit., 79; La Monte, op. cit., 157.

(٢٩) أنظر ماسبق ص ١٤ – ١٥ والحواشى ص ٢٧٣ .

(٣٠) حول شخصيات الأنشودة ، أنظر : Lagarde & Michard, op. cit., 6; Perier, op. cit., 7—9; Lanson, op. cit., 26.

وفيما يتعلق بالشخصيات التى اختلقها المؤلف ، أنظر :

Bédier, La Chanson de Roland, 11,13 et Passim.

(٣١) Bédier, op cit,, 307—309; cf. also : Lanson, op. cit., 29; Painter, op. cit., 354; La Monte, op. cit., 248; Lagarde & Michard, op. cit., 29—30.

(٣٢) أنظر ، على سبيل المثال : كولتون (ج ج .) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة – ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف – ط. ثالثة – بيروت ١٩٨١ – ص ١٥١ وح ١ ؛ ديفز (هـ . و .) : أوروبا فى العصور الوسطى – ترجمة د. عبد الحميد حمدى محمود – الإسكندرية ١٩٥٨ – ص ١٠٦ ؛ اليجييرى (دانتى) الكوميديا الإلهية : المطهر – ترجمة وتعليق د. حسن عثمان – القاهرة ١٩٦٤ – ص ٣٨٢ ومابعدها .

(٣٣) حول الأماكن الجغرافية التى ورد ذكرها فى الأنشودة ولم نستطع الاستدلال عليها أنظر : Bédier, op. cit., 19 et Passim.

(٣٤) وفيما يتعلق بالأماكن الحقيقية ، أنظر :

Bédier, op. cit., 3, 13 et passim.

(٣٥) أنظر تعليق هنرى لابورد Enrique Laborde على محاضرة مارسيل بيش فى :
Baiche, M, Roncesvalles no fue el Escenario de la Famosa Batalla en la que murio Rolando, in «ABC Martes, 15 de Agosto de 1978, 27».
هذا ، وسبق أن أوضح كورديه أن كتب الحوليات القديمة لم تحدد هذا الموقع الذى وصل إلينا عن طريق التناقل الشفوى – أنظر : Cordier, op. cit., 10.

(٣٦) Cf. Baiche, op. cit., loc. cit.

كشاف أبجدى عام

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ق)

(ك)

طبع بمطابع
رواى للاعلان
القاهرة - اسكندرية

